دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية

"دعوة الرسول" "دعوة الحق"

النسر الأبيض

محمد بن يوسف كما رأيته

جلالة الملك الحسن الثاني
داعية سلم ورائد سلام

خصائص النثر الفني عند

الحاج محمد الباجنيني

الحاج محمد الباجنيني

المثقف النموذج

العدد 280 محرم الحرام ـ صفر الخير 1411هـ غشت ـ شتنبر 1990م

الثمن : 4 دراهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا

صدق الله العظيم

تهنئة

بمناسبة حلول السنة الهجرية الجديدة 1411، وسطوع إشراقتها البهية على الأمة الإسلامية، ويتمثلاً بذكرى الهجرة المحمدية الشريفة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة التي قاد مسيرتها المباركة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام في سبيل نصرة دين الله، وتبليغ رسالة الحق، وتأثيل دعائم الدولة الإسلامية، يسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وأسرة مجلة "دعوة الحق" أن ترفع إلى مقام مولانا أمير المؤمنين، وحامي حمى الوطن والدين جلالة الملك الحسن الثاني المحفوظ بالسبع المثاني أدام الله نصره وتأييده، صادق آيات الولاء والطاعة والإخلاص إلى سدته العالية بالله، وخالص الدعوات إلى جلالته المنيفة بهذه المناسبة العظيمة الجليلة، سائلة الله العلي القدير أن يجعلها وأمثال أمثالها، سنة خير وبركة على جنابه الشريف أسماه الله وأعز أمره، وعلى وطننا الغالي، وشعبه الوفي المتشبث بأهداب العرش العلوي المجيد، وأن يبارك خطواته الموفقة، ومساعيه الحميدة لخير أمته وفي سبيل تقدمها وازدهارها، وخير الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

أطال الله عمر سيدنا المنصور بالله، وحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم، وأبقاه ذخراً وملاذاً لهذا البلد الأمين، يعلي مناره، ويوثل أمجاده ويحقق مطامحه، وأقر عينه بسمو ولي عهده المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيد سمو الأمير مولاي رشيد، وسائر أفراد الأسرة الملكية الشريفة، إنه سميع مجيب.

صاحب الجلالة أمير المومنين الملك الحسن الثاني نصره الله

صَاحبُ السموّ الملكي ولي العهْد المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد حفظه الله

افتتاحية العدد:

ويأبى الله إلا أن يتم نوره

يصدر هذا العدد من مجلة دعوة الحق بعد إشراقة مطلع العام الهجري الجديد 1411، وبعد حلول شهر غشت من سنة 1990، وبذلك يكون المغرب عاش ذكرى دينية عظيمة، وذكرى وطنية جليلة.

فالأولى عاشها المغرب كباقي العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها وهي ذكرى هجرة نبينا الأكرم ورسولنا الأعظم سيدنا محمد ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. تلك الهجرة التي اقتضتها حكمة الله تعالى، وكانت بوحي وإذن منه سبحانه لرسوله، لتكون مرحلة حاسمة من مراحل الدعوة الإسلامية، وليكون لها ما بعدها من التحول الكبير في حياة الإسلام والمسلمين، ومسيرته الظافرة نحو إظهار دين الله ونصرته، وإتمام نوره وإعلاء كلمته، ونحو استقرار المسلمين واطمئنانهم على دينهم ونفوسهم وأموالهم وأعراضهم، واستجماع قوتهم وتكوين دولة الإسلام قوية مطمئنة، تحقيقا لقول الله الكريم ووعده الذي لايخلف: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا**﴾ وقوله سبحانه: ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بافواههم ويابى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾.

لقد كانت مرحلة الهجرة المحمدية التي استمرت عشر سنوات في المدينة المنورة قبل أن يلتحق ﷺ بربه راضيا مرضيا، كانت مرحلة التأسيس

لدولة الإسلام بكل ما تحمله من معنى ومن أسس ومقومات، وعناصر ومكونات، حيث استقر ﷺ بالمدينة المنورة، وصارت بلده الثاني ووطنه المحبب إليه وإلى صحابته الكرام، فأحبوها وسعدوا بها واطمأنوا لها كما كانوا يحبون مكة وأكثر، وقام عليه الصلاة والسلام ببعض الأعمال الأولية العظيمة، فأسس أول مسجد في الإسلام بعد الهجرة، هو مسجد قباء، وأسس بعده مسجده النبوي في المدينة، فكان ثاني الحرمين الشريفين وأحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، وآخى بين المهاجرين والأنصار، مؤاخاة عز نظيرها بعد القرن الأول من الإسلام، الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وكانت في هذه المرحلة مشروعية الجهاد للدفاع عن حوزة الإسلام وحرمته، وعن مكانة المسلمين وعزتهم، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿**أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظُلِمُوا، وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله**﴾ وقوله:﴿**ولله العزة ولرسوله وللمومنين**﴾ وفيها نزلت السور المدنية، وما فيها من تشريع وأحكام مفصلة يهتدي بها المسلم في دينه ودنياه، حتى ختمها الحق سبحانه بآية إكمال الدين، وارتضائه للناس دينا، وأنزل قوله الكريم: ﴿**اليوم أكملت دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾.

وهكذا كان حدث الهجرة المحمدية حدثا عظيما وتحولا كبيرا في حياة الرسول ﷺ وأمته المسلمة وتبليغ رسالة ربه، وانتشار الإسلام، بلغ من الأهمية ما لا يخفى على كل مسلم، وخاصة من درس سيرة هذا النبي الكريم، مما جعل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه والصحابة الكرام في عهده يتخذونه مبدأ للتاريخ الإسلامي، فكانت الهجرة بحق، بشارة خير، وفاتحة عهد جديد، ومنطلق عز وفتح دائم ونصر متواصل للإسلام والمسلمين. ولما فتح عليه الصلاة والسلام مكة، وقضى على الشرك وعبادة الأوثان، وعامل أهلها تلك المعاملة الحسنة الشهيرة وأصبحت مكة

دار إسلام وأمان، قال لأمته عليه الصلاة والسلام: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا».

وحتى يبقى معنى الهجرة قائما في نفس كل مسلم ومسلمة، راسخا في أعماق فؤاد كل مومن ومومنة، شاخصا في سلوكه وماثلا في أعماله، قال عليه الصلاة والسلام: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والمومن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فأعطى بذلك ﷺ مفهوما عاما، ومدلولا واسعا وخالدا لمعنى الهجرة في الإسلام.

وموضوع الهجرة المحمدية، وذكراها الإسلامية الخالدة وكل ما يتصل بالسيرة النبوية العطرة والشمائل الطاهرة لصاحبها عليه الصلاة والسلام، تناولته كتب السيرة قديما وحديثا، بتوسع وتفصيل، واستوعبته بما لا مزيد عليه من التوثيق والبيان والتحصيل، واستخلص منها العلماء وفقهاء السيرة فوائد هامة، وإستنبطوا منها استنباطات وأحكاما دقيقة، ليظل حدث الهجرة، وتبقى السيرة النبوية بصفة عامة قبسا وهاجا، ونبراسا وضاء ينير السبيل لأمة الإسلام في كافة أمورها، ويهديها لأقوم السبل في سائر أحوالها، ويرسم لها الأسلوب القويم، والمنهاج الحكيم والطريق السليم للوصول إلى الآراء الإيجابية الصائبة، والحلول الناجعة المفيدة لعلاج كل القضايا المطروحة، والمشاكل المستعصية على مستوى الأفراد والأمة، وتحقيق جميع الأهداف النبيلة والمرامي البعيدة والمقاصد الحكيمة التي جاء بها الإسلام ودعا إليها أمة الإيمان، من أخوة ومحبة وصفاء، وسلام ووئام، وتعاون على البر والتقوى، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾. وقول النبي ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي».

ومن ثَمَّ فإن هذه الذكرى أعظم من أن تستوعب جوانبها صفحة أو صفحات، وأكبر من أن توفيها حقها أو تحيط بنتائجها وبما يستخلص منها من دروس وعبر ورقة أو ورقات، وحسب هذه الافتتاحية أن تشير

إلى تخليد هذه الذكرى الإسلامية الخالدة، وأن تذكر بأن المغرب ـ والحمد الله ـ كان ولا يزال يحيي ذكرى الهجرة النبوية بما ينبغي من عناية واهتمام، ويعمل على تخليدها وتذكير الأمة المغربية بها على الخطب المنبرية وفي الدروس الدينية بالمساجد، والمحاضرات والندوات خارجها، بما يبرز ظروفها ومعالمها وحكمتها ونتائجها، ويوضح ما توحي به الهجرة المحمدية وتزخر به من جهاد وصبر وتضحية ومن معان ومثل وأخلاق إسلامية، حتى يبقى حدث الهجرة راسخا في نفوس وقلوب أمته المومنة، وتظل متمسكة بما تضمنته من مبادىء إسلامية وتوجيهات نبوية، حريصة على الاهتداء بهدي نبيها الكريم، والاقتداء بسنة وسيرة نبيها الأمين، وتَرَسُّم واتّباع خطاه والسير على نهجه القويم في كل وقت وحين، عملا بقول الله تعالى: **﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾**، وقوله سبحانه: **﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فانزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾**. هذا عن هذه الذكرى الدينية العظيمة في الإسلام. ****

أما الذكرى الثانية التي عاشها المغرب فهي ذكرى وطنية جليلة، تعتبر من أعز ذكرياته الخالدة، التي يفخر بها في تاريخه الطويل المجيد، إنها ذكرى ثورة الملك والشعب التي يخلدها المغرب في اليوم العشرين من شهر غشت ومنذ سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف 1953م.

ففي ذلك اليوم كان الاستعمار قد تجرأ وأقدم على تصرف ماكر، ومغامرة فاشلة، فامتدت سطوته الغاشمة ويده الآثمة إلى رمز السيادة المغربية، وبطل التحرير والمقاومة، وضامن وحدة البلاد واستقرارها جلالة المغفور له محمد الخامس رضوان الله عليه، فنفاه عن وطنه وشعبه وعرشه، فكان ذلك بداية انتهاء عهد الاستعمار، وطريقا نحو الانعتاق والاستقلال.

لقد كان ما أقدم عليه الاستعمار باعثا على انتفاضة الشعب المغربي وإذكاء لحماسه ونضاله الوطني في سبيل تحرير وطنه وعودة ملكه الشرعي إلى عرشه العتيد، فقام قومة رجل واحد، وهو في منتهى الوعي واليقظة، والوفاء والأمانة، والاستعداد للفداء والتضحية، والجهاد والكفاح بكل غال ونفيس، والوقوف سدا منيعا في وجه الاستعمار وإفشال مؤامرته الماكرة، تحقيقا لقول الله تعالى: **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾**.

وإن المرء حين يتوقف عند هذه الذكرى ويتأمل ظروفها وملابساتها، وسر الانتصار فيها يجد أمرين أساسين أكثر من غيرهما:

أولا ـ أن جلالة المغفور له محمد الخامس كان قوي الإيمان بالله، واثقا من وعده بنصره ونصر عباده المومنين الصالحين الذين يدافعون عن الحق، ويجاهدون من أجله في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، متيقنا أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وأنه إذا كان للباطل جولة عابرة، فإن للحق صولة دائمة وراسخة، فكانت له بذلك مواقف حازمة ثابتة، سجلها التاريخ وكتبها لجلالته بمداد الفخر والإعتزاز، ولدولته العلوية الشريفة في صفحاتها المشرقة، ودفاعها عن حوزة الدين والوطن، فكان بحق أبا المقاومة المغربية، وقائد معركتها المظفرة، وبطلها المومن المقدام، وزعيم انتفاضتها العارمة المباركة.

الأمر الثاني: هو التفاف الشعب المغربي الوفي، واجتماع كلمته حول عاهله المفدى وعرشه العلوي المجيد، مشخصا بذلك حفاظه على الطاعة والولاء والإخلاص والوفاء، الذي هو من شيم هذا الشعب الأبي، ومن خصاله الحميدة وأخلاقه الإسلامية النبيلة، وحريصا على أن يكون مع ملكه المجاهد ممن يشملهم قول الله تعالى: **﴿من المومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾** وقوله سبحانه: **﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما﴾**.

إن الوقوف عند هذه الذكرى في مناسبتها، والتأمل فيها ببعد نظر وعمق تفكير، وفيما كان فيها لجلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثـراه، من مواقف وجهاد، وصبر وتضحية، وما تحقق على يده من إنقـاذ المغـرب من ربقة العبودية، ومن تمتيعه بما كان معـروفـا بـه في مختلف العهـود من نعمة الاستقلال والحرية، ليهدف إلى تذكير ناشئة المغرب وشبابه الصاعـد بهذه الفترة النضالية من حياة وطنهم العزيـز، ويصل بـالمرء إلى القنـاعـة والقول بأن الله تعالى إذا أراد شيئا هيأ له أسبابه، أو قال له كن فيكون.

فقد أراد الله لبلد المغـرب المومن التعجيل بـالانعتـاق من ذل الاستعمار وسيطرته، فهيأ له ملكا قوي الإيمان، متحليا بالشجاعة والإقدام، والصلاح والإصلاح، وبالتروي والإلهام، يدرك الأمور بفراسـة المومن، وينظـر بنـور الله، كما يسر سبحانه لهذا البلد شعبا أبيا وفيا، مجاهدا صـابـرا، مخلصـا متـديـنـا، لا يقبل الضيم والهوان، ولا يـرضى المسـاس بمقـدسـات الـدين ومقومات الوطن، فالتقت إراداتهما على درب الجهاد والنضـال، وفي مسيرة الكفاح والعمل، فاستجاب القـدر، وحقق الله الـرجـاء والأمل، وكـان النصر للحق وكان الظفر، لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه، ورجع محمد الخامس بعد سنتين من المنفى إلى وطنه وشعبه وعرشه معززا مكـرمـا، مبجـلا معظما، مكللا بإكليل العز، ومتوجا بتاج الانتصار، حاملا معه بشارة انتهـاء عهـد الحجر والاستعمار، وبزوغ فجر الحريـة والاستقـلال، وكـان ذلك في يـوم مشهود أغر، يوم سادس عشر نـونبر 1955، وفي مشهد عظيم عمت فيـه الفرحة والبهجة بشكل منقطع النظير، وما عليه من مزيد، وبما يعجـز عن وصفـه اللسـان ولا يستطيعـه القلم والبيـان. رجع محمـد الخامس بتلك البشارة والفرحة والبهجة، وهو يـدرك كل الإدراك مـا حقق الله على يـديـه لبلده وشعبه من النعمة الكبرى، ومن الفتح والنصر، وما ينتظره وشعبه من الجهاد الأكبر لصيانـة تلك النعمـة، والنهـوض بمتطلبـاتها في كل الميـادين والمجالات، فأخذ يلهج بحمد الله وشكره، ويتلو مع أفراد عائلته وشعبه قول

الله سبحانه: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾، ويردد ما جاء في الأثر: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: جهاد العمل والبناء في كل ميدان.

هذه إشارة مركزة من خلال هذه الافتتاحية الموجزة إلى هذه الذكرى الخالدة التي كتبت في موضوعها بحوث ومؤلفات، والتي تعتبر واقعتها مظهرا من مظاهر الجهاد في سبيل الله، واستمرارا للهجرة إلى الله ورسوله من أجل إعزاز الدين ونصرة وطن الإسلام، والتي يستخلص منها ما يمكن أن يحققه التفاف هذا الشعب الوفي حول عرشه العلوي المجيد من التقدم والازدهار، والاستقرار والاطمئنان، والمعجزات في كل مجال، ويشملها قول الله تعالى في أوصاف أهل البر والتقوى والإيمان وإعزاز أمة الإسلام: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في الباساء والضراء وحين الباس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ وقوله سبحانه: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمومنين﴾.

دعوة الحق

خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده

بمناسبة عيد الشباب المجيد

بمناسبة عيد الشباب، وحلول الذكرى الواحدة والستين لميلاد مولانا امير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني ادام الله عزّه وعلاه، وجه جلالته ـ حفظه الله ـ خطاباً سامياً إلى الأمة، وذلك مساء يوم الاحد 8 يوليوز 1990.

وقد كان جلالة الملك خلال إلقاء هذا الخطاب محفوفاً بصاحب السمو الملكي ولي العهد الامير الجليل سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وصاحب السمو الملكي الامير مولاي هشام.

وفيما يلي نص الخطاب الملكي السامي الذي نقل مباشرة على امواج الإذاعة وشاشة التلفزة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز :

ألفنا منذ ثلاثين سنة أن نلتقي في مثل هذا اليوم لنتحدث للشباب عن شؤون ومهمات الشباب. وكل سنة كانت هذه المناسبة سانحة لأن نتطرق إلى المشاكل العامة التي تمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى مهامكم أيها الشباب.

وفي هذه السنة 1990 ولم يبق بيننا وبين القرن المطل علينا إلا عشر سنين رأيت من الواجب علي أن أقول لك ما يخامرني وأن أشركك فيما يهمني ويؤرقني ألا وهو مستقبل بلدنا وبالطبع مستقبل شبابنا الذي هو حارسها وكاهلها وبانيها والمسؤول عليها والملتزم لها.

إن الشباب في المغرب كالشباب في كل بلد ـ بقطع النظر عن الجنسية والدين واللون واللغة ـ لايريد أن يعيش دون أمل، ولا يمكنه أن يتصور حينما يستيقظ كل صباح أن نهاره سيكون وسيظل مظلمًا، وأن رنات قلبه ونبضات عروقه الشابة اليانعة لاتجد صدى يسليه أو يقويه أو يثبت عزيمته كيفما لوى رأسه ذات اليمين أو ذات الشمال.

إذن استنتجت من هذا كله أنه بعد الغذاء والسكن واللباس يجب للإنسان إذا توفرت له هذه العناصر الثلاث التي تحفظ حشمتنا ويومنا وغدنا واطمئناننا وسكننا يبقى ما هو أثمن وما هو أغلى من كل شيء لنفسه ولأسرته ولبلده وهو أن تتسع أمامه آفاق الحياة ومجالات العمل الدؤوب وميادين الجد والاجتهاد وكما قال الشاعر :

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

فكيف إذن ـ شعبي العزيز ـ يمكننا أن لانترك شبابنا دون أمل، وكيف سنتمكن من أن نجعله حينما يستيقظ يرى إلى نور الفجر بالعين المستبشرة وحينما يروح إلى بيته ينظر إلى شمس الغروب لا كغروب ولكن كشمس تنبىء بشمس الغد وضاءة وضاحة مليئة بالآمال ومليئة بما يمكن أن يفسحه له بلده من مجالات العمل والجد والاجتهاد.

إنك تعلَم شعبي العزيز أن الظاهرة الأساسيةَ للقرن الذي عشناه كانت وأصبحت الظاهرة الأُولى من الناحية الاجتماعية. ذلك أن الدول كيفما كان شانها ومستواها تمكنت من القضاء كل حسب طاقاته على الأُمية، وتمكنت بعض الدول أو القارات أن تضمن الحد الأدنى للأكل والتغذية، ولكن لم تجد إلى حد اليوم دواء لداء البطالة. ولا أقول البطالة بالنسبة لشعبنا. فالبطالة ليست هي اللفظ الصحيح لأن البطالة تعني انعدام الكرامة. أقول بالنسبة لشعبنا عدم التشغيل وعدم إيجاد المجال السامح لكل قريحة أن تعمل كما تريد وكما يجب أن تعمل.

فنحن نرى في جميع القارات وحتى في الدول المصنعة وحتى عند الدول السبع الأكثر تصنيعاً التي ستجتمع اليوم 9 يوليوز في هيوستن أن هذه الدول لا تشكو فقط من عدم وجود المجال للتشغيل بل تقبله وترضى به إلى حد ما كقدَر من الأقدار أو كضرورة من الضرورات، بل أنها حينما تضع برامجها لا تقول ساقضي على عدم التشغيل بل تقول سوف أعمل وتعد بأن تعمل لكي لا ترتفع نسبة عدم التشغيل.

هل معنى هذا ـ شعبي العزيز ـ أننا سنرضى لأنفسنا ونرضى لمطامحنا قضاء غير قضاء الله وقدراً غير قدره؟ أظن أن هناك مجالاً للتفكير وللعمل وللبحث، لا لأن المغرب بيده عصا موسى أو يستعمل خاتم الحكمة لإنجاز الكرامات والمعجزات ولكن لأن المغرب ـ ولأنه المغرب ـ أسرة واحدة وتراث واحد كذلك الثعبان الذي يعض ذنبه لا أول له ولا آخر له بعد الله، لأن المغرب له عمود فقري وله مؤهلات وله من الآثار ما يضمن المستقبل كما يقول الشاعر :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ولم لا يرى ورثتنا في الأحقاب والقرون المقبلة آثار عملنا؟ و لِمَ نحرم على أنفسنا الجد والاجتهاد للخروج من هذه الدوامة التي أصبحت تفرض نفسها كقضاء وقدر. أقول على الأقل علينا أن نجتهد وعلينا أن نسعى وليس علينا أن يواكبنا النجاح. فالمسالة ليست مسالة مادة ولا مال والدليل على ذلك أن الدول الغنية المصنعة تشكو من هذه الحالة. إذن أين هو الدواء. الدواء في نظري يكمن في نَفَسٍ طويل وفي عبقرية وطنية ويكمن كذلك في شيء من الابتكار والاستشارة والحوار والبحث يومياً وسنوياً وحُقُبِيّاً إن صح التعبير عن الفضيلة وعن الحقيقة.

شعبي العزيز :

كل سنة يجد المغرب في سوق التشغيل ما يقرب من 300 ألف شاب مغربي. وهذا الشباب المغربي ينقسم إلى قسمين: الثلثان أي 200 ألف يجدون عملاً ويجدون الشغل. إما لأنهم نجحوا في تكوينهم وتدريبهم في الميدان التعليمي وإما لأنهم نجحوا في ميدان التكوين المهني. ولكن يبقى دائمًا هناك تقريباً

100 الف أو 120 الف شاب مغربي بدون عمل. فهل من غير الممكن أن نجد لهؤلاء الـ 120 الف شاب وشابة بالبحث والتفكير والنظر الثاقب مجالاً لينعموا هم الآخرين بالكرامة وبالتامل في الآمال ولينعموا بالشمس المصبحة والشمس الغاربة. أظن أنه أمامنا رهان علينا أن ناخذه من الناصية. فإذا نحن نجحنا وفي اليقين أننا سننجح فسوف نكون ولله الحمد من الموفقين. وإذا لم ننجح سنعيد الكرة للنظر في الأسباب التي جعلتنا لم ننجح. فعدم النجاح يجب أن يكون مدعاة للتمادي في العمل لا سبباً للتقاعس والتخاذل.

طيب نحن سنفكر وكيف سنفكر. إن أجهزة التفكير ستتطلب منا أفرادا وجماعات الإخلاص في العمل والتجرد في المقاصد والسهر الذي لا يعرف راحة والابتكار الذي لا يقبل الروتينية أو بلفظ أجمل وأكمل يقتضي منا الوطنية.

وهنا أرجع بالذاكرة إلى ما قاله أبونا جميعا والدي رحمة الله عليه مولانا محمد الخامس عند رجوعه من المنفى وحينما أعلن لشعبه العزيز بزوغ فجر الحرية والكرامة والاستقلال رواية عن جده وسيده مولانا محمد صلى الله عليه وسلم «اليوم خرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وها نحن بعد 30 سنة نرى أننا لازلنا في الجهاد الأكبر وعلينا أن نتسلح لأننا نعلم أن الجهاد الأكبر لا ينتهي ولن ينتهي أبدا عند شعب طموح ينتمي إلى دين الإسلام دين الكرامة والحرية والأمل. أقول الأمل لأنه لم يرد على ما أظن في كتاب الله العزيز اللفظ المعاكس لـ «وبَشِّرْ» فكلمة النذير ليست اللفظ المعاكس للمبشر.

فالقرآن يبشر، والله يبشر، ونبيه يبشر، والمسلم يبشر ولا ينفر. إذن كيف سنخرج من هذه المشكلة بكيفية علمية ولكن بشرية لأننا لا نعمل بالكومبيوتر إلا إذا اضطررنا إلى العمل بالكومبيوتر. نحن دولة قديمة في الأصالة وفي الحضارة نعمل بحاستنا وبتفكيرنا وبخيالنا ولا نلجأ إلى أرقام الكومبيوتر إلا إذا وجدنا أنفسنا أمام مشكلة تقنية يصعب علينا حلها من ناحية الحسابات أو من ناحية الأرقام.

الحمد لله، شعبي العزيز، على أن الثروات والثروة الأولى وهي الثروة البشرية موجودة عندنا، ووسائل التشغيل موجودة عندنا، فهل شعبي العزيز استنفدنا جميع طرق البحث. وهل طرقنا جيمع الأبواب أو جميع النوافذ التي تفتح لنا لنطل على الأمل والمستقبل. أظن أننا لم نطرق جميع الأبواب لأننا في الحقيقة ونحن جميعا مسؤولون جماعات وفرادى «فنحن في الهوى سواء» لم ندخل مجال الحوار في هذا الموضوع.

نعم الحوار موجود في الجماعات المنتخبة وفي البرلمان وداخل الأحزاب السياسية والهيئات النقابية والمنظمات المهنية وجمعيات آباء التلاميذ وبين كل مواطن وآخر. ولكن هل نظم هذا الحوار وهل اتخذت له سبل النجاح وهل استكمل هذا الحوار جميع الضرورات ليكون حوارا مجديا وحوارا يراهن ليكون حوارا ناجحا. أظن لا. وهنا مسؤوليتنا فكآباء وكمسؤولين قمنا بالحوار كل منا في دائرته. ولكن كمجموعة حضارية تعيش في مدينة واحدة طبقا لكتاب واحد وسنة واحدة وفي كَنَفِ مشروعية معترَفٍ بها. هل تحاورْنا؟ أظن لا. وما دمنا لم

نجرب هذا الحوار أعتقد أنه علينا أن نكون متفائلين جدا. حينما نرى هذا الثلث الباقي الذي ذكرت لك شعبي العزيز الذي هو مائة ألف أو مائة وعشرون ألفا من الشباب لا نجد أمامنا شبابا أميا أو مبتور اليد أو خلقه الله برجل واحدة أو فارغ الدماغ أو لا يميز بين الحسن والقبيح وبين الحلال والحرام.

أبدا. لا نجد بشرا أميا جاهلا فطريا بل نجد أناسا بلغوا من السن ما يقارب سبعة عشر أو عشرين سنة أو ما يفوق ذلك نجد أناسا يقرأون ويكتبون. نجد من بين هؤلاء الناس من ولج التعليم العالي لمدة سنة أو سنتين ثم رسب بعدها. فإلى متى سنترك رأس المال هذا وحتى لو لم يكن مائة في المائة رأسمال فهو ليس كله خسارة. فلابد أن هناك شيئا يجب استغلاله من هذا الرصيد. إذاً يجب أن نشبه نفسنا بالحطب - وكلنا حطب - نحترق وتحترق عمارنا لنعطي لشمس بلدنا النار والنور الكافي تستمر. هذا الحطب الذي تركناه في الخارج هل هو حطب مُبْتَلٌّ لا يمكن أن يعطي النور والإنارة والطاقة للبلاد. لا أظن ذلك، فبالعكس إن الله لا يفقد الأمل في عباده ونحن لم نفقد الأمل في مواطنينا. وهذه المائة أو المائة وعشرون ألف الباقية - وهذه حقيقة نقولها - ضيعنا فيها مبالغ مالية حيث يجب أن نلفت نظرك شعبي العزيز لبعض الأرقام، لأن ما نتحدث فيه ليس بحلم أو شعر أو ديماغوجية أو خيال. فالأمر يتعلق ببشر مغربي مخلوق من الله سبحانه وتعالى له حقوق وعليه واجبات.

فعلينا أن ننظر إليه بعين الرحمة وقلب الألفة والحنان والرأفة وعلينا أن ننظر إليه كذلك من الناحية العقلية والعقلانية. ولا ننسى شعبي العزيز أن الدولة - وهذه ليست خسارة في المغربي - تصرف على كل تلميذ سنويا 340.000 سنتيم بما في ذلك الابتدائي والثانوي والعالي. والمعدل الفردي لكل من اجتاز الباكالوريا ولا أقول من اجتاز التعليم العالي هو خمسة ملايين وخمسمائة ألف سنتيم، زيادة على أولئك الذين انقطعوا عن الدراسة أو رسبوا.

وإذا أردنا أن نقوم بعملية حسابية تجارية يمكن أن نتساءل هل الإنسان الذي صرف كل هذه المبالغ زيادة على بناء الطرق وتشييد السدود وإنجاز مشاريع الفلاحة والإنارة والمستشفيات والمدارس وغير ذلك وقام بكل هذا المجهود أليس بإمكانه أن يفكرفيما تبقى له ليعمل به شيئا ما؟ لقد فتحنا أعيننا في بيوتنا بما في ذلك دار المخزن على استغلال ما تبقى من الخبز والخضر وعدم تضييعه في نهاية كل أسبوع واستغلاله لتحضير وجبات شهية ولذيذة بعد إضافة كل ما يلزم من توابل.

وبعد تمحيص النظر في كل هذا هل من المعقول ألاَّ يستغل المغرب هذا العدد من هذه الطاقات ويستعملها للنور والإنارة والإنتاج. أظن أن تفكيرا مخالفا لهذا هو تفكير البائسين وغير الوطنيين. ستقولون هل جئت لأتذاكر معكم وأتحاور معكم لشرح وطرح موضوع لا يمكن أن أصفه لا بأنه هام أو مهم فعنده لفظ ولكن هذا يتعلق بالله سبحانه وتعالى لكن أضعه بين قوسين وأسمي الموضوع (موضوع جلل). لا ليست هذه عادتي، لست ممن يبكي على الأطلال دون إيجاد أو السعي إلى إيجاد الحلول.

لقد بحثت في المصالح الموجودة عندنا سواء مصالح الدولة أو مصالح القطاع الخاص أو مصالح

القطاع العمومي أو شبه العمومي، ويمكن أن أكون على خطأ في هذه الأرقام، ولكن ساقول لكم: إنني لم أقل الأرقام فحسب بل فكرت وابتكرت، وعلى الأقل عملت مجهودا لإيجاد هيكل سينظر في هذه الأرقام هل هي دون الحقيقة أو فوق الحقيقة أو مطابقة لها؟ نجد أنه نظرا للتقتير ولشيء من الاقتصاد، عوض أن توظف الدولة في هذه المدة الأخيرة سنويا عشرين ألف شخص أصبحت تكتفي بنصف هؤلاء. فإذا أرادت والحالة هذه أن ترجع إلى سابق معدلها ومستواها نحن نحسب على الدولة عشرة آلاف موظف سنويا. وبالنسبة للجماعات المحلية فإن عددها كما تعلم شعبي العزيز سيزداد، والبلديات يربو عددها على ثمانمائة بلدية، وستصل إن شاء الله إلى ما يقارب ألفاً وستمائة حيث أن البلاد كبرت والحمد لله، والمدن الصغيرة أصبحت متوسطة، والجماعات التي كانت صغيرة أصبحت مؤهلة لتصبح بلديات، واللامركزية التي عملنا بها فيما يخص إدارة الشؤون المحلية كل هذا يجعلنا نعتقد أن الجماعات المحلية. يمكن أن توظف تقريبا عشرين ألف شخص سنويا.

وحينما ننظر إلى قطاع الصناعة بما في ذلك قطاع المعادن نجد هذا القطاع إذا أعطيت له الحيوية اللازمة يمكن أن يشغل هو كذلك 20 ألف شخص تقريبا، ويكون بذلك قد أخذ حيوية مهمة من الرسالة التي أرسلناها إلى وزيرنا الأول فيما يخص الاستثمار.

فالرقم الحقيقي لا أتوفر عليه. ولكن الذي يمكن قوله أنه فيما يخص النسبة المائوية لهذا العام والسنة التي مضت فيما يخص الملفات التي قبلت، والمعامل التي هي في طور الإنشاء، واليد العاملة التي ستشغل لا سبيل للمقارنة بين أواخر 1989 وأوائل 1990 وبالنسبة للسنوات الأخرى.

وهنا أتوقف وأقول بإنه لا يمكن للقطاع الصناعي أن يعطي ما هو منتظر منه إلا إذا قامت الأبناك الخاصة بمجهود فيما يخص الاستثمار. ونعرف أن الأبناك كلها مغربية ولله الحمد، والأطر التي تسيرها والأشخاص الذين يملكون أسهمها ليسوا أقل وطنية ولا حماسا من غيرهم. ولكن ربما يقتضي الإطار القانوني - لأنهم يعملون على تشريع سنة 1967 - إعادة النظر فيه ولا سيما في ما يخص أمور الاستثمارات والمشاريع. ولي اليقين أننا سنجد في هذه المؤسسات نفس الحماس ونفس الانشغال لأن الأموال التي تتراكم اليوم سيكون ضمانها يوم غد هو السلم الاجتماعية والاستقرار والاطمئنان. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كاد الفقر أن يكون كفرا» فمن مصلحة كل ذي مال سواء كان هذا المال عنده في بيته أو يستثمره في مشروع فلاحي أو في الصناعة التقليدية أو في مكتبه كمحام أو كطبيب. كل من وفر مالا ويسر الله عليه ينبغي عليه أن ينظر إلى هذه الأموال لا كأموال ينبغي تبذيرها بل كأموال هو مؤتمن عليها في المقام الأول. وأحسن أمان للجميع هو أن يعيش الناس في حمد الله وشكر نعمه.

ويمكن القول فيما يخص الصناعة أنها إذا قامت بمجهود يمكنها أن تشغل 20 ألف. وإذا نحن طهرنا ميدان السياحة من خلال فرض مراقبة صارمة أكثر فيما يخص عدد النجوم وتطهير صفوف من لا أريد أن أسميهم بالعربية لأن العربية غير صالحة بالنسبة لهم وهم من يُسمُّونَهم بالفرنسي «لي

كيد».

فكلمة «كيد» بالعربية هي كلمة شريفة ولا يستحقها جلهم. أما الآخرون الذين هم حقيقة صالحون لهذه المهنة فاطلب منهم أن يسمحوا لي. وإذا نحن قمنا حقيقة بالمجهود اللازم ليس فقط في الفندق بل في ما يحيط بالفندق نعتقد بأن السياحة يمكنها أن تشغل 5000 شخص. أما بالنسبة للفلاحة فينبغي أن نشجع أكثر، الفلاح المنتج وليس المستهلك، فيجب تشجيع المنتج كي يزداد الإنتاج وتنخفض الأسعار ولكي يربح أولئك الذين يعملون.

فنحن عملنا معهم اللازم ونظرنا في الأراضي التي تديرها مؤسستا «صوديا» و «سوجيطا» فلا ينبغي أن تظلا عبئا على الدولة.

بقي بالطبع مشكل وهو المقياس والمعيار الذي سنعتمده لكي نقول لفلان أوفلان دون فلان تفضل خذ هاته الـ 100 هكتار أو خذ هاته الـ 120 هكتار أو فيما يخص الخضروات مثلاً خذ هاته الـ 30 أو الـ 35 هكتار. ولكن المبدأ يجب أن يقرر نهائيا كي تكون اليد العاملة كما يجب أن تكون. حيث أنه بالنظر فيما يخص هذه القضية نجد أن الفلاحة يمكنها أن توفر 20 ألف منصب شغل جديد سنويا.

وفيما يخص الصيد البحري ـ كما تعلم شعبي العزيز ـ فإن كل قارب صغير في الصيد الساحلي يتطلب ثلاثة أشخاص على الشاطىء، وهذه قاعدة معروفة عندنا وليست قاعدة نموذجية، فهي قاعدة حقيقية تطبق عندنا في جميع موانئ الصيد البحري. نظن على أنه إذا تمشت بكيفية منتظمة وعادية يمكن أن تشغل هي كذلك 5000 شخص.

وأخيرا وهذا شيء نراه ونعانيه هناك، ولله الحمد رغم ما يقوله بعض الناس الذين هم دائما متشائمون ولا حاجة في نظرهم تستوجب أن يقولوا الحمد لله، هناك ظاهرة وهي كون البناء في تزايد مستمر. والذي جعل البناء لا يزيد أكثر مما هو عليه الآن هو انعدام الرمل. كيف ذلك. نعم الرمل ليست موجودة للإسمنت، فاليوم الذي نجد فيه وسيلة تقنية تمكننا من أخذ الرمل من البحر أو من الأماكن التي توجد بها الرمال فإن البناء الذي تراه الآن شعبي العزيز سيتضاعف، وليس من ضرب الخيال أن نقول: إنه إذا ما اتخذت التدابير ونظم هذا الميدان وهو منظم ولكن ينبغي أن يكون التنظيم محكما أكثر ويتوفر الرمل والإسمنت فهذا الميدان يمكنه أن يشغل 20 ألف شخص.

فإذن فالدولة ستشغل 10 آلاف، والجماعات المحلية 20 ألف، والصناعة 20 ألف، والسياحة خمسة آلاف والفلاحة 20 ألف، والصيد البحري خمسة آلاف، والبناء 20 ألف أي ما مجموعه 100 ألف. وهذا رقم لا يستهان به. فكيف سنعمل. عمليا الأمر يحتاج إلى حوار وإلى نفس. وفوق الحوار والنَّفَس تلزم المتابعة اليومية وإشراك أكثر ما يمكن من المحاورين «بكسر الواو» أو المحاورين «بفتح الواو»

لذا قررت شعبي العزيز بعون الله سبحانه وتعالى وتوفيقه إنشاء المجلس الوطني للشبيبة والمستقبل، وزدت لفظ المستقبل لأن المستقبل هو الذي يذكر ـ فإذا لم نذكر سوى الشبيبة فسنرى شبيبة اليوم تحبو أمامنا ـ فذكر لفظ الاستقبال هو الذي يجعل الشبيبة مرتبطة ليس بالحال فحسب بل بالمآل المتوسط والبعيد كذلك. لذا أضفت لفظ

المستقبل.

وهذا المجلس الوطني للشبيبة والمستقبل سيضم جميع هذه القطاعات التي ذكرتها أمامك أي الدولة والقطاع الخاص والقطاع العمومي والقطاع شبه العمومي.

وسيكون لها رئيس فقط وهو خادمكم هذا، وأمين عام سيكلف بالمتابعة وبالسهر على التطبيق والتنفيذ. أما رئاسة الجلسات التي ستعقد على الأقل مرتين في السنة - ولازلت أفكر في نص الظهير - فهي لن يكون لها رئيس على مدار العام كله أو على مدى عامين. بل ساختار لرئاسة كل دورة الرجل الكفء الذي أراه في المجلس كفئا لإدارة الشؤون والمشاكل المطروحة على المجلس في تلك الدورة. لماذا؟ لسبب واحد. ذلك أنه لما تأتي مسألة الأبوة فليس هناك لا بروتوكول ولا صلاحيات، وهذه ليست مشكلة إدارة روتينية أو بستان أو منجم فالأمر يتعلق بفلذات أكبادنا.

إذن جميع الذين هم أعضاء في المجلس هم كلهم معنا إما في التَّنوُّر وإما في النور. إذن كلهم عندهم القابلية أو الصلاحية لأن يترأسوا ندوة من الندوات أو جلسة من الجلسات. وهكذا لن يكون بين ذلك المجلس وبيني أي حجاب. فالذي سيترأس دورة لن يترأس دورة أخرى ويمكن، ويمكن لإنسان ربما لم يسبق له أن كان معروفا، ولكنه رجل مؤمن ومقدام وناجح في القطاع الذي يعمل فيه أن يترأس ندوة أو جلسة رغم وجود مهندسين ودكاترة وأناس يتوفرون على شهادة التبريز لأنه يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر في بعض الأحيان.

وهذا المجلس ستكون لديه فروع بالنسبة للأقاليم. في مرحلة أولى في الجهات الاقتصادية السبع ريثما تتكون الخلايا وفي مرحلة ثانية ولكنها قريبة في كل عمالة أو إقليم. بالطبع هذا المجلس لن يكون إلا كجميع المجالس لا قيمة له إلا بأعضائه. وهنا ساحاول أن أختار أحسن ما هو موجود وأطلب من الله التوفيق. ولكن الأشخاص الذين ساختارهم سيكون ذلك على مقاييس. ويجب عليهم أيضا أن يقبلوا الرهان كيفما كان ثقله وكيفما كان عبؤه وكيف ما كان حجمه وكيف ما كان الرهان فهو يتطلب النفس الطويل لا يعرف السأم أو الملل.

هذا شعبي العزيز ما كنت أريد أن أقوله لك في يوم عيد الشباب. إن الشباب لا يمكن أن يستيقظ بدون أمل ولا يمكن أن ينام على خجل. وإذا كان ذلك شأن شباب الأمة، فالسلام على تلك الأمة. وأتذكر ما قاله المفسرون عندما نزلت سورة «ألم نشرح» قول المفسرين أنه لما وصلت الآية إلى «ولسوف يعطيك ربك فترضى» قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا رب كيف أرضى وواحد من أمتي في النار»، ففي ذلك اليوم بُشِّر بالشفاعة وأُعْطِيَ الشفاعة. وكيف نرضى وواحد من أسرتنا الكبيرة في الياس أو معرض لأن تضيع كرامته، لا يمكن أن يحدث هذا ولن يحدث أبدا. ولي اليقين حتى لو لم آت أنا بهذه الفكرة فلابد أنه كان سيوجد يوماً ما مغربي سياتي بها، لأن هذه البلاد ولله الحمد لا تخلو من خير. إنني كلما ناديتك أجبتني، وكلما طلبتك استجبت لي، وكلما دعوتك تجندت لي.

والآن أطلب منك شعبي العزيز تجنيدا جديدا وقبول رهان جديد، إنه رهان يُشَرِّف، لأنه يتعلق بالاستخلاف الذي يقتضي منا أن نترك وراءنا بعد

مرورنا من دار الفناء إلى دار البقاء جيلا بعد جيل. من يَخْلُفُنا ويتقن الخلافة لنكون بذلك جديرين بآيات الله سبحانه وتعالى حين قال: ﴿وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

« لقد قدمتَ عرشَك وأسرتَك ونفسَك للدفاع عن هذا الوطن وكان الشعب يتسابق لفدائك وكنت تسابقه للدفاع عن حوزته وحماية مكاسبه، وبهذا التسابق للفداء والتضحية حصل ذلك التجاوب العظيم بينك وبين هذا الشعب فحققت المعجزات التي أثارت إعجاب العالم. »

الحسن الثاني

(محمد الخامس: فكرة وعقيدة . ص 243)

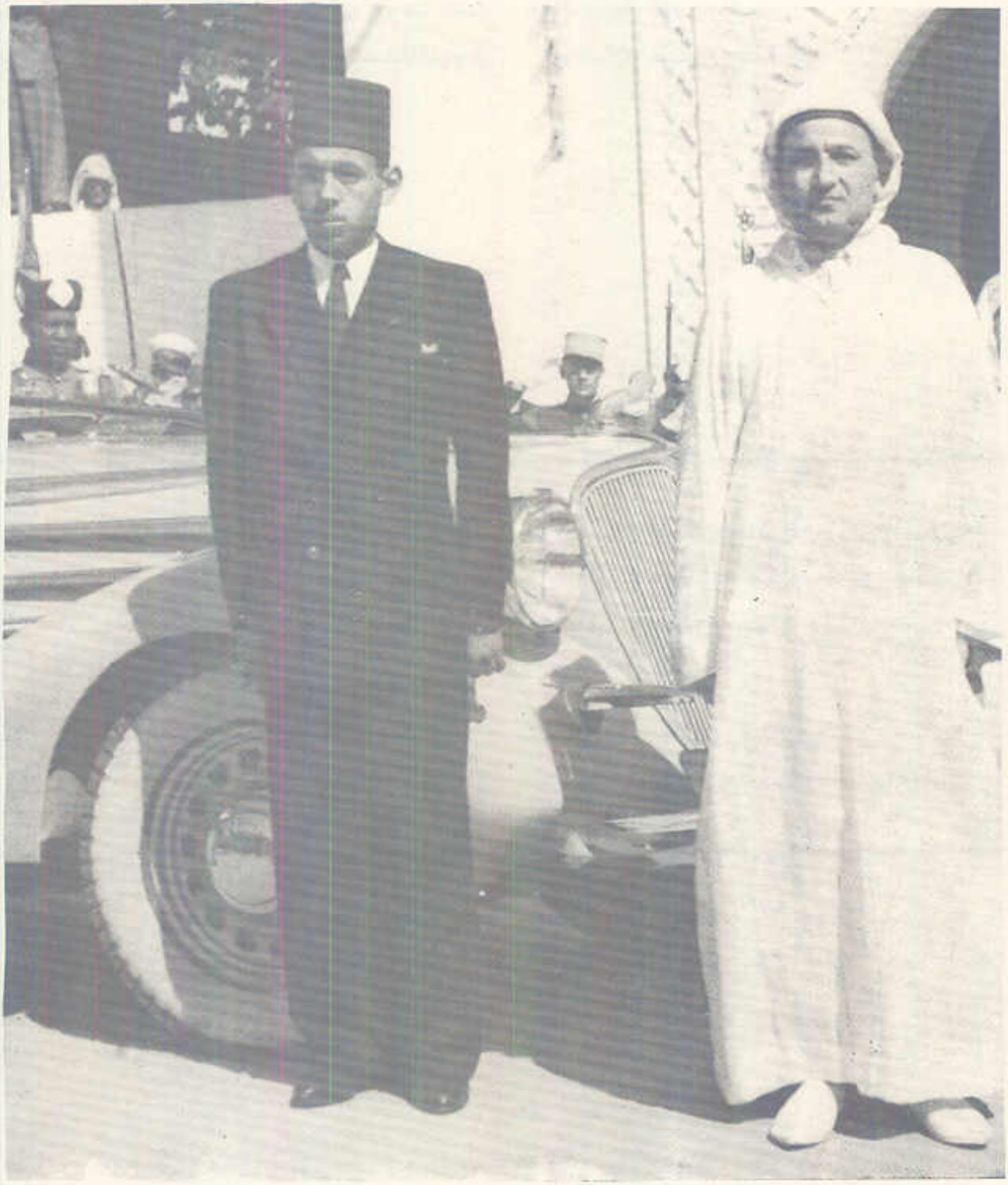

رفيق المقاومة، وتلميذ مدرسة محمد الخامس في الوطنية والإيمان والثبات؛ صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله إلى جانب والده المنعم المغفور له جلالة محمد الخامس نور الله ضريحه.

خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيّده

بمناسبة الذكرى 37 لثورة الملك والشعب

وجه مولانا امير المومنين، صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وايّده، مساء يوم الإثنين 20 غشت 1990 خطاباً سامياً إلى شعبه الوفي، وذلك بمناسبة الذكرى 37 لثورة الملك والشعب.

وكان جلالته خلال توجيهه لهذا الخطاب الكريم محفوفاً بصاحب السمو الملكي ولي العهد الامير الجليل سيدي محمد، وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، وصاحب السمو الملكي الامير مولاي هشام.

وفيما يلي النص الكامل لهذا الخطاب الملكي:

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز

في يوم 20 غشت من كل سنة ألفنا أنا وأنت أن نلتقي لنتبادل التفكير والحديث في الشؤون التي همتنا أو تلك التي سنعنى معا بتدارسها وتحقيقها.

تعلم شعبي العزيز أن والدنا جميعا المرحوم محمداً الخامس طيب الله ثراه حينما أقبل على المطالبة بالاستقلال وحينما تزعم حركة المطالبة بالاستقلال كان قد خطط لنفسه برنامجا محكما ألا وهو تكوين الرجل المغربي والمرأة المغربية ليكونا معا جديرين - بفضل التفهم والفهم - بخوض المعركة والصبر طوال المعركة والنصر في آخر المعركة، ولم يكن عمله آنذاك مفهوما من الجميع، ولكن بصبره ومصابرته قاسمه شعبه شيبا وشبابا هذا المخطط وهذا البرنامج النبيل، وتيقن الجميع أنه - كما قال رحمة الله عليه - لا يمكن لجسد أن يكون تام القدرة إذا كان نصفه مشلولا يعني المرأة المغربية.

وحينما رأى رحمة الله عليه أن العنصر الأول قد بدأ يصبح جاهزا للعمل أراد أن يمتن مسيرته ويقوي عضد شعبه بالعنصر الآخر، ألا وهو العنصر العربي: عنصر الوئام وعنصر الالتئام وعنصر الوحدة في المطالب وفي المهام.

وهذا نراه سنة 1947 أي ثلاث سنوات بعد سنة 1944 ينتهز فرصة وجوده بطنجة وآنذاك كانت الجامعة العربية لازالت فتية وليدة سنتها فقال:

«مهتدين بتعاليم ديننا الحنيف الذي ألف بين قلوب المسلمين ووفق الأمة العربية المسلمة إلى التعاضد والتكاتف والتعاون حتى وضعت أسس تلك الجامعة الرشيدة التي متنت العلاقات بين العرب أينما كانوا، ومكنت ملوكهم ورؤساءهم في الشرق وفي الغرب من توحيد خطتهم وتوجيه سيرهم نحو الهداية الدينية والعزة الإسلامية والكرامة العربية».

وهكذا شعبي العزيز منذ البداية علمنا مربينا الكبير المرحوم رضوان الله عليه أن المعركة كيفما كانت لا يمكن أن ينجح صاحبها إلا إذا كان قويا في الداخل وكان له حلفاء في الخارج. وكم كنا آنذاك ونحن في ريعان الشباب نتطلع إلى يوم تشرق فيه فعلا هذه الوحدة العربية لنستنير بشمسها وشروقها ولنتفق جميعا من المحيط إلى الخليج لتخطيط برامج المستقبل ولرفع رأس العرب، ولجعل الإنسان العربي محترما ومكرما لا لماله ولا لبتروله ولكن لأنه استطاع أن يربط حاضره بماضيه فأصبح وهو يسير في الشوارع يشار إليه بأصابع التاريخ وأصابع الذاكرة لتذكر الجميع أن هذه الأمة كان لها شان وأي شان في الماضي في جميع الميادين. وهاهي اليوم تجعل نفسها رهن إشارة المجتمع العالمي والحضارة العالمية وفي خدمتهما لتعمل مع جميع الشعوب وجميع الديانات لاستقبال القرن المقبل ولضمان - بعد إرادة الله سبحانه وتعالى - السلم والعيش الرغيد لأبنائها ولجميع بني الإنسان.

وكم يتفتت قلبنا حزنا ونحن نرى ما يحيط بالأسرة العربية أنني لا أريد أن أجعل اللوحة أسود مما هي عليه، ولا أريد أن أختلف مع نفسي أو أن أخالف طبعي ألا وهو التفاؤل ولكن التفاؤل، إذا لم يوضع ويحك بالواقع يصبح تفاؤلا خطيرا لأنه لم يبق بينه وبين الحلم إلا فرق قليل.

إنني حينما أقرأ وأسمع ما يروج في الشرق الأوسط وما يروج حول الشرق الأوسط في العالم بأسره أعتبر أن الأزمة التي تمر بها الأمة العربية والشعوب العربية هي أخطر أزمة في حياتها سواء في الماضي أو في الحاضر، ذلك لأنه ربما لا يمكن لأحد منا كيفما كانت معلوماته وكيفما كانت قدرة تحليلاته أن يتنبأ بالمستقبل فمنهم من يرى المستقبل كالحا أسود، ومنهم من يراه مضطربا فقط، ولكن لا يوجد أحد يرى هذا المستقبل باسما وصحيحا وسليما. والذي أخشاه هو أن تكون هذه الأزمة بمثابة الحريق المهول الذي يحرق غابة خضراء فلا يترك عليها حيا من النبات والأشجار، فأخشى أن تحتاج غابة الأمة العربية إلى جيل لتسترجع حظوتها وتوازنها والألفة بين أعضائها.

علينا أن نتعلم من جديد ومن الآن، وأن نعلم أبناءنا وبناتنا جميعا في كل بلد من البلاد العربية كيف يحبون جارهم العربي إلى هذا الحد، وعلينا أن نعلمهم كيف يتعايشون مع الجار العربي، وعلينا أن نعلمهم كيف يتعاملون مع المواطن العربي، لأن العرب مع الأسف لم يصلوا

إلى ذلك المستوى من المرئي والمسموع الذي حينما يراه أو يقرأه الشاب أو الطفل يبقى دائما عالقا بذهنه. بل لسنا نحن في مقدمة هذه المسيرة، ولكن خصومنا وأعداءنا لهم قصب السبق في هذا الميدان، ولي اليقين أنهم سيكتبون وسيؤلفون عن هذه المأساة ما يجعلونه كالسم القليل، ولكن المداوم عليه حتى يحاولوا أن يشتتوا نهائيا شملنا ويفرقوا صفوفنا.

فعلينا شعبي العزيز أن نلبس من جديد ثياب الوطني لا الوطني المغربي بل الوطني العربي لنصلح بين الإخوان، ولنبقى مع المشروعية من جهة، وليبقى المغرب كما كان دائما أرض لقاء ووطن إخاء من جهة ثانية. ومنذ أن جعلني الله سبحانه وتعالى على عرش أسلافي الماجدين وأنت ترى أن جميع المؤتمرات التي عقدت ببلدنا المغرب كانت مؤتمرات الصفاء والإخاء والتفاؤل والعمل البناء.

فعلينا إذن أن ناخذ بعزيمتنا وبوجداننا، وأن نكون لأنفسنا ولأشقائنا رسل الغد لا رسل اليوم أو الأمس. علينا أن نضمد الجراح وأن نواسي المجروحين وأن نداوي القلوب والنفوس. من المعلوم أن هذه المهمة صعبة لأن الأحقاد وصلت في بعض الأماكن ذروتها وبلغ التراشق بل التهديدات قمتها، فهل ستكون ذاكرتنا في مستوى وجداننا؟ إذا أردنا ذلك علينا أن تكون طاقتنا للنسيان أكبر وأعظم وأوسع من طاقة ذاكرتنا.

شعبي العزيز

في هذا اليوم المبارك السعيد الذي لولاه لما كنا نرتع في بحبوحة الاستقلال والسيادة، كنت مصمما على أن أخاطبك في شؤون داخلية مهمة جدا.

ولكن لي اليقين أن مرارة الأحداث التي تعيشها أمتنا تجعلك مثلي لا قابلية لنا لطرق أي موضوع غيره أو للتطرق لأي حديث غيره.

فنسال الله سبحانه وتعالى أن يذيب هذا الجليد المميت القاتل الذي صب علينا من المحيط إلى الخليج.

ونسال الله سبحانه وتعالى أن يطفيء هذه النار التي نخاف أن يذهب فيها الأخضر واليابس، ونسال الله سبحانه وتعالى أن يعطينا الحكمة والسداد حتى لا نطلق العنان لشهواتنا وحتى لا ننصت أكثر مما يمكن لمن يريد تورطنا وتوريطنا، نساله سبحانه وتعالى أن يعطينا إيمانا بانفسنا وإيمانا بالعبقرية والشخصية العربية، وإيمانا بقدرة العرب أن يذيبوا في أقرب وقت ممكن ماهو واقع بينهم ليتوجهوا ولهم القدرة على أن يتوجهوا ويوجهوا أنفسهم وطاقاتهم نحو المستقبل، القرن المقبل الذي ليس بيننا وبينه إلا تسع سنوات، وليظهر آنذاك الرجل العربي من مغرب الأرض العربية إلى مشرقها أنه كفء لمواجهة ذلك القرن الجديد، وليظهر أنه قادر على أن يبقى حاملا لأنساب آبائه وأجداده وليظهر في مستوى أولئك الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله.

جلالة المغفور له محمد الخامس يتوسط أسرته الشريفة أثناء تواجده بالمنفى

أبحاث ودراسات وقصائد

ندوة حول

المرحوم الحاج امحمد باحنيني

«رجل الدولة والإبداع»

تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله. نظمت جمعية فاس سايس للتنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بمدينة فاس يوم السبت 15 ربيع الأول 1411هـ (6 أكتوبر 1990م) ندوة حول :

المرحوم الحاج امحمد باحنيني

«رجل الدولة والإبداع»

وبالمناسبة، يسعد المجلة أن تقدم ضمن هذا العدد العرض القيم الذي ألقاه السيد مستشار صاحب الجلالة الأُستاذ أحمد ابن سودة، بعنوان:

«الحاج امحمد باحنيني، المثقف النموذج»

والعرض القيم الذي ألقاه السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري بالمناسبة تحت عنوان:

«خصائص النثر الفني عند الحاج امحمد باحنيني»

الحاج محمد أباحنيني

المثقف النموذج

للأستاذ أحمد ابن سودة
مستشار صاحب الجلالة

ها نحن نلتقي في هذه المدينة المجاهدة بدعوة كريمة من جمعية فاس سايس في ندوة علمية أدبية عن الحاج امحمد أبا احنيني رحمه الله، عن الوطني، المثقف، المسؤول، المربي، الأديب، الفنان. إنها العناوين أو المحاور التي حددتها جمعيتكم لهذه الندوة لتحيط بحياة الفقيد، ومكانته، وأثره وتأثيره.

فأي رجل تراني سأتحدث لكم عنه ؟

وأقول : «إن هذه المحاور ما هي إلا عناوين لفصول في كتاب كبير عنوانه : «نموذج المثقف المغربي» وإن شئتم: الحاج امحمد أباحنيني الرمز الثقافي الوطني.

عن هذا الشخص، هذا الرمز والنموذج سأتحدث، واسمحوا لي أن أصرح في البداية أن حديثي لن يكون بحثا أكاديميا خالصا، ولا دراسة تعتمد مناهج في التحليل والاستقراء دقيقة وصارمة، تتوخى قبل كل شيء إقرار وإثبات الحقيقة العلمية التي هي في بعض الحالات كنتائج الكشف الطبي تتعامل مع الظواهر، وقد تخفى عنها بعض السرائر.

حديثي عن الحاج امحمد أباحنيني الرمز الثقافي، ونموذج المثقف المغربي، هو حديث عن قيم وطنية تشخصت في رجل، وعن رجل ارتفع بثقافته وفكره إلى مستوى تجسيد تلك القيم في تميزها وأصالتها الثقافية الحضارية.

وإذا كان الحاج امحمد أباحنيني، نموذج المثقف المغربي، لم يترك لنا آثارا مكتوبة تدخلنا إلى عالمه الفكري، فإنه هو بحياته، وسيرته، بسلوكه، بمواقفه، يشكل أثرا حيا، أثرا لفكر ثقافي، لنموذج ثقافي لشخصية ثقافية، للمثقف الذي يربط الماضي بالحاضر. للمثقف المغربي الذي كان المغرب في حاجة إليه ولا زال، ليقوم بتلك المهمة الحضارية العظيمة، مهمة المحافظة على ما في الماضي من عناصر القوة والعبقرية والإبداع، ووصله بالحاضر، والتطلع الرصين، المتمكن إلى المستقبل، مهمة الانتقال من الجمود إلى التجديد، من الضعف إلى القوة، من النكوص إلى الحركة... مهمة الوصل واللقاح الحضاري.

ها أنا ذا أفصح عن الفكرة الجوهرية لحديثي معكم.

وهذه الفكرة أيها السادة هي خلاصة تجربة، وعلاقة، ومعاشرة للفقيد، مثلما هي حصيلة استقراء

لأحداث ووقائع تاريخية تصب في اتجاه ذلك الصراع الذي خاضه الوطنيون ولا زالوا، دفاعا عن الهوية الثقافية الوطنية ضد عدوين: الجمود، والجحود.

أفتح إذاً كتاب الذكريات...

ففي هذه المدينة، فاس، وفي سنة 1944، سنة تقديم عريضة الاستقلال، سنة العنفوان الوطني، كانت هذه المدينة على موعد مع معركة أخرى من المعارك المجيدة التي ميزت تاريخها النضالي، فاندلعت مواجهة طيلة شهر كامل، أعادت إلى الأذهان صورة أيام فاس الدموية سنة 1912 بعد أيام قليلة من فرض عقد الحماية. وبين المناسبتين وشيجة تشابه عميقة الإيحاء والدلالة، تتصل اتصالا وثيقا بالفكرة التي نحن بصددها.

ففي سنة 1912 خرجت فاس غاضبة ثائرة ضد عقد الحماية، ذلك العقد الذي كان مكتوبا ومحررا باللغة الفرنسية، لغة المحتل.

وفي سنة 1944 خرجت فاس مؤيدة مناصرة لوثيقة المطالبة بالاستقلال التي كتبت وحررت باللغة العربية، لغة القرآن، لغة الحضارة، لغة الأمة.

وفي كلتا المناسبتين قدمت فاس المجاهدة الشهداء دفاعا في سنة 1912 عن الشرف والكرامة، وانتفاضة سنة 1944 من أجل استعادتهما.

كانت اللغة إذاً حاضرة في المناسبتين حضورا ممتزجا بعاطفة الكبرياء والاعتزاز والنخوة والمشاعر الفياضة.

وكما تمخضت حوادث فاس سنة 1912 عن بروز قادة وثوار ومناضلين تصدوا للاستعمار في البوادي والمدن وسلموا الأمانة للجيل الذي تربى في أحضانهم، كذلك تمخضت حوادث فاس سنة 1944 عن بروز قادة وثوار ومناضلين شكلوا الجيل الثاني للحركة الوطنية السلفية، جيل أسميه جيل القنطرة، لأنه بعد عملية الاضطهاد التي شنها الاستعمار 1937 وألقى بقادة الحركة الوطنية في غياهب السجون والمنافي، تحمل ذلك الجيل رسالة الكفاح، تنظيما، وتأطيرا وتوجيها واستعدادا للمعركة.

وهكذا وفي حمأة أحداث فاس سنة 1944 ألقى الاستعماريون القبض على أكثر من سبعمائة من أبناء المدينة من مختلف الشرائح الاجتماعية: علماء، مثقفون، تجار، صناع، طلبة، مناضلون معروفون في الأحزاب الوطنية، وانتصبت المحكمة العسكرية في برج النور وأخذت تصدر الأحكام، ولأن عدد المعتقلين كان كبيرا فقد انتصبت محكمة عسكرية أخرى في مدينة مكناس وانتقت المحكمة أحد عشر شخصا اعتبرت أنهم المحركون والمدبرون والمخططون لما حدث، وهم: محمد الزغاري، الحاج أحمد أباحنيني، عبد القادر العلج، امحمد ابن سودة، عبد الوهاب الفاسي، محمد الغزاوي، محمد الفاسي، عبد الكبير الفاسي، علي العراقي، أحمد الحمياني، أحمد ابن سودة.

التقينا نحن جماعة الأحد عشر في سجن برج النور حيث قضينا به سنة كاملة، منعزلين منقطعين عن العالم داخل أسرار ذلك السجن الكئيب المظلم، لا يتصل بنا أحد، لا أهلنا ولا أصدقاؤنا، وكانت الفرصة الوحيدة التي تتاح لنا لنتبادل الحديث مع بعضنا هي حينما نخرج من زنازننا لقضاء حاجتنا ولتنظيف الزنزانة، كنا نعرف أن سجاننا قد وضعوا داخل زنازننا أجهزة تصنت، فكنا نجد في باحة السجن متنفسا لنا لنتحدث بما نريد. هناك وفي تلك اللحظات بساحة السجن تعرفت على الحاج أحمد

أباحنيني أخي الفقيد، رحمه الله، كنت ألتقي بالرفقاء الآخرين في السجن، ولكن رابطة خاصة قوية جمعتني بالحاج أحمد أباحنيني، وأقول: إنها جاذبية عاطفية أدبية وجدانية كان الشعر والأدب وشاحها وظل شجرتها الوارفة. لم يكن عندنا كتاب، وإنما كانت حافظتنا وذاكرتنا هي كتابنا، كان كل واحد منا يقرأ للآخر ما يحفظه ويستظهره من الشعر. هنا اكتشفت أنا ابن القرويين، وجها آخر لمثقف من خارج أسوار القرويين، بل من خارج الكتب والدواوين والمصنفات العتيقة، مثقف ثقافة فرنسية، متعلم في مدارس لاتفترش الحصر، وتدون الدروس في دفاتر أنيقة، وتتأبط محافظ جلدية، تلبس البنطلون وتنتعل حذاء يربط بخيوط، ومع ذلك فإن هذا المثقف يحفظ ما أحفظه من شعر، ويتقن قواعد اللغة، ويعرف المتنبي والجاحظ وأبا تمام وأبا حيان التوحيدي.

وأتوقف بكم لحظة، مع الاكتشاف لأقول بأن جماعة برج النور، جماعة الأحد عشر سجينا كانت مزيجا من مدرستين أو نبعين ثقافيين: محمد الزغاري، أحمد أباحنيني، محمد الفاسي، عبد الكبير الفاسي، امحمد ابن سودة، وأحمد الحمياني، متعلمون تكونوا في المدارس الجديدة، أو حسب ما كنا نطلق عليهم: أبناء الكوليج، وعلي العراقي، وأحمد ابن سودة من أبناء القرويين، والآخرون رجال أعمال وتجار.

بعد سنة كاملة في برج النور، وفي بداية سنة 1945 حينما بدأت السياسة الاستعمارية تميل نحو الانفراج بعد رحلة جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه إلى فرنسا نقلنا إلى سجن العدير، وأخذوا يعاملوننا معاملة السجناء السياسيين، وفتح باب السجن لزائرينا. كان الحاج امحمد أباحنيني رحمه الله من أوائل من زارونا في سجن العادر، وكان أول لقاء وأول تعارف بيني وبينه، لازلت أتذكر هيأته، ووجهه المخضب دوما بابتسامة صافية، جسمه المستقيم المستريح خلف جلابته الأنيقة، خطواته الوئيدة، إنه الحاج امحمد أباحنيني، كما عرفته وعرفتموه، هادئا هدوء الأنهار الزاخرة أعماقها بالحياة والتدفق، حينما تقف معه أو تجلس إليه يرغمك بهدوئه ونبرات صوته وانسياب افكاره على الأناة والتدبر، على الإنصات والتفكر، وتمحيص الكلمة قبل الإدلاء بها، يسحبك إلى عالمه، عالم الهمس والحوار والأفكار، عالم الحماسة يجري بها القلم قبل اللسان، والبلاغة الجميلة الأنيقة تتسرب إلى نفسك فتدفىء الوجدان وتحرك الجنان.

حدثه أخوه عني، حدثه عن جلساتنا ومطارحاتنا وكيف كنت كتابا له وكان ديوان شعر لي، لقد عرفت فيما بعد أنه قال له: إن صديقي هذا ديوان حماسة في الوطنية، في الإباء والشهامة. وهكذا أصبح الحاج امحمد أبا حنيني حينما يزورنا في سجن العادر يجلس إلي، ويفتح صدره، ويشرع أبواب الحديث عن الأدب والشعر. ولقد كانت دهشتي كبيرة حينما وجدت أنه يحفظ ما يحفظه أخوه وكأنهما قرآ من كتاب واحد. كان يحفظ كثيرا، وكان معجبا بالعقاد. ولم تقتصر جلساتنا على الرواية والاستظهار، وهنا اكتشفت وجها آخر لهذا المثقف الفريد. ذات يوم وكنا نتحدث عن الشعراء العرب وما تركوه في أذهاننا من صور عن نفسياتهم ومواقفهم وتصرفاتهم فسألني :

- من هو في نظرك أكرم الشعراء نفسا من بين

هـؤلاء الثـلاث: أبـو العـلاء المعـري، وأبـو فـراس الحمداني، والمعتمد ابن عباد ؟

كنت أحفظ شيئا غير قليل من شعـر الحمـداني، وكنت أهيم بشعر المعري فقد وجدته أقرب إلي حينما قاسيت ظلام الزنزانة في سجن بـرج النـور، وكـانت معلوماتي عن المعتمد بن عباد متواضعة.

فما هو وجه المقارنة بين هؤلاء الشعراء الثـلاث؟ وكل واحد عاش في زمان ومكـان مختلفين، وفي بيئـة اجتماعية وظروف تاريخية متغايرة ؟

تساءلت، وأنـا أحـاول البحث عن جـواب، ابتسم الحاج امحمد باحنيني وقال لي :

- إن المعتمد بن عبـاد الأسير سجين أغمات كـان أكرم نفسـا من أبي العـلاء ومن الحمـداني. كـان ذا خلق كـريم، ونفس أبيـة، وهمة عـاليـة، يحب الخير للجميع، متفائل، سموح، نبيل. أبو فـراس الحمـداني قال: (إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر). فهو لا يحب إلا نفسـه، لا يهمـه غيره. فإذا ظمىء فليمت الآخـرون عطشا حتى وإن نزل القطر. أما أبـو العـلاء المعـري فيقول :

فلا هطلت علـي ولا بأرضـي
سحائـب ليس تنتظم البـلادا

فهو يريد الخير للناس جميعا ولا يريد أن ينفـرد به.

أما ابن عباد الأسير السجين في أغمات فقد برهن على أنه من معدن أصيل، فهو وإن كان يكابـد هـول الوحشة والوحـدة ولا يـرى بصيص أمل في الخروج منهما، فإنه يفرح ويسعد لغيره من المحـزونين، فقـد علم أن سجناء مثله، كـانـوا معـه في أغمات وهم من مدينة فاس قد أطلق سراحهم بمنـاسبـة عيـد الفطـر فأنشأ قصيدة قال فيها :

أما لانسكاب الدمع في الخد راحـة
لـقد آن أن يفنى ويفنى به الخد
هـبـوا دعـوة يـا آل فـاس لمبتـلى
ممـا منه نجاكـم الصمد الفـرد
تخلصتم من سجن أغمات والتوت
عـلي قيود لـم يحن فكهـا بعـد

إلى أن يقول :

فهـنئتـم النـعمى ودام لجـمعكـم
سلامته إن كان قد خانني السعد

فهو لا يقـول مـا قـالـه المعـري أو أبـو فـراس الحمـداني، بل يفـرح ويطـرب لحريـة الآخـرين وخـلاصهم ويهنئهم ويطلب منهم أن يـدعـوا لـه بالنعمى التي خانه السعد فلم يدركها.

كان هذا التحليل الذي قـدمـه الحاج امحمـد أبـا حنيني وهـذه المقـارنـة بـاعثـا لي على اكتشـاف الشخصية العلمية الأدبية الفنية فيه، هذه الشخصية التي هي مزيج من الأصالة والتحرر والانفتـاح، ذلك أننا في القرويين كنا نعتمد في فهم النص الشعـري أو النثري على القواعد المتبعة، من بلاغة، وبيان، ولغة لا نتعدى ذلك إلى التعمق في معرفة ما ينطوي عليه، أما الحاج امحمد أبا حنيني فقـد تمكن ممـا تمكنـا منـه حفظاً واستظهـاراً، واستعـان بما كسبـه في دراستـه باللغة الفرنسيـة من مقـاييس ومنـاهج جـديـدة في التحليل.

إن الحاج امحمد أبا حنيني رحمه الله كان نتـاج وثمرة بيئة ثقافية اجتماعية وطنية من جهة، وتفاعل تطور تاريخي من جهة أخرى.

فعلى المستـوى الأول فـإن البيئـة الثقـافيـة

والاجتماعية والوطنية التي أثرت في تكوينه، وتطور ونضوج مشاعره، وتحديد اتجاهه تتجلى في عناصر ثلاثة :

ـ العنصر الأول: يتعلق بوسطه العائلي، فهو ابن الفقيه العدل، ابن أسرة من تلك الأسر التي كان لها في المجتمع المغربي احترام خاص تستمده من المكانة العلمية والاجتماعية لرب الأسرة، فتربى في كنف الاحترام الذي كان يتمتع به والده، وكان مثالا للاستقامة والتهذيب والنباهة.

ـ العنصر الثاني: إن الطفل أمحمد أبا حنيني كان بيته في المدينة الجديدة، أو فاس الجديد حيث مقر القصر الملكي والسلطان، فكان يسمع كل صباح ومساء موسيقى الخمسة والخمسين، ويرى الموكب الملكي لصلاة الجمعة ومظاهر الملك من حرس وهالة وتقاليد. وفجأة، وهو طفل يختفي كل ذلك، فتسكت الموسيقى، وتقفل أبواب القصر، وينتقل الملك إلى الرباط. ويتساءل الطفل ماذا جرى؟ فلا يحير جوابا ولا يسعفه أحد بجواب.

ـ العنصر الثالث: ويتعلق بالبيئة الوطنية، فالحي الذي كان يسكنه كان حيا مليئاً ببيوت العلماء والنبهاء فكان من بين عائلات هذا الحي عائلة الحمياني، وكنون، وابن بوشتى، وغيرهم كثير، وكان هذا الحي المحيط بالقصر الملكي يعج بالموظفين والمقربين للقصر وللملك، وبسبب هذه العلاقة المكانية والروحية بالملك والملك، فإن سكان هذا الحي كانوا أكثر من غيرهم إحساساً وإدراكاً واطلاعاً لما يحيكه الاستعمار من مؤامرات تستهدف الكيان الوطني والسياسي والاحضاري للمغرب ممثلا في العرش وفي ملك البلاد. وفي سنوات الطفولة الأولى للحاج امحمد أبا حنيني، كان على قيد الحياة عدد كبير من الرجال والنساء الذين عاشوا عصر ما قبل الاحتلال، وأدركوا حياة وجهاد الملوك العلويين الذين نافحوا وكافحوا لصد الهجمة الاستعمارية الصليبية على المغرب خاصة بعد احتلال الجزائر، وبصفة خاصة جهاد المولى الحسن الأول. وكان هؤلاء يروون قصص البطولات ويستحضرون صور الأمجاد، يحكون ذلك لأطفالهم وأحفادهم. ووسط هذا الجو كان الطفل امحمد يسمع ويختزن، ويرى ما يجري حوله في حيه المفتوح على الزوار الجدد الذين جاءت بهم موجة الاستعمار، من ضباط وجنود ومعمرين. وكان حي فاس الجديد بمبانيه وطرقاته والحياة الاجتماعية التي بدأت تتشكل فيه صورة مصغرة عن ذلك العالم الجديد الذي بدأ يزحف على المغرب التقليدي، عالم لا مفر من استقباله، ولا سبيل إلى رفضه. وبين هذا وذاك قرر والد الحاج امحمد أن ينشىء ابنه تنشئة تؤهله ثقافياً وتربوياً ووطنياً لمواجهة تحديات ذلك العالم، وفهمه، وسبر أغوار مقوماته ومكوناته، وفي نفس الوقت ليتسلح بثقافة وأصالة بلده وتاريخ بلده وتراث بلده. فبعد حفظ القرآن الكريم والتزود بالمعارف والثقافة العربية الإسلامية، ألحقه بالمدرسة الفرنسية لينهل من ينابيع المعرفة الجديدة، لا ليتشبه بالفرنسيين أو يسلم قياد نفسه وعاطفته لثقافتهم ولكن ليكون نِدّاً لهم، يقاومهم بسلاحهم. وكان الطفل امحمد عند حسن ظن والده، فأقبل على العلم والتعلم، جامعاً بين طرفي: التليد والجديد.

هذه العناصر الثلاث كان لها تأثيرها البين والعميق في رسم وتحديد الطريق التي سار فيها الحاج امحمد كمثقف نموذج.

من جهة أخرى، كان الحاج امحمد أبا حنيني نتاج وثمرة تفاعل تطور تاريخي، فهو بكل المقاييس يمثل النموذج الذي كان المغرب في حاجة إليه لإنجاز النقلة الحضارية الثقافية.

الحاج امحمد أبا حنيني هو نموذج ذلك العالم المثقف المشارك المسؤول الذي كان المغرب في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن يتطلع إلى أمثاله، لربط الماضي بالحاضر، والامتداد الرصين المتمكن إلى المستقبل. هذا النموذج هو الذي يقوم بتلك المهمة الصعبة في تاريخ الشعوب العريقة، مهمة الانتقال من الجمود إلى التجديد، من الضعف إلى القوة، من النكوص إلى الحركة، مهمة الوصل واللقاح الحضاري.

هذا النموذج كان قد اختفى من الحياة الوطنية والعلمية والثقافية في المغرب لمدة طويلة، فتوقفت عجلة التجديد والتطوير، وأصيب الفكر بالشلل والجمود، وتحجرت المعرفة ففقدت حيوية التحصيل والاجتهاد، فنضب الماء وشح الزاد.

كانت الهوة العلمية والثقافية تتسع بين المغرب وشعوب عرفت كيف تستثمر وتطور الرصيد العلمي والحضاري الذي ساهم المغرب في نشره في العالم الجديد، ولكن المغرب ظل قويا بدولته التي حفظت سيادته وهيبته، وقويا بذلك الرصيد العظيم من الأمجاد.

إنني كما قد تلاحظون أشير باختصار شديد إلى عصور مثقلة بالأحداث والتطورات، وليس بوسعي أكثر من الإشارة التي أتلمس بها الظروف والخلفيات التي أدت إلى ميلاد فجر اليقظة الوطنية التي كان الحاج امحمد أبا حنيني رمزا بارزا من رموزها على المستوى الثقافي. ولابد هنا من ذكر حدث ذي دلالة متميزة وخاصة، وأعني به تلك الثورة العلمية والثقافية الجريئة التي أقدم عليها الملك الصالح المجاهد المولى الحسن الأول طيب الله ثراه، والتي حاول من خلالها نقل المغرب بقوة إلى عصر التقدم العلمي وردم الهوة التي تفصله عن الدول والشعوب المتقدمة، حيث أرسل بعثات طلابية إلى عدد من بلدان الغرب في نفس الوقت الذي أرسلت فيه اليابان بعثات مماثلة للتزود بالمعرفة واكتساب الخبرة وقطف ثمار التقدم العلمي في جميع الميادين الصناعية والعسكرية بلغات تلك البلدان ومناهجها، والاقتباس مما هو مفيد وصالح من قوانينها وأنظمتها، والتعرف على أسرار قوتها، وتحصيل علومها، جنبا إلى جنب مع الاحتفاظ بمقوماتنا وحضارتنا وشخصيتنا وتقاليدنا العريقة. ولست أريد هنا الإطالة في سرد الصعوبات والمشاكل التي اعترضت تلك المحاولة الجريئة، فقد أصيبت مع الأسف بالإحباط، ولم تثمر في إنقاذ المغرب من الحصار الثقافي والعلمي والسياسي الذي ضربته حوله القوى الاستعمارية التي كانت تتربص به الدوائر، وفي الوقت الذي كان الإحباط مصير تلك المحاولة الجريئة، كانت المحاولة اليابانية أوفر حظا، وكانت بحق بداية بناء قوة اليابان. إن المقارنة هنا بين المحاولتين تكتسي أبعادها من التشابه الكبير بين البلدين، المغرب واليابان على مستوى العراقة الحضارية. فاليابانيون عرفوا كيف يمتلكون أسرار وخفايا القوة العلمية، ويمسكون بناصية التقدم العلمي دون أن يفرطوا، لحد الآن، قيد أنملة في شخصيتهم وتقاليدهم، بل إنهم طوعوا كل شيء وطبعوه بشخصيتهم وعبقريتهم، وجعلوا لغتهم التي

ليست في قوة وغنى وإشعاع اللغة العربية لغة العلم والتلقي في بلادهم، وحافظوا عليها في تخاطبهم وتعليمهم، أغنوها ولم يفقروها، كرموها ولم يهينوها، وحافظوا على تقاليدهم وأسلوب حياتهم، على لباسهم وآدابهم، على مدرستهم الأخلاقية في التعليم والتربية.

من هنا تبرز قيمة وأصالة بل وعظمة النموذج الذي كان يمثله الأستاذ الحاج امحمد أبا حنيني، كمثقف وعالم.

وسنرى أن الحاج امحمد أبا حنيني هذا النموذج، كان نتاج اتجاه وسياسة واختيار، ولم يكن فلتة خارجة عن مدار الجاذبية الحضارية للأمة المغربية.

فحينما أناخ الاستعمار بكلكله على بلادنا كانت تلك الصدمة التي أطاحت بكثير من المفاهيم والمواقف والأفكار التي عفا عليها الزمن، وسرعان ما تدارك الوطنيون الأسباب الحقيقية للتصدع، فجعلوا من أولى أهدافهم إصلاح التعليم وتطويره ونشره، ومعرفة لغة العدو وصولا إلى معرفة أسرار قوته عملا بالمثل الذي يقول: «من علم لسان قوم أمن مكرهم».

وهنا تأتي مبادرة الحركة الوطنية بإنشاء شبكة من المدارس الحرة يتلقى فيها أطفال المغرب العلوم الحديثة، ويتعلمون اللغات الجديدة من فرنسية وإسبانية لغة المحتل، إلى الانجليزية وغيرها، تأكيدا للمعركة التي ستخوضها الحركة الوطنية لوضع حد للحجز الثقافي والعلمي على المغرب والمغاربة.

وكانت مدرسة مولاي إدريس بفاس في طليعة المدارس التي كونت جيلا من الوطنيين البارزين المكونين المتعلمين المتقنين للغة الفرنسية، وكان الحاج امحمد ابا احنيني أحد تلامذتها. كانت هذه المدرسة حصنا من حصون الوطنية على خلاف ما حاول الاستعمار ليجعل منها أداة لتكوين طليعة من المتفرنسين لغة وعاطفة.

وهنا نرى أن الحركة الوطنية، وفي معركتها الشاملة التي خاضتها على جميع الجبهات، قادها، ومنذ الأيام الأولى، وإلى عهد الاستقلال، فريقان من الرجال، فريق تلقى تعليمه في جامع القرويين وفي غيرها من مؤسسات التعليم الأصيل، وآخر تلقى تعليمه في المدارس الحديثة وحتى في المدارس الفرنسية والإسبانية وفي جامعات باريس ومدريد.

وسواء الفريق الأول أو الثاني فإن كل واحد سعى بجهد وحماسة ليأخذ ما عند الآخر، ففريق القرويين أخذ الكثير من أفراده بأسباب الثقافة العصرية وانكب على تعلم اللغة الفرنسية والإسبانية، والفريق الثاني بذل نفس الجهد وبحماسة ليتشبع بأكبر قدر ممكن من العلوم الفقهية والأدبية واللغوية، فالتقى الفريقان على صعيد واحد، هو إثبات الشخصية المغربية الأصيلة المتفتحة، وأقول إن الفريقين كانا طليعة النهضة المغربية الحديثة، وطليعة الكفاح الوطني وطليعة الانبعاث والتجديد.

لقد كان هذا الجيل مثاليا بكل معنى الكلمة. ومما يذكر هنا أن الزعيمين الوطنيين الكبيرين، علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني، ضربا كلاهما المثل في تلك المثالية، فقد تعلم الأستاذ علال الفاسي اللغة الفرنسية في السجن، وانكب الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني على إتقان العربية في السجن أيضا. وفي غياهب السجن اقتحمت عالم اللغة الفرنسية وتعلمتها، كذلك الشأن لعدد آخر من المكافحين. ومما ينبغي الاستدلال به هنا أن أول مجلة أصدرتها

الحركة الوطنية كانت ناطقة باللغة الفرنسية وهي مجلة «المغرب» التي كانت تصدر بباريس والتي كانت لسان الكفاح الوطني ودليل الناطقين بالفرنسية للتعرف على حضارتنا وآدابنا وتاريخنا المجيد.

وهكذا قيض الله للمغرب جيلا من الرواد المكافحين المثقفين المتحررين المتنورين المتفتحين، وقيض الله لهذه النهضة المغربية الجديدة ملكا صالحا مجاهدا أعطى من نفسه المثال الحي للمغربي الذي يصل ماضيه بحاضره ويشق الوعر من الطرق لإختراق مجاهل المستقبل بثقة واطمئنان.

في سياق هذا التاريخ تبرز شخصية الحاج أمحمد أبا حنيني، مثالا كاملا متكاملا للعالم، للوطني، للمثقف المغربي الذي جمع بشكل مثير للإعجاب بين نبعين ثقافيين في شخصه، نبع الثقافة الإسلامية العربية بمكوناتها ومقوماتها وأركانها تملأ قلبه وتسبح في أجوائها روحه، ونبع الثقافة الأخرى، ثقافة الغرب بأركانها ومقوماتها، متمكن منها لسانا وفهما، إدراكا وإتقانا، فكان بذلك مثال المثقف الذي كان المولى الحسن الأول يريده ويعمل على تكوينه، ليقود سفينة الحضارة المغربية في محيط متلاطم بأمواج تزمجر بها حضارات الغرب والشرق. فكان أحد الأعمدة التي اعتمد عليها حفيده جلالة المغفور له محمد الخامس، مربيا، وأستاذا، وكاتباً، ووزيرا، وجعله حفيدُه جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله أستاذا لأبنائه، ووزيره، وحكيم كل الحكومات التي شارك فيها.

فكان الحاج امحمد ابا حنيني قطباً من أقطاب النهضة المغربية الحديثة، نهضة يريدها جلالة الملك جامعة بين طرفي الأصالة والانفتاح والمعاصرة.

إن مكانته في هذه النهضة تماثل مكانة أولئك الخالدين الرواد الذين ارتبطت أسماؤهم بعصور النهضة في الماضي والحاضر.

ففي الماضي، وفي فجر الإسلام الأول، عندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وانخرطت في الإسلام الحنيف شعوب ذات حضارات وثقافات ولغات وتراث زاخر، في تلك الفترة دخلت عالمية الإسلام مجال الحضارة والعطاء الحضاري، فانكب العلماء المسلمون على فحص ما أنتجته الحضارات الأخرى، وأحاطوا بها، وبلغاتها وآدابها، واقتبسوا وانتقوا ودونوا وكتبوا وسجلوا، فانتجوا حضارة إسلامية فريدة، أصيلة، وبنوا دعائم تقدم علمي باهر، فابتكروا، وأضافوا، وخاضوا غمار البحث والاجتهاد، وأسسوا حضارة جديدة تنتسب إلى أمة الإسلام، مطبوعة بعبقرية الإسلام.

هؤلاء الرواد كانوا بالنسبة لعصورهم نماذج فريدة، متميزة، نماذج على شاكلة الأستاذ امحمد ابا حنيني، وهو على شاكلتهم.

وتمضي الأيام، وتبرز في العصر الحديث نماذج أخرى من رواد النهضة العلمية والثقافية الجديدة في العالم الإسلامي، فنرى رجالاً كالحاج امحمد ابا حنيني نهضوا بعبء التجديد، من بينهم طه حسين، والعقاد، والمازني، وقبلهم بقليل، محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ونجد أحمد أمين وغيرهم. والسمة المشتركة بينهم أنهم علماء مثقفون أحاطوا بثقافة وعلوم أمتهم، وأتقنوا وبرعوا في علوم ولغات وثقافة الغرب، فبنوا تلك القنطرة الواصلة بين الأصالة والتجديد، بين التراث والانبعاث.

وفي المغرب أجد أن الأستاذ الحاج امحمد ابا

حنيني، ومن غير ما شطط في الأحكام أو مبالغة في التقييم، أجده صرحا شامخاً من صروح النهضة المغربية الحديثة، فهو يمثل جوهرها ويجسد فلسفتها، ويرمز إلى إشراقتها.

والذين عرفوا الحاج امحمد ابا حنيني عن كثب وعايشوه عرفوا كم كان رحمه الله غيوراً على ثقافة وحضارة بلده وشعبه، وكان أشد ما يكون حزيناً حينما يسمع أحداً يرطن بالفرنسية ولا يفقه لغته الوطنية.

وكلكم تعرفون أية أناقة كان يتحلّ بها أسلوبه حينما يكتب، إنك أمام أسلوبه المرصع، المتدفق، كالناظر لعقد من اللآلىء الجميلة، كل لؤلؤة في مكانها، تعلن عن جمالها وتكشف عن لمعانها. ودائما كان يذكرني أسلوبه بصاحب الوزارتين، لسان الدين ابن الخطيب، وقد كان بالفعل لسان الدين ابن الخطيب عصره وأيامه، أعاد للعربية جمالها وأناقتها وقوة تعبيرها وإشراق معانيها. كان يحتفي بالكلمة والجملة احتفاءه بجلابته الأنيقة، نعم، كان الحاج أمحمد أبا حنيني نموذج المثقف العالم المغربي، في لباسه، في أناقته، في وداعته، في أدبه. وليس صدفة أنه ظل محافظا على لباسه الوطني طيلة حياته، لقد كان يبدو فيه بهيا، مهيبا، باعثا على الاحترام، وإن ربطة العنق تبدو من فتحتي جلابته عند صدره وكأنها إشارة إلى التجانس الذي يمكن للمثقف والإنسان عموما، أن يحافظ عليه بين الأصالة والمعاصرة. بين الشخصية الوطنية القوية والانفتاح المنتقى المنضبط.

هكذا كان الحاج امحمد أبا حنيني، وهذا ما ترمز إليه حياته، فلم يكن مجرد إنسان عادي، بل كان نموذجا. وإني إذ أؤكد على هذا الجانب من شخصيته كرمز، أقول مرة أخرى، أنه كان وطنيا أيضا على مستوى ما يمثله ثقافيا وأدبيا وعلميا.

أيها السادة:

يحضرني بيتان من الشعر ربما كان قائلهما فقيها من فقهائنا الذين دونوا الحكم وحتى الأحكام في أشعارهم، والبيتان هما:

حفظ اللغات، علينا
فرض كحفظ الصلاة
فليس يحفظ دين
إلا بحفظ اللغات

وفي الأثر أن النبي صلى الله عليه وسلم انتدب الصحابي زيد بن ثابت رضي الله عنه ليترجم له ما يرد عليه من الكتب من الأعاجم، وقال عليه الصلاة والسلام: «تأتيني كتب لم يعلمها أحد فهل تستطيع أن تتعلم السريالية، فقال: نعم، فتعلمها، وكان يترجم للرسول صلى الله عليه وسلم من الفارسية والرومية والقبطية والحبشية.

وأريد بهذا أن أؤكد حقيقة قد لا يعرفها القاصرون في العلم، وهي أن تعلم اللغات يكاد يكون من قبيل الواجبات على كل مسلم قادر على ذلك. ولكن تعلم اللغات وإتقانها والإحاطة بواسطتها بالمعارف المختلفة شيء، وإحلالها محل اللغة العربية شيء آخر، فاللغة العربية هي لغتنا دينا وحضارة، وجدانا وفكرا، فإذا كانت الصلاة تبطل بغير لغة القرآن، إلا في حالات نادرة متعلقة بمن يستحيل عليهم تعلمها، فإن الهوية الوطنية، والشخصية القومية لا تصح ولا تثبت إلا بلغتها، نطقا ومعاملة، كتابة وتخاطبا، تفكيرا وشعورا. وإذا كنت لا أستطيع إخفاء ما أشعر به من ألم وأنا أرى ما تلاقيه العربية

من امتهان وتهميش، وما أشاهده من تعجم السنة بعض الناس، فإني واثق ومؤمن بأن اللغة العربية ستخرج بإذن الله عالية الرأس من هذه الفتنة التي أصابت القلوب والأفكار، وهي فتنة تشبه في آثارها ما تلحقه المواد السامة من دمار بالطبيعة وبالبيئة. وثقتي هذه نابعة، وبلا حدود، من أن لهذا البيت ربا يحميه، ويذود عن حرمته ومقدساته وحضارته، ألا وهو أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وحقق أمانيه، فهو الحريص في كل مناسبة على التذكير والتحذير، والتوجيه والتنوير، ويكفي المتفرنسين لكي يتعظوا، أن يروا المثال الذي يقدمه جلالته، فهو المثال الأكثر قوة وإشراقاً لجميع الأجيال، المثال الحي للمثقف الأصيل المغربي، المؤمن، القوي، حينما يتحدث، بالعربية فهو فارسها، وحينما يتحدث بالفرنسية فهو الماسك بأعنتها.

أيها السادة: أشكركم على حسن استماعكم.

ورحم الله فقيد العلم والأدب الحاج أمحمد أبا حنيني، وعوّضنا عنه، وأرشد العاقلين إلى تدبر ما كان يمثله كنموذج للمثقف المغربي الأصيل العريق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أحمد ابن سودة

خصائص النثر الفني عند الحاج محمد باحنيني

للدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله. نظمت جمعية فاس سايس للتنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ندوة حول: «المرحوم الحاج أمحمد باحنيني رجل الدولة والإبداع.»، شارك فيها السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية ببحث قيم تحت عنوان «خصائص النثر الفني عند الحاج امحمد باحنيني» وفيما يلي النص الكامل لهذا البحث.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله ومحبه.

أقف اليوم لأتحدث عن خصائص النثر الفني عند الحاج امحمد باحنيني.

والنثر الفني هو الكتابة الأدبية الأنيقة المعبرة التي يهدف من ورائها الكاتب إلى نقل إحساس أو معنى بطريقة فنية مع مراعاة مقتضيات الصنعة والقصد إلى الإبداع.

وهكذا يمكن القول بأنه ليس كل نثر يعتبر نثرا فنيا.

كما يمكن القول أيضا بأن النثر الفني وإن كانت له مقاييس علمية دقيقة فإن كونه تعبيرا وإبداعا لابد أن يؤدي إلى تفاوت في القيمة الأدبية واختلاف في الخصائص والمميزات. فأدب الجاحظ ليس هو أدب المعري، ونثر طه حسين ليس هو نثر أحمد حسن الزيات.

إلا أنه كثيرا ما يجتمع مجموعة من الأدباء تحت سمات معينة وملامح متشابهة وخصائص متقاربة فيكونون ما يسمى بالمدرسة الأدبية الواحدة، وتكون خصائص الأديب هي خصائص المدرسة الأدبية التي ينتمي إليها. وهكذا فمدرسة أبولو في الأدب العربي الحديث ليست هي مدرسة الديوان مثلا، ومدرسة الجاحظ في الأدب العربي القديم ليست هي مدرسة القاضي الفاضل. فهل يمكن اعتبار الحاج محمد

بـاحنيني من كتـاب النثـر الفني؟ وهل كـان لنثـره خصائص معينة؟ وما هي المدرسة الفنيـة التي ينتمي إليها في النثر؟

أما هل كان المرحـوم الحاج أمحمـد بـاحنيني من كتاب النثر الفني فيمكن القول بأنه كـان من الأعـلام الذين يعز نظيرهم في العـالم العـربي في هـذا الفن بل أكاد أعتبره خاتمة الأعلام في هذا البـاب. ولعل البعض يظن بي الميل إلى الإطراء والمبالغة فأبادر إلى القول بأن تساهل الناس في الكتابة وترخصهم في قواعد الصنعـة واكتفاءهم بالأساليب الـرائجـة والعبـارات الـدارجـة وجريهم وراء المعاني دون عناية بالمباني جعل سـوق الكتابة الفنية الرفيعة في كساد، والمتعاطي لها ينعدم أو يكـاد، والمهتم بها من القـراء يقل، ومـــادتها تضمـــر وتضمحل، وأصبح صـاحبهـا مثل صـالح في ثمـود، وزادت غربتـه واستفحلت عـزلتـه بـانشغـال العلماء والأدباء بالمكـاسب وبـالـدنيـا رغم إعـراضهـا عنهم وتعلقها بغيرهم، وعند فقـدان الجمهـور تكسـد مـادة الأدب وتبور. إلا أن الحاج أمحمد باحنيني رحمه اللـه استمر وفيا مخلصا لصنعته الأدبية ولكتابته المتأنقـة، فكـان لا يطمئن لـه بـال بعـد التهـذيب والتشـــذيب والمراجعة والتقليب حتى يعيـد النظـر ثم يـرجعـه ثم يقلبه في ثنايا الجمل والألفـاظ والحروف، بـاحثـا عن الغاية في الأناقة،وعن النهاية في البـلاغـة لا يكـاد يهتم برواج البضاعة أو كسادها، بل لا يلقي بـالا لمستـوى الجمهور، فحسبه أن يكتب كما يجب أن تكون الكتابة، وحسبه أن يبدع كما ينبغي أن يكـون الإبـداع. ولقـد رأيناه يلقي خطبـا أمـام البرلمان بمنـاسبـة منـاقشـة ميزانية وزارته، وهذا ظرف لا نحسب وزيـرا عـاديـا يذهب به الظن إلى أن المنـاسبـة تستـدعي نـوعـا من الإبـــداع الفني أو التأنق في الكـــلام، ومع ذلك نجـــد المرحوم الحاج امحمد باحنيني يأبى إلا أن يبقى وفيـا لصنعتـه الأدبيـة فيخـاطب البرلمان شـــاكيـــا ضعف الميزانية بقوله:

«لو كانت الاعتمادات المرصـودة لـوزارة الـدولـة المكلفة بـالشـؤون الثقـافيـة اعتمادات ضخمـة طـولا وعرضا لتجشمت الدفاع عنهـا مـا وسعني الـدفـاع، وَلَالَحَّتْ علي الحاجـة إلى بسط المبررات والمسـوغـات، ولحاولت أن تفضي جهـــودي إلى الاقتنـــاع والتسليم ولكنها اعتمادات من الضآلـة والهزال بحيث لا تفتقـر إلى دفاع يلتمس شد أزرهـا، ويهيب بـالموافقـة عليهـا دون مس بتعديل أو إضعاف بنقصان.

وما مثلها وهي ما هي عليه من نحافة ونحول إلا كمثل ذلك الشاعر المتيم العميـد الـذي يشكـو الـوهن والضمور، ويصف حاله بقوله:

ولو أن مـا ابقيت مني معلق بعود تمام ما تاود عودهـا

ويوجـه خطـابـا إلى المشـاركين في الموسم الثقـافي الأول لمدينة أصيـلا سنـة 1978 فلا يتبدل مـوقفـه ويبقى كالنبع الصافي الفياض الـذي لا يتبـدل بتبـدل الفصول والمناسبات فيقـول: «في هـذا الموقع الأخـاذ، المستنيم إلى جلال البحـر المحيط وجمالـه، المطمئن إلى لآلائه وظلمائه، البـاقي على تصرم الأيـام بعـد الأيـام وتطاول الآماد بعد الآماد، تنبثق اليـوم زهـرة غضـة ناضرة من تلك الأزهار التي تـرمـز إلى التعـارف بين النـاس على اختـلاف طبـائعهم، وتعـــدد مشـــاربهم وأجناسهم، وتوحي بأن هـذا التـلاقي حـولها، وهـذا التواصل على عبيرها مبعثها الأصيل، وسببهـا الأثيل، ما يجذب فكـرا إلى فكـر، ويصل عقـلا بعقل، ويـربط شعورا بشعور، ويهفو بوجدان إلى وجدان.

وهذه الزهرة الغضة البهية التي يعتز وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بأن يشارك ولو من بعيد بالإعراب عن فرحه وتبريكه وأمله العريض جميع الذين وفدوا متطلعين إلى طلعتها، معجبين بالعمل الذي أفضى إلى انبعاثها وازدهارها، هذه الزهرة إن كانت اليوم في ميعة صباها وطراوة عودها، فإن النوايا التواقة، والإرادات المشرئبة ستتعهدها باتصال ما اتصلت الأيام والأعوام، بالعناية التي تستحيل بها الأرض المخصاب إلى حديقة زاهرة وجنة آلاف»

وينفس المستوى يحيي شاعرا من فطاحل الشعراء وأديبا من أعلام البيان بقوله: «وإذا كانت الأطواق هبة وحلية لأعناق الشاديات من ورق الحمائم فما كل مطوق صداح على فنن بحامل لبشرى ومشرع لمصراع الرجاء وواعد بالسكينة والاطمئنان ومساعد على الهموم والأشجان، أما الطوق الذي استحثه الشوق إلى وصالك وخف مبتهجا إلى عناقك فهو طوق شكر وحمد وتقدير، وإعجاب وتجلة وإخاء، وألفة بين الأُلاَّف والصحاب لم يسمك غفلا ولا حلاك عطلا بل صبا إليك وتعشق لقياك، وصيتك ذائع ونجمك متألق ساطع، وشدوك يتداول جرسه الأسماع والأصقاع وهديلك يوغل في أعماق الفكر والوجدان، ولغة القرآن في نشيدك وقصيدك برهان فوق برهان على ما يسر الله بها من خصب وثراء، واتساع لأدق المعاني وأحفل الخواطر والأفكار واستحقاق للبقاء والخلود.»

وبعد هذه النماذج المختصرة التي تبين منها مدى إخلاص المرحوم الحاج أمحمد باحنيني لفن الكتابة، ومن مطالعتنا لما بين أيدينا من كتاباته يمكننا لمح الخصائص التي يمتاز بها فنه والملامح التي يتميز بها نثره، ويمكن اختصارها فيما يلي:

إنه ينسج على منوال النثر الفني العربي القديم فيختار الكلمات الفصيحة ويهتم بالجرس الموسيقي للكلمة والجملة، ويستعمل من أجل ذلك جميع الطرق التقليدية من سجع خفيف وجناس وطباق وغير ذلك، كما أنه يعتمد على حسن النظم لكلامه وهذا هو الأمر الذي يختلف فيه الأديب عن غيره، ويسمو به الكاتب المبدع فوق سواه. ذلك أن الكلمات العربية في متناول الجميع ميسورة متوفرة ولكن براعة البارعين تظهر في نظمها، وحدق الصانعين المبدعين يتجلى في تأليفها، ومقدرة المتفوقين تتألق في نسجها وصوغها، وبهذا يختلف كاتب عن كاتب في صناعة النثر كما يختلف صائغ عن صائغ في صناعة الحلي، وهم جميعا يشتغلون بذهب واحد لا يختلف طبيعة وجودة.

والحاج أمحمد باحنيني في نثره مثل ذلك الرسام الذي يستعمل أدوات كثيرة في رسمه ويعتمد على التلوين المتنوع الخفيف حتى إن بعض الألوان رغم وجودها في أساس النسيج الفني للوحة لا تكاد تظهر إلا للعين البصيرة والنظرة الخبيرة. فعنده ألوان مقتبسة من القرآن الكريم في مثل قوله «فليس هناك أيسر من الاعتصام بما يفيد التذكير، ويدل على الاسترسال، وينم عن المواظبة، ولا أسلم من الاستواء على جودي الطريق المرسوم والخطة التي عجمت عودها الأيام وجلا محاسنها التجريب والاختبار».

ففيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي**﴾ هود 44، وقوله: (وتتابع تمجيدك لبطل التحرير وحامل لواء الاستقلال إلى أن وارته المنية عن العيون فعند ذلك فاضت نفسك عليه حسرات).

من قوله تعالى ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ فاطر 8. ص 58.

وعنده ألوان مقتبسة من الأمثال العربية في مثل قوله: «فأي مجال بعد هذا يستطيع أن يلجه الوزير المكلف بالشؤون الثقافية في هذه البلاد دون أن تسام بضاعته برد وإقصاء وتُمنَى بصد وهجران، ودون أن يسدى إليه النصح والإرشاد أن ينتجع من بلاد الله لثمره أرضا يشط المزار بينها وبين أرض هجر.» إشارة إلى المثل العربي: «كحامِلِ تَمْرٍ إلى هَجَرَ».

وعنده ألوان مقتبسة من الشعر الذي كان ينزله على مواضع فيجيء وكأنما فيها قيل، وما ذلك إلا لغزارة محفوظه من الشعر ووفرة رصيده منه.

وعنده ألوان مقتبسة من فنون البلاغة والبيان والبديع كاد لا تخلو منها فقرة من كتابته، فخذ ماشئت من ضروب التشبيهات الجميلة والاستعارات اللطيفة والكنايات الشريفة والجناس الخفيف والسجع الأليف، ولو أسعفنا الوقت واتسع المجال لبسطنا القول في ذلك وشرحنا بتفصيل ما هنالك.

وباختصار، فإن هذا الغنى في الألوان جعل لغة الحاج أمحمد باحنيني سلسلة سهلة مطواعة قوية متينة رصينة. وزادتها براعة المداخل والمخارج تلطيفا غطى على ما في الإيجاز من ضيق، وجعلك تكتفي بالخطبة الوجيزة والكلمة القصيرة والمقال المختصر، وتشعر أن الكاتب أوفى بالمراد وبلغ الغاية في التعبير عما أراد.

وبعد هذه الجولة السريعة في رياض أدبه والنظرة الخاطفة على بديع إنتاجه أستسمحكم في طي العنان للحديث عن المدرسة التي ينسب إليها وتربطه صلة الرحم والقرابة بأعلامها.

كان أستاذنا الحاج أمحمد باحنيني رحمه الله شديد الإعجاب بأبي حيان التوحيدي،كثير القراءة لأدبه، وكان يتحدث عنه حديث الصديق الوفي عن صديقه.

وكان أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي من أعلام الأدب العربي ببغداد في القرن الرابع الهجري متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام.

«ولقد كان تفوقه في العلوم وتبحره في المعارف سببا في تقربه من الأمراء والوزراء فصحب الرئيس ابن العميد وولده أبا الفتح والصاحب بن عباد والوزير ابن سعدان والكاتب البليغ أبا أسحق الصابي وغيرهم من الوزراء ومن في حكمهم من ذوي السلطان»

ولم يكن أبو حيان حسن الحظ بل كان باثسا فقيرا، ساخطا على الدنيا باكيا على حظه منها، ولم يرحمه أهل زمانه فآذوه إذاية لا يصبر عليها أحد وقالوا فيه من الكذب والبهتان ماهو منه براء ورموه في دينه وكان معظم ذلك بتحريض من الصاحب بن عباد وأمثاله من الوزراء والرؤساء الذين أغراهم به كبرياؤه وإعجابه بنفسه وتنقيصه لغيره وما كان يتحدث به عن «أهل الدنيا وما يمرح فيه الجاهلون والمنقوصون ومن لا يساوي منهم شراك نعله، من الجاه العريض، والدنيا المقبلة، والحظ المواتي والسلطان الكبير، والنفوذ العظيم. ومقارنة ذلك بما هو عليه من البؤس والشقاء وشظف العيش، وتكفف الكريم، واستجداء البخيل اللئيم».

ولم يكن أبو حيان التوحيدي ضعيفا ولا جبانا فيستسلم، بل صمد في المواجهة بكل شجاعة، وجرد

قلمه ليتفنن في وصف مساويء خصومه، وخصوصا الصاحب بن عباد وابن العميد، وألف كتابه «مثالب الوزيرين» وأخذ يبحث عن آفاق في فن الكتابة لا تبلغها أجنحتهم ويحلق في سماوات لا ترتفع إليها أقدارهم قاصدا إلى الإعجاز والمغالبة فكان ذلك لا يزيدهم إلا حقدا عليه، وما زالوا به حتى أخملوا ذكره وغمروا اسمه حتى قال ياقوت: «ولم أر أحد من أهل العلم ذكره في كتاب ولا دمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب».

ويبلغ اليأس مداه بأبي حيان فيحرق كتبه ويعتزل الناس وتنطفيء تلك الشمعة البريئة بأفواه أهل الظلم والحسد، ولولا أن بعض كتبه انتقلت نسخ منها إلى جهات أخرى لما وصلنا شيء من تراثه.

ولعل القدر أراد أن ينصف أبا حيان بعد عشرة قرون على يد الوزير الأديب الحاج أمحمد باحنيني الذي عرف قدر الرجل وأفرغ عليه من حبه وعطفه ما يعتبر عزاء لروحه.

وإذا كان بعض الناس من المنصفين لقبوا أبا حيان التوحيدي بالجاحظ الثاني، وإذا كان هذا يفيد أن مدرسة أبي حيان ما هي إلا مدرسة أبي عمر بن بحر الجاحظ فإن لنا أن نقول: إن الحاج أمحمد باحنيني لو تفرغ للأدب ولم تستنفذ طاقته أعباء الوزارة لرجونا أن يكون هو الجاحظ الثالث بلا منازع.

وبعد، فهذه إشارات إلى جانب مهم من جوانب شخصية أستاذنا المرحوم الحاج أمحمد باحنيني، أرجو أن يلتفت إليه طلاب الدراسات العليا بكلية الآداب على الخصوص، فيكتبوا عن أدب الفقيد العزيز، وعن خصائص نثره الفني، وعن هذه المدرسة التي تبدأ بالجاحظ وتمر بأبي حيان لتنتهي بالحاج أمحمد باحنيني. وإن شعوبا أخرى لها أدباء لا يساوون شراك نعال بعض أدبائنا ويكتبون عنهم ويحاضرون ويقدمون الأطروحات والرسائل عن أدبهم، ويعقدون الندوات ومختلف اللقاءات للحديث عنهم. ونحن قلما نقع منا مبادرة مثل هذه المبادرة التي قامت بها جمعية فاس سايس مشكورة للتعبير عن وفائنا لأعلامنا ورجالاتنا والتعريف بأعمالهم والتنويه بأقدارهم.

لقد فقدنا أيها الأخوة في شخص الحاج أمحمد باحنيني أديبا كبيرا من أدباء اللغة العربية. وإنني أقترح بهذه المناسبة إدراج نماذج من كتاباته ضمن النصوص الأدبية المقررة في مدارسنا واعتباره واحدا من أعلام الأدب العربي الحديث في المقررات الدراسية بكليات الآداب.

وفي الختام أوجه الشكر الجزيل لجمعية فاس سايس التي أتاحت لنا هذه الفرصة للتعبير عن وفائنا وحبنا لفقيدنا العزيز، وأهنيء رئيس الجمعية أخي وصديقي سيدي محمد القباج ورفاقه على نجاح هذا اللقاء وعلى جميع الأعمال الخيرة التي قامت بها هذه الجمعية في عدد من الميادين.

وأسأل الله تعالى أن يرحم تلك الروح الطيبة روح أستاذنا الحاج أمحمد باحنيني وأن يجعلها في أعلى عليين مع أرواح الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُنَ أولئك رفيقا، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

حديث
السلطان ظل الله في الأرض
ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ومشهور مستفيض

للدكتور ابراهيم بن الصديق

إلتمس مني بعض الإخوة الأفاضل أن أكشف له وجه الصواب في المساجلة العلمية الدائرة حول حديث «السلطان ظل الله في الأرض»، فاعتذرت له بما ألَمَّ بي من مرض في المدة الأخيرة، وبأن الموضوع يتطلب غير قليل من البحث لا أقْوى الآن عليه. غير أنه لم يقبل مني هذا العذر وألح بالغ الإلحاح، راجيا الإجابة على قدر الاستطاعة وبالقدر الذي يقنعه من حكم النقاد على الحديث، فلم تسَعْني مخالفته، إلا أني اشترطت عليه إيجاز القول، والاكتفاء بالإجمال على البيان، مرجئا جُمعَ الطرق والكلام عليها بتفصيل إلى وقت لاحق إن شاء الله تعالى.

إذا تتبعنا أصول الحديث المسندة نجد أن هذا الحديث مخرج فيها عن عدد من الصحابة - رضي الله عنهم - ومن عدة طرق وروايات، وأن مخارج تلك الروايات كثيرة، وكالعادة فيما تتعدد مخارجه من الأحاديث وتكثر طرقه، يكون فيها الصحيح والحسَن والضعيف، مثل حديثنا هذا.

فقد جاء من حديث ابن عمر وأبي عبيدة بن الجراح وأنس بن مالك وأبي هريرة وأبي بكرة وأبي بكر الصديق.

فحديث أبي بكر الصديق عزاه الأخ الحافظ سيدي أحمد ابن الصديق رحمه الله في كتابه «فتح الوهاب بتخريج أحاديث الشهاب» إلى أبي الشيخ بن حيان ولم أقِفْ على سنده.

وحديث ابن عمر وأبي عبيدة ضعيفان، وحديث أنس ورد عنه من عدة طرق يرتقي بمجموعها إلى الحسن لغيره.

وأما حديث أبي هريرة وأبي بكرة فيعتبر كل منهما حسنا لذاته، بحيث يرتفعان بالاعتضاد إلى درجة الصحيح لغيره، على ما سيتضح.

ولما التزمتُه من التركيز، ووفاءً بغرض السائل، سأرجئ الكلام على الضعيف من تلك الروايات - وفيها ما ينجبر ويتقوى بالمتابعات والشواهد - وأتحدث فقط - عن المقبول منها بنفسه

أو بتعدد طرقه:

أولا: حديث أنس. وهو حسن لغيره حيث ورد عنه من عدة طرق ليس فيها كذاب ولا متهم، فالطريق الأولى أخرجها البيهقي في (السنن الكبرى 162/8) وفي (شُعَب الإيمان 18/6) من جهة عباس بن عبد الله الترقفي، نا سعيد بن عبد الله الدمشقي، نا الربيع بن صبيح عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: إذا مررت ببلدة ليس فيها سلطان فلا تدخلها، إنما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض.

سعيد بن عبد الله الدمشقي، فيه جهالة، ولكن أصل الحديث وهو: «السلطان ظل الله في الأرض» وارد عنه مرفوعا من طريق أخرى فيها مجهول أيضا هو أبو عون بن أبي ركبة، كما في العلل لابن أبي حاتم (409/2)، فقد روى خالد بن خداش عن عون بن أبي ركبة عن غيلان بن جرير عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض».

وقد أعل أبو حاتم الحديث بهذا الرجل لأنه مجهول. ويلاحظ هنا أمران:

الأول: أن عون بن أبي ركبة قد لا يعتبر مجهولا على مذهب ابن حبان في «الثقات» إذ روى عن ثقة هو غيلان بن جرير المعولي الذي أخرج له الجماعة، وروى عنه خالد بن خداش من رجال مسلم والنسائي والبخاري في الأدب المفرد، وَوَثَّقَهُ غير واحد، ولم يأت ابن أبي ركبة بما ينكر، لأن الحديث معروف من جهات أخرى، كما تقدم ويأتي.

الثاني: أنه على فرض أنه مجهول كما هو مذهب الجمهور، فمجيء حديث المجهول من وجه آخر يرتقي به إلى الحسن لغيره، قال الحافظ السيوطي في تدريب الراوي (177) عند قول النووي وهو يعدد ما ينجبر من الضعيف: «وكذا إذا كان ضعفها لإرسال» أو تدليس أو جهالة رجال كما زاده شيخ الإسلام يعني ابن حجر - زال بمجيئه من وجه آخر.

فتبين أن هذين الطريقين عن أنس يعتضدان فيجعلان الحديث من الحسن لغيره، فإذا أضفنا الطريق الثالثة التي أخرجها الديلمي في مسند الفردوس بلفظ:

«السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه في الأرض، يرفع للوالي العادل المتواضع في كل يوم وليلة عمل ستين صديقا». الفردوس للديلمي 343/2/رقم 3554)، والطريق الرابعة التي عزاها الأخ الحافظ رحمه الله - إلى أبي الشيخ بن حيان ولم أقف عليها. وما أخرجه البيهقي في «الشعب 18/6 رقم 7376» عن أنس موقوفا بلفظ: «السلطان ظل الله في الأرض» فمن غشه ظل ومن نصحه اهتدى، لم يبق مجال للشك، في تحسين هذا الحديث بجميع مقاييس أهل الحديث.

ثانيا: حديث أبي هريرة، وهو حسن لذاته.

أخرجه أبو محمد الحسن بن عبد الملك بن محمد بن يوسف في أماليه،(1) ومن طريقه ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد. قال أبو محمد بن يوسف: «قرأت على أبي محمد الحسن بن محمد الخلّال، قلت له:

---

(1) توجد مجالس من أمالي أبي محمد بن يوسف بالمكتبة الظاهرية بدمشق، انظر «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية. المنتخب من مخطوطات الحديث» وضعه الأستاذ محمد ناصر الدين الألباني ص: 202.

«حدثكم أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين إملاءً، ثنا أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني، ثنا أحمد بن عبد الرحمان بن وهب، حدثني عمي عبد الله بن وهب عن يونس(2) عن ابن شهاب الزهري عن سعد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض» يأوي إليه الضعيف، وبه ينتصر المظلوم، ومن أكرم سلطان الله عزوجل في الدنيا، أكرمه الله يوم القيامة».

هذا الحديث إن لم يبلغ رتبة الصحة فلا يقل عن درجة الحسن لذاته، فالخلال وابن شاهين وأبو بكر بن أبي داود صاحب السنن هم الأئمة الأعلام ولا كلام فيهم، وعبد الله بن وهب ويونس بن يزيد الأيلي أخرج لهما أصحاب الكتب الستة، فلا يوضع فيهما نظر، والزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة من الأسانيد التي قيل فيها إنها أصح الأسانيد.

ويبقى النظر في أحمد بن عبد الرحْمن ابن أخي بن وهب، وهو كغيره من الرواة الذين حكم النقاد على حديثهم بالحسن الذاتي، أي أنه مختلف فيه، وثقه بعضهم وتكلم فيه آخرون من جهة ضبطه، ويكفيه أن الإمام مسلما روى عنه واحتج به في صحيحه، فهو قد اجتاز القنطرة من هذه الناحية، لأن مسلما روى عنه مباشرة أي بعد أن خبر حاله واستطلع جلية أمره، فلم يظهر له فيه بحاسته النقدية المعروفة ما يخل بروايته. واحتج به ابن حزم، ووثقه ابن القطان الفاسي وتَشَدُّدهما في الرجال معروف. فإن أدلى بما استنكره بعض الأئمة من أحاديثه بعد تغيره بآخرة، فقد استعرض ابن عدي في «الكامل» العديد منها، وليس هذا منها، ثم ليس فيه ما يستنكر لأن لمتن الحديث بقريب من هذا اللفظ شاهدا قويا من حديث أبي بكرة يرفع كل احتمال للوهم أو سوء الحفظ من جهة ابن أخي ابن وهب، لهذا قلت آنفا: إن هذا الحديث إن لم يكن صحيحا فلا ينزل عن رتبة الحسن لذاته. وبحديث أبي بكرة الذي هو في درجته يبلغ الحديثان درجة الصحيح لغيره كما سيتضح.

ثالثا: حديث أبي بكرة.

ولفظه: السلطان ـ أو الإمام ـ ظل الله في الأرض، فمن أكرم سلطان الله تبارك وتعالى في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة، ومن أهان سلطان الله عزوجل في الدنيا أهانه الله يوم القيامة».

هذا الحديث أخرجه عدد كبير من الأئمة ـ على ما سيأتي بيانه ـ إلا أن بعضهم كأحمد والترمذي جزأه فروى منه طرفا، وروى الآخرون لفظه كاملا، وإلا فهو حديث واحد ورد بسند واحد في قصة واحدة، هي سبب تحديث أبي بكرة به.

1 ـ كونه حديثا واحدا، فقد قال الأخ ـ رحمه الله ـ في «فتح الوهاب» ب/283، بعد أن ذكر طرق وألفاظ حديث ابن عمر:

«ورواه أحمد، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشُعَب، ومن حديث أبي بكرة رَفعَه: الإمام ظل الله في الأرض. ولفظ البيهقي: السلطان ظل الله في الأرض، فمن أكرم سلطان الله تبارك وتعالى في الدنيا

(2) سقط من القطعة المطبوعة من «تاريخ ابن النجار». يونس بن يزيد بين ابن اخي ابن وهب وابن شهاب، لأن الاستاذ الالباني الذي وقف على أمالي ابي محمد ابن يوسف قال: إن الإسناد على شرط مسلم، أو كلاماً نحوه.

أكرمه الله... إلا أن الإمام أحمد لم يذكر في أوله الإمام بل قال: من أكرم سلطان الله. الحديث، ورجاله ثقات كما قال الحافظ نور الدين «يعني الهيثمي» في «مجمع الزوائد».

وقال: في 1/351.. «حديث: من أهان سلطان الله أهانه الله، ومن أكرم سلطان الله أكرمه الله. أحمد، والترمذي، والطبراني، والبيهقي، والقضاعي، من حديث أبي بكرة عن النبي ﷺ- وقال الترمذي: حسن غريب».

2 ـ كون سنده واحدا، فإن كل من أخرجه من الأئمة الذين ذكرهم الأخ ـ رحمه الله ـ بالإضافة إلى ابن أبي عاصم في السنة، والبيهقي في السنن الكبرى أيضا، رووه من طريق حميد بن أبي حميد مهران الخياط الكوفي الذي قال فيه الحافظ في «التقريب» «ثقة من السابعة» عن سعد بن أوس العدوي، عن زياد بن كسيب البصري. عن أبي بكرة رضي الله عنه.

3 ـ كون قصة التحديث به واحدة أن غالب من رواه ذكر تلك القصة التي أجملها الإمام الترمذي بسنده إلى زياد بن كسيب قال: «كنتُ مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر وهو يخطب، وعليه ثياب رقاق، فقال أبو بلال: أنظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق، فقال أبو بكرة: أسكت، سمعت رسول الله ﷺ- يقول: «من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله» (سنن الترمذي 4/502).

فمخرج الحديث إذن واحد، اختصر بعض الأئمة لفظه، وأتى به الآخرون على وجهه، ولاتحاد مخرجه قال فيه الإمام الترمذي عقب إخراجه : «حسن غريب» أي حسن لذاته، غريب حيث لم يرو إلا من وجه واحد،(3) وهذا في غاية الوضوح ولا إشكال فيه بالنسبة إلى منهج الإمام الترمذي في سننه، فقول الأستاذ المعلق على «فتح الوهاب»: إنه حديث حسن لتعدد طرقه ـ أي أنه حسن لغيره ـ غير ظاهر ولا متجه بالنسبة إلى حديث أبي بكرة هذا، فإن اعتمد في ذلك على تحسين الترمذي ثم وجده يعرف الحسن عنده بقوله: «كل حديث يُروَى لا يكون في إسناده من يتهم بالكذب، ولا يكون الحديث شاذا ويروى من غير وجه نحو ذاك فهو عندنا حديث حسن، وقول العلماء، إن ذاك هو الحسن لغيره. فالترمذي في قوله: «يروى من غير وجه» قد اشترط تعدد أسانيد الضعيف المنجبر ليكون الحديث حسنا لغيره عنده، كما يقول عند إيراد حديث من هذا النوع: وفي الباب عن فلانٍ، يقصد جبر الضعف في السند الذي وقع إليه بالشواهد التي أشار إليها بقوله : وفي الباب إلخ.

وحديثنا هذا ليس كذلك، فليس له إلا سند واحد أي إنه غريب. والترمذي إذا حسن الحديث الغريب، قصد الحسن لذاته لا لغيره، كما بين ذلك بوضوح، الدكتور نور الدين عِتْر في بحثه القيم عن الموازنة بين سنن الترمذي والصحيحين ص. 186» حيث قال:

---

(3) أي أنه لم يقع للإمام الترمذي إلا من ذلك الوجه، ولم يعرفه إلا من ذلك الطريق كما يقول كثيرا في الغريب، ولا يقع ذلك من أن غير الترمذي قد وقد على طرق أخرى لذلك الحديث، فقد أخرج ابن أبي عاصم في السنة 2/492 عن أبي بكرة موقوفا عليه: من أجَلّ سلطان الله أجلّه الله يوم القيامة. ولكن في سنده ابن لهيعه ـ وهو ضعيف ـ ورجل مجهول، وحيث أضاف الترمذي الغرابة إلى الحسن في هذا الحديث، فهو لم يقف على هذا الموقوف حتما.

«وأما قوله.... إلخ.

«وأما قوله: حديث حسن غريب فمِمَّا يشكل من كلامه، لأن الترمذي فسر الحسن بتعدد الإسناد، والغرابة تفرد، فكيف يجمع بينهما في الحكم على حديث واحد وهما متناقضان؟.

أجيب بأن المراد الغرابة من حيث الإسناد، وليس غرابة مطلقة، وهو مردود بقوله في بعض الأحاديث: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، فهو تحسين مع التفرد المطلق.

فالجواب ما قال البقاعي: استعمل الترمذي الحسن لذاته، في الموضوع الذي يقول فيه حسن غريب ونحو ذلك، وعرف ما رأى أنه مشكل. أي أن التعدد يشترط حيث يفرد الحسن في وصف الحديث، فإذا قيد بالغرابة علم أن التعدد غير ملاحظ فيه مع بلوغ الحديث بنفسه رتبة الحسن فهذا مأخذه من كلام الترمذي وحمل بعضه على بعض.

وإذا عرفنا أن حديث أبي هريرة بمفرده حسن لذاته، وحديث أبي بكرة كذلك، فقد قال الحافظ ابن حجر في النخبة وشرحها:

«فإن خف الضبط... والمراد مع بقية الشروط المتقدمة في حد الصحيح فهو الحسن لذاته لا لشيء خارج....، وهذا القسم من الحسن مشارك للصحيح في الاحتجاج به وإن كان دونه، ومشابه له في انقسامه إلى مراتب بعضها فوق بعض، وبكثرة طرقه يصحح، وإنما يحكم له بالصحة عند تعدد الطرق، لأن للصورة المجموعة قوة تَجْبُرُ القدر الذي قصر به ضبط راوي الحسن عن راوي الصحيح. ومن ثم تطلق الصحة على الإسناد الذي يكون حسنا لذاته لو تفرد إذا تعدد».

وعلى هذا فحديث أبي هريرة بانضمامه إلى حديث أبي بكرة يعتبر صحيحا لغيره، فإذا انضم إليهما حديث أنس بطرقه، مع الطرق والروايات الأخرى التي يمكن أن تجبر، والتي وقع الاجتزاء عنها بما ذكر، ساغ القول بكل موضوعية، أن حديث: «السلطان ظل الله في الأرض» تحقق له مع الثبوت عن رسول الله ﷺ الشهرة والاستفاضة حتى لا تكاد تجد كتابا في الأحاديث المشتهرة إلا وهو يذكره ويفيض في ذكر طرقه وروايته ووجوه قبوله. والله أعلم.

طنجة : ابراهيم بن الصديق

النسر الأبيض

محمد بن يوسف كما رأيته

للمرحوم الأستاذ أحمد حسن الباقوري
وزير الأوقاف المصري سابقا

نشرت مجلة الهلال المصرية في عددها الصادر في شهر ابريل 1956، مقالا قيما للأستاذ احمد حسن الباقوري، وزير الأوقاف المصري سابقاً تناول فيه شخصية جلالة المغفور له محمد الخامس وعظمة هذا الملك الذي كان مثالا للجهاد والنضال، ورمزاً للبطولة والتضحية من اجل حرية وطنه، واستقلاله، وكرامة شعبه. وذلك تحت عنوان: النسر الأبيض: محمد بن يوسف كما رايته.

وقد حلي غلاف العدد المذكور بصورة لجلالته قدس الله روحه، اعطت للعدد مغزاه العميق، ومرماه البعيد.

كما استهلت مقال الأستاذ الباقوري بديباجة جاء فيها:

«اعتصم هذا النسر الأبيض بالعزة والكرامة، فاحترمته فرنسا، ونزلت عند إرادته، واعترفت باستقلال بلاده وحقها في تاليف جيش مراكشي مستقل، وتمثيل دولتها ديبلوماسيا في الخارج.

وقد سبق لوزير الأوقاف الأستاذ احمد حسن الباقوري ان قابله بعد عودته من المنفى، وهو يرسم بقلمه البليغ شخصية هذا الملك العربي العظيم».

ويسر دعوة الحق بمناسبة الذكرى السابعة والثلاثين لثورة الملك والشعب، ان تنشر هذا المقال على صفحاتها في هذا العدد، لما له من صلة وارتباط بهذا الحدث الجليل، وقيمة فكرية تاريخية تبرز جوانب من شخصية المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه.

وفيما يلي النص الكامل لهذا المقال :

لست أدري كيف كان شعوري لو أني التقيت بالسلطان محمد بن يوسف قبل منفاه وقبل أن يدخل في هذه التجربة القاسية التي وطن عليها نفسه، واحتملها راضيا صابرا.. فإنه ما من شك في أن هذه التجربة قد كشفت عن شخصية هذا الرجل وأبرزت الكثير من صفاته التي كانت تختفي وراء هدوئه، وصمته، وتواضعه، ولاشك أن هذا كله قد جعل له مكانا خاصا في نفوس العرب والمسلمين جميعا وأكسبه مزيدا من العطف والتقدير والاحترام في نفوس الأحرار وطلاب الحرية في كل مكان.

والواقع أن السلطان محمد بن يوسف قد سما في جهاده وتضحيته بمقام الجهاد والتضحية، حين آثر الكرامة والحرية لشعبه على ما بين يديه من جاه، ومال، وسلطان، وحين تحدى بإيمانه وعزمه سلطان القوة، وبطشها واستبدادها، وحين استقبل النفي وتهيأ للموت هو وأهله فلم يطف بنفسه طائف من الجزع أو الندم، ولم يعط المستعمر المستبد إلا أذنا صماء لكل ما ألقى على مسامعه من ألوان الوعد والوعيد.

وعلى أي حال فقد التقيت بالسلطان محمد بن يوسف بعد عودته من منفاه بأيام، ورنات الفرح لاتزال تملأ أرض مراكش وسماءها، ولاتزال صحف العالم ومحاط الإذاعة تردد قصة هذا البطل الذي عاد من المنفى كما يعود القائد المظفر من المعركة الفاصلة.

ولاشك أن هذه المعاني كلها قد تواردت على نفسي وأنا مزمع على لقاء السلطان، ثم وأنا في الطريق إليه، ثم وأنا في اللحظات الأولى من أول لقاء معه. فلقد كانت هذه المعاني تتجمع في خاطري وتدور في نفسي، وترفع لعيني صورة مهيبة رائعة في مقام العظمة والمجد لهذا الرجل العظيم، وكنت أحسب هذا الإحساس الذي سبقني إلى لقاء السلطان سيؤثر على رأيي فيه، وتقديري له، ووزني لشخصيته، ولكني حين لقيت الرجل، وتحدثت إليه وتحدث إلي أخذ هذا الإحساس يُزايلُني قليلا قليلا، وبدأت تلك المعاني تنسحب من نفسي شيئا فشيئا، وتحتل مكانها إحساسات ومعان جديدة غير تلك الإحساسات والمعاني التي ارتبطت بجهاد السلطان وتضحيته، واتصلت بتجربة النفي وما كشفت عنه من جرأة

جلالة المغفور له محمد الخامس مع المرحوم الأستاذ أحمد حسن الباقوري.

وشجاعة.

فلقد رأيت في السلطان حين التقيت به عقلا ورأيا، ورأيت فيه فهما، وعلما، وقدرت أنه لو لم يكن سلطانا لكان عالما له في مقام العلم منزلة رفيعة، ومكان مرموق، وكان طبيعيا أن يأخذني السلطان إلى هذا الجانب من شخصيته ويلقاني بعقله، وفهمه، وعلمه، فيجري حديثنا في هذه السبيل، سبيل العلم، والمعرفة، وما يتصل بالعلم والمعرفة، ثم يتصل الحديث بيننا في هذا المجال، وما كان من حديث في غير هذا فلم يكن غير كلمات التحايا التي تقام في مثل هذه المناسبات.

كان حديثي إذن حديث علم ومعرفة وما يتصل بالعلم والمعرفة مع السلطان العالم العارف، وكان ذلك شيئا عظيما نافعا، هو خير عندي من حديث

النسر الأبيض :

محمد بن يوسف كما رأيته

بقلم الأستاذ أحمد حسن الباقوري

وزير الأوقاف

اتصم هذا النسر الأبيض بالعزة والكرامة ، فاخترته قرطا ، وتزك عند إرادته ، واعترف باستقلال بلاده وحقها فى تأليف جيش مراكبى مستقل ، وتمثيل دولتها دبلوماسياً فى الخارج . وقد سبق لوزير الأوقاف الأستاذ أحمد حسن الباقورى أن قابله بعد عودته من المنفى . وهو يرسم بقلمه البليغ شخصيه هذا الملك العربى العظيم

لست ادرى كيف كان شعورى لو انى التقيت بالسلطان محمد بن يوسف قبل منفاه وقبل أن يدخل فى هذه التجربة القاسية التى وطن عليها نفسه ، واحتملها راضيا صابرا .. فانه ما من شك فى أن هذه التجربة قد كشفت عن شخصية هذا الرجل وابرزت الكثير من صفاته التى كانت تختفى وراء هدوئه ، وصمته ، وتواضعه ، ولا شك ان هذا كله قد جعل له مكانا خاصا فى نفوس العرب والمسلمين جميعا واكسبه مزيدا من العطف والتقدير والاحترام فى نفوس الاحرار وطلاب الحرية فى كل مكان

والواقع أن السلطان محمد بن يوسف قد سما فى جهاده وتضحيته بمقام الجهاد والتضحية ، حين آثر الكرامة والحرية لشعبه على ما بين يديه من جاه ، ومال ، وسلطان ، وحين تحدى بايمانه وعزمه سلطان القوة ، وبطشها و
استقبل النفى
واهله فلم يطف
الجزع أو الندم ،
المستبد الا اذنا
على مسامعه م
والوعيد
وعلى اى حال
بالسلطان محمد
عودته من منف
الفرح لا تزال
وسماءها ، ولا ز
ومحاط الاذاعة
البطل الذى عاد م
القائد المظفر من
ولا شك ان ه
تواردت على نف

السياسة وما يتصل بالسياسة، فما في كل حين يلقى الإنسان سلطانا فهما عالما، والعهد بالسلاطين الذين يتلقون الحكم والسلطة عن طريق الوراثة ـ العهد بهؤلاء أن يتصلوا بكل شيء وأن يحصلوا على كل شيء إلا العلم والمعرفة، فما أضيعهما في دنيا الملوك وما أهون شأنهما عندهم.

وقد يبدو غريبا أن ألتقيَ بالسلطان محمد بن يوسف وأحداث السياسة تتتابع من كل جانب وأعاصيرها تهب من كل جهة، والموقف في مراكش، وبلاد المغرب وفي الشرق وفي الغرب موقف دقيق منذر بكثير من الأحداث والأخطار ـ يبدو غريبا أن تكون الحال كذلك وألا يجري بين السلطان وبيني حديث في السياسة يتناول هذه الأحداث.. يجمع أشتاتها، ويرصد مجراها، ويكشف عن نتائجها..

ولكن هكذا كان الأمر بيننا.. فما فتحنا أبواب السياسة، ولا أدرنا الحديث في شأن من شؤونها، ومع هذا فإنه يمكن أن يقال بأنه قد جرى بيننا حديث طويل في السياسة وما يتصل بالسياسة، حديث تلقاه الشعور عن الشعور، ووعاه القلب عن القلب، فما كان بنا من حاجة إلى العبارات والألفاظ لتترجم عن أوضاعنا السياسية، وموقفنا من هذا العالم، وواجبنا في هذا الوقت، وثقتنا في الحاضر وأملنا في المستقبل.. ما كان بنا أبدا من حاجة إلى العبارات والألفاظ ليفهم أحدنا عن الآخر هذه الأمور المتصلة بكياننا، المقررة لمصيرنا، فإنا جميعا على وجهة واحدة فيها، وحظ مقسوم بيننا من الخير والشر على السواء.

لقد فهمت عن السلطان وفهم عني كل هذه المعاني، بما بيننا من وحدة الأماني، واتحاد الغايات التي وحدت شعورنا، ورسمت طريقنا، وحددت أهدافنا. فما كانت ثورة مصر على الطغيان والاستبداد والاحتلال إلا المعركة الأولى من معارك التحرير للأمة العربية. وما كانت ثورات مراكش، وتونس والجزائر، إلا جزءاً من هذه المعركة وامتدادا لها في تلك الميادين، نحن نؤمن جميعا بهذا، ونؤمن أنَّ أي نصر في أية معركة من هذه المعارك إنما هو نصر للأمة العربية جميعها، كما أن أية هزيمة تقع هنا أو هناك إنما هي هزيمة للعرب جميعا، وفي حساب النصر والهزيمة في كل ميدان من تلك الميادين تتقرر المعركة الفاصلة بين الحرية والاستعباد، بين العرب وأعداء العرب، فإنه لن ينفعنا نصر في ميدان واحد، ولا يغني عنا شيئا تحرير جانب من جوانب الوطن العربي، إنه جسم واحد، يسري في كيانه روح واحد، فلا يخلص من الأذى إلا بخلاص كل جزء فيه، ولا يتحرر من الاستعمار إلا بتحرير كل جانب من جوانبه.

قد يغفل بعض الأفراد منا عن هذا المعنى، وقد ينعدم فيه هذا الإحساس بالعروبة أو يضعف عنده الإيمان بالبعث العربي، فتلبسه الحيرة، ويأخذه الشك، فيجعل وجهه إلى كل وجهة غير وجهة العرب وما يتصل بالعرب، جريا وراء سراب خادع وأمل كاذب. قد يكون فينا أفراد على هذه الشاكلة ممن لم تجر في عروقهم دماء عربية، وغلبت عليهم عناصر غريبة ليس بينها وبين العرب رحم ولا مودة، أو طغت عليها شهوة في جاه أو سلطان.

مثل هؤلاء يمكن أن نتحدث إليهم في شؤوننا السياسية، لنكشف لهم معالم الطريق أو نوقظ فيهم أحاسيس القومية العربية، أو نلفتهم إلى أمجاد العرب وما يتهدد العروبة من أخطار. قد يفهم لحديث

««وكان يوم العودة هو يوم الأربعـاء 16 من نونبر 1955 يوم حملتنا الطائرة إلى الوطن وكان أبي يجاهـد نفسه ليضبط مشاعره وبعد ان سمعني اقرا آية من كتاب الله تقول: ﴿الحمد لله الذي اذهب عنـا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ طفح وجهه بالابتسام».

الحسن الثاني ملك المغرب: (التحدي ص. 103)

السياسة معنى مع هؤلاء وأمثال هؤلاء، أما الحديث في شؤوننا السياسية مع من يحملون همَّ العرب ويؤمنون بالعروبة، ويعيشون لها فلا مَحلَّ له، وإن كان له شيء من هذا فليس مع السلطان محمد بن يوسف، لأن هذا الرجل قد فرغ من دور الكلام وبدأ دور العمل الصادق لتحرير هذا الجزء العربي من الوطن العربي الكبير. هكذا كان شعوري بعد اللقاء الأول للسلطان محمد بن يوسف.. فلقد وقع في يقيني بعد لقائه أن زعامة جديدة قد طلعت في الأفق الغربي من آفاق العروبة، وأن الله قد صنع للعرب حين أظهر هذه الزعامة في إبانها تساند زعامة الشرق في مصر، وفي غير مصر وتؤذن الاستعمار بزوال دولته وانقشاع سحبه.

وكنت أحب أن أطمئن إلى هذا الشعور الذي ملأ قلبي راحة وسكينة بمطلع هذه الزعامة في محمد بن يوسف لولا همسات متناقلة وهواجس عابرة تتردد هنا وهناك على شفاه بعض المعنيين بالوطن العربي، وتدور في أنفس بعض المتشائمين من أبناء العروبة ممن خبروا أساليب الاستعمار، وعرفوا خططه في إلواء الشعوب عن غاياتها، وإطفاء جذوة الحماس المتوقد فيها. ومن يدري فإن كيد الاستعمار خلق الزعامات خلقاً، حين يتنبه وعي الشعب وتثور ثائرته للخلاص من قبضة المستعمر. لقد مثل هذه المأساة أكثر من مرة، وفي أكثر من قطر من الأقطار العربية.. إنه يقدم بين يدي الثورات الشعبية زعيما يتخيره، ويأخذه ـ في مظاهر الأمر وحسب خطة موضوعة ـ بألوان من العسف لتتجه ثقة الشعب إلى هذا الزعيم وتتعلق به كل آماله، وحينئذ يتولى الزعيم بنفسه إخماد الثورة، وإدخال الطمأنينة على الشعب الذي تخير زعيمه الذي لا يمكن أن يهادن الاستعمار أو يفرط في حق من حقوق الوطن.

ونعم، قد جاء الاستعمار بمثل هذه الألاعيب، واستطاع أن يكسب بها وقتا طويلا وأن يؤجل المعركة الفاصلة بيننا وبينه وأن يذيق بعضنا بأس بعض، ولكني أعتقد أننا نسرف في الظن، ونبعد في التشاؤم حين نعتقد أن مثل هذه الأساليب المفضوحة قد بقي لها دور تقوم به في الوطن العربي، فلقد شب العرب عن الطوق، واستيقظ الوعي القومي، وأصبح من العسير أن ينطلي هذا الزور على الجماهير.

وأيا كان الأمر، فإنه إذا صح أن يكون لمثل هذه الرواية مسرح تظهر فيه فلن يكون مراكش مسرحها، ولن يكون محمد بن يوسف بطلها.. إن مراكش أيقظته الأحداث، وصقلته المحن، وهيهات أن ينام.. وإن محمد بن يوسف رجل عربي، خالص العروبة، مؤمن صادق الإيمان، يرتكز إلى خلق كريم، ويستند إلى أرومة عريقة في الآباء والأجداد.. وإن الرجل الذي يعيش في إهاب هذه المعاني ويجمع تلك الأمجاد جميعها لن يسقط أبدا.

وأعود إلى قلبي أتحسس فيه مواضع الطمأنينة إلى زعامة السلطان محمد بن يوسف بعد هذه الهمسات والهواجس فأجدها حيث نزلت منه عند أول لقاء له، إني واثق في الرجل صادق الفراسة في إيمانه ورجولته.. ولن يخذله الإيمان أو تتخلى عنه الرجولة إن شاء الله.

مصر ـ المرحوم أحمد حسن الباقوري

وزير الأوقاف المصري سابقا

دعاء

للشاعر محمّد الحلوي

ياخالق الكون! من أعلى بقدرته ... سماءه، ثم أرساها بلا عَمَد
وحفها بسياج من جلالته ... كما أراد، فلم تجنح ولم تَمِدِ
جبالها الشم أوتاد وقدرته ... أجل في خلقها من قدرة الوتد
نورتَ ظلمتها بالشمس مشرقة ... من نور وجهك لم تطفأ ولم تَبِدِ
وبالكواكب تسري في مطالعها ... مسارجاً ومصابيحاً بلا عدد
يامن بقوله (كن) قامت عوالمه ... وكل آياته من أمره الأبدي
وواهب الروح أجساما تقوم بها ... كما يشاء ويحييها إلى أمد
تشقي بعدلك أقواما وتسعد من ... تشاء فضلاً وأنت النبع ذو المدد
يا مخرج الحب من أعماق تربته ... بمائه وبطعم غير متحد
وملهم النحل علما في خليته ... فشاد من ريقه قصرا من الشُّهُدِ
ومجري الفُلْكِ كالأعلام يحملها ... بأمره اليَمُّ والأمواج في صُعُد
تصارع الموج والأمواج عاتية ... مسخرات لنا تجري على نَضَد

* * * *

يامن يرى كل شيء وهو محتجب ... عن كل شيء ونور الكون منه بري
سموت عن كل ندٍ أنت خالقه ... وعن أب لك مخلوق وعن ولد

لا شيء في الكـون إلا وهـو معتمـد ... عليك في رزقـه يـا خير معتمـد
رزقت في الصخـرة الملهـاء كـائنـةً ... لم تشق في الـرزق أو تنهض لـه بيـد
يـا ممسك الطير في الأجـواء سـابحـةً ... فلـم تقـع مـن أعـاليهـا ولم تِحِدِ
تغـدو خماصـاً إلى المرعـى وتـرجعهـا ... شبْعـى ورَيَّـى ولم تنـزح عن البلـد
لا ينفـع الكـدُّ مـن لم تعطـه سعـةً ... وقـد يعيش قليل الحرص في رغـد!
أزجيتَ غيثك يسقـي كـل ذابلـةٍ ... فاخضـرَّ وجه الثَّـرَى والْتَفَّ في بُـرُد
أعـدت بهجتهـا من بعـد مـوتتهـا ... بـاللطـف منـك ولـولا أنت لم تعـد
فغـرّد الطير في أدواحـه وجـرت ... جـداول الماء سلسـالا لكل صَـدِي
وعـاد لـلأرض شيخ كـان يحرثهـا ... من بعـد يأس ليجني خيرهـا في غـد

* * * *

يـا من يسبح مـا في الكـون أجْمَعُه ... لـه ويعبـده بـالـروح والجسـد
ومن بقـدرتـه نـجَّـى الخليل فلـم ... تمسسـه نـار لظـاهـا جـدَّ متقـد!
وأقحم البحرَ مـوسـى وهـو مضطـرب ... كـأنـه عـابـر يمشي على جَمد!
ومـن أتـى روحُه عيسـى فصـوّره ... وكلّم النـاس طفـلاً وهـو في المهـد!
ومن بنـى مـن خيـوط العنكبـوت على ... غـار النبـي دروعـاً لسـن مـن زَرد!
وردّ عنـه قـريشـاً وهـي جـامحة ... تجر أذيـالها مـن غصّة الكمـد
هـدى بـه مـن تحدّوه ومـن عبـدوا ... سـواه وانحـرفـوا جهـلاً عـن الجدد

* * * *

رُحماك ربي بغـرقـى لا نجـاة لهم ... إن لم تحطهـم بعـون منـك أو سنـد
في عـالم أظلمـت فيـه النفـوس فلـم ... تنقـد لـداعيـة للخير أو تقـد
ضلّت عبـادك نهج الحق واعتنقـوا ... مـذاهبـا أفلسـت فيهـم ولم تفـد
ومـزقتهـم خـلافـات وأنظمـة ... لم تـرع حقـاً لمقهـور ومضطهـد

وأصبحت أرضنا غاباً ومسبعة ... فلا يأمن الظبي فيها صولة الأسد !

وليس يأمن جار شّر صاحبه ... ولا يعيشان إلا عيشة النكد!

وان تكِلهم فقد تدنو نهايتهم ... ويختفي لحظة ما شادوه في مدد

ما قيمة العلم إن ضاعت حضارتنا ... بما يعده للتدمير من عُدَد؟

ترمي (الملايين) في الأجواء سابحة ... والجوع يرمي ملايين اً من المِعَد!

خاضوا إلى القمر الآفاق في طبقٍ ... كالجن لا تختشى من راجمٍ رَصَد

ولو درى أن من يعرونه تتر ... لا سوَدَّ نور محيّاه إلى الأبد!

غطّت جرائمنا الدنيا وما سعدت ... وأصبحت غابة للنهب والطَّرَدِ

أدعوك دعوة خطاء تُؤرقه ... ذنوبه وسوى مولاه لم يجد

فامنحه عفوك واغفر ما تعمده ... من الخطايا، ومالم ينو أو يُرد

وكن له يوم يأتي وهو منكسف ... في موقف بجموع الخلق محتشد

فد كنت أمشي خُطى عمري على مهل ... واليوم أعدو بخطو غير مُتَّئِد

دخلت محرابك الأَسْنَى فزهدني ... في حب غيرك، لو أنجو من الحسد!

من خاض في الوصل، قالوا ثعلب جشع ... ومن تعفف قالوا شر منعقد!

ما الشعر؟ إن لم يكن نجوى وأدعية ... إليك تنساب من قلبي ومن كبدي

بنَيتُ كل هوى فدشع نورك في ... نفسي وألهمها الرُّجْعى إلى الرشد

أودعت حبك في قلبي فآنسني ... ولم أكن وهو في قلبي بمنفرد

رأت جمالك عيني فانبهرتُ به ... وغاب عن عين من يشكو من الرَّمَد

أخشى وأرجوك إلا أن لي ثقة ... بأن حبك طوقٌ ممسكٌ بيدي

فقل غفرت لعبدي تنفرج كربي ... وتنكشف عن فؤادي ظلمةُ العُقَد

تطوان : محمد الحلوي

من مظاهر التجاوب مع الطموح العلمي لشباب سوس في عصر الشرفاء السعديين والعلويين:

الخزائن العلمية بمدينة تارودانت وما إليها.

للأستاذ محمد المنوني

من المؤكد أن خزانة الجامع الكبير بالمحمدية (تارودانت) تأسست من أيام السعديين، فيوجد بين كتبها - رقم 119 - جزءان من «مشارق الأنوار» للقاضي عياض، مع الإشارة إلى تحبيسهما من جهة السلطان السعدي: عبد الله بن محمد الشيخ، وفي خزانة الجامع الكبير بمكناس رقم 409: مخطوط بإسم « منتخب الأحكام، وبيان ما عمل به من سير الحكام»، تاليف المشاور أحمد (بن خلف) بن وصول الترجيلي، ويهم - الآن - منه أنه يحمل تحبيسه من زيدان بن أحمد المنصور على جامع المحمدية، وهو الاسم الذي صار لتارودانت بعد ما جددها محمد الشيخ في القرن الهجري العاشر.

وفي العصر العلوي تتابع الوقف على هذه الخزانة، انطلاقا من مبادرة الأمير عبد الملك بن السلطان المولى إسماعيل عام 1139/«1726»، ثم السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وثالثا: الأمير عبد السلام العلوي، وتحتفظ «حوالة أحباس تارودانت» بلائحة الكتب التي أوقفها الأمير أبومروان، وفيها مصاحف شريفة، وجملة من كتب التفسير والحديث والفقه والتوحيد والأذكار.

وبعد هذا ينتهي بنا المطاف إلى القائد الشهير: عبد الله بن عبد الملك الحاجي، وبالضبط عند عام 1266/«1850»، وهو التاريخ الذي قدم فيه للخزانة ذاتها 31 كتابا، وكانت تخلفت عن الطالب - حسب تحلية الوثيقة - محمد بن سالم الروداني.

وإلى هنا تبينا مسار وقف الكتب على خزانة الجامع الكبير بتارودانت بدءا من تأسيسها، إلى ما بعد منتصف المائة الهجرية الثالثة عشر، أو منتصف القرن 19، وفي أواخر المائة نفسها كانت محتويات الخزانة تصل إلى 86 سفرا مخطوطا، وهي الحصيلة التي أسفر عنها تفقد كتبها بتاريخ 19 صفر

1295/«1878»، حسب الوثيقة العدلية التي تشتمل على تفسير للكتب المنوه بها، وبينها «الفتوحات الإلهية» للسلطان محمد الثالث، ثم «المنح العظيمة» من تاليف ولده الأمير عبد السلام.

وإلى هذه المخطوطات بدأت الخزانة تقتني المطبوعات عن طريق المنشورات الحجرية الأولى بالمغرب، فكان السلطان الحسن الأول وهو لا يزال وليا للعهد، بعث للخزانة بأعداد من هذه المنشورات:

في خمس نسخ من الشمائل الترمذية.

ـ وخمس عشرة من الشرح الصغير لمحمد ميارة على المرشد المعين.

ـ وعشرة من شرح خالد الأزهري على المقدمة الأجرومية.

مع الوعد بإرسال الجاري طبعه بعد ما يتم، وهو شرح المختصر الخليلي لمحمد الخرشي، وشرح تحفة إبن عاصم لمحمد التاودي ابن سودة، حسب تفاصيل ذلك في الرسالة الحسنية بتاريخ 11 ربيع الأول 1284/«1867»، وسيرد نصها عند الملحق1.

وهنا تقف معلوماتنا عن الخزانة إلى فجر الاستقلال، فتضاف لها مخطوطات جديدة مجلوبة من خزانة القائد السابق عياد الجراري، وفي الآونة ذاتها أضيفت إلى المعهد الأصيل بتارودانت، وصارت تحمل إسم خزانة الإمام علي، كما وضعت لها لائحة لإحصاء مخطوطاتها فجاءت تشتمل على 166ـ رقما.

والخزانة ـ بعد هذا ـ يوجد بين محتوياتها، بعض المخطوطات أو الذخائر الجديرة بالذكر، ومنها:

1ـ السفر الأخير من صحيح البخاري إبتداء من أواخر كتاب الأدب، وفي نهايته التصريح بأنه انتسخ من كتاب، قوبل بنسخة الأصيلي من الصحيح، ومن المعروف أن نسخ هذه الرواية لم تبق شائعة بالمغرب، بعد ما اعتمد المغاربة نسخة إبن سعادة من البخاري، وبذلك صار المعروف ـ الآن بالمغرب ـ من الرواية الأصيلية لا يتعدى فرعين إثنين: هذا السفر الذي نعلق عليه، مع قطعة في خزانة إبن يوسف بمراكش رقم 301.

ولحسن الحظ وقفت ـ مباشرة ـ على هذه النسخة الرودانية خلال جمادى الثانية 1378/ يناير 1959، أما المخطوطات الأخرى التي نتخيرها، فهي مقتبسة من لائحة الخزانة كالتالي، مع تكميلات للعناوين وأسماء المؤلفين.

2 ـ شرح الغريب من صحيح الإمام البخاري تاليف اليفرني: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الفاسي: رقم 150.

3 ـ معونة القاريء لصحيح البخاري، لأبي الحسن المالكي: علي بن محمد بن محمد المنوفي المصري القاهري: رقم 143.

سيد الناس،42ـ مختصر نور العيون لابن تاليف محمد بن سعيد المرغيتي: رقم 157.

5 ـ التفريع (مختصر في الفقه المالكي) لابن الجلاب: عبيد الله بن الحسين بن الحسن المصري: رقم 153.

6 ـ المفيد للحكام لابن هشام: رقم 111.

7 ـ الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، تاليف الكنتي: محمد بن المختار بن أحمد، وهو في ترجمة ومناقب والد المؤلف: الشيخ المختار الكنتير الكبير وحرمه: رقم 15.

8 ـ «الدر المنتخب المستحسن في بعض مثاثر أمير المؤمنين مولانا الحسن» تاليف ابن الحاج: أحمد ابن محمد بن حمدون السلمي الفاسي، الموجود: مجلد

منه يبتدئ من عام 1156هـ: رقم 53.

9 ـ تحصيل المنى في شرح تلخيص إبن البنّا، تأليف المواحدي يعقوب بن أيوب بن عبد الواحد الجزولي: رقم 144.

10 ـ شرح ديوان الشعراء الستة للشنمتري: رقم 65.

11 ـ اقتطاف زهرات الأفنان، من دوحة قافية ابن الونان، تأليف أبي حفد البطاوري: المكي بن محمد بن علي الرباطي: رقم 88.

12 ـ مجموعة أشعار الموسيقى الأندلسية: رقم 114.

13 ـ كشف الغطاء للسالك، عن شرح المكودي لألفية إبن مالك، تأليف الرسموكي: علي بن أحمد بن محمد الجزولي: رقم 1.

ومن الوثائق: رقم 77.

14 ـ قانون محلي لقبيلة ماسة:

15 ـ حسابات أحباس نظارة تارودانت عام 1332هـ: رقم 51.

16 ـ دفتر مراسلات إدارية خلال فترة الحماية: رقم 108.

ومن هذه النماذج نتبين نوع الأهمية لمخطوطات خزانة الجامع الكبير بتارودانت، وعن تنظيماتها لم نقف من ذلك إلا على إسم واحد من القيمين على تسييرها، وبالضبط عند أواخر العصر الإسماعيلي، والقصد إلى اسم محمد بن أبي القاسم التلمساني، حسب إشارة خلال وثيقة ضمن حوالة أحباس تارودانت، وهي المصدر الذي كان له الفضل في التعريف بتاريخ هذه الخزانة، من فترة تأسيسها إلى أواخر المائة الهجرية الثالثة عشرة.

ومرة أخرى تفيدنا الخزانة ذاتها، بوجود خزانة ثانية في مدينة تارودانت أواخر العهد الإسماعيلي، فتذكرها باسم خزانة جامع أم الأحباب، وليس جامع مفرق الأحباب، ثم تنوه بكتب أوقفها عليها المنصور بالله دون ذكر إسمه، وتبرز بينها المصحف الكريم في سفرين، ودلائل الخيرات، وأخيرا تشير الوثيقة إلى إسم القيم عليها: الطالب عبد الله بن الحاج المؤذن الولتي.

وإلى هذه الخزانة وسابقتها، كان في ضواحي تارودانت جملة خزائن خاصة، وقد كان رائد البحث التاريخي في سوس: محمد المختار السوسي، أملى علي ـ وهو في مكناس أول اتصالي به ـ أسماء مجموعة من هذه الخزائن كالتالي:

ـ خزانة ابن أحساين في ءاكلو.

ـ خزانة القائد عياد في أولا جرار.

ـ خزانة ءال إيكرار بئاكلو.

ـ خزانة المسعوديين البونعمانيين.

ـ خزانة ءال محمد بن العربي الأدوزي في بعقيلة.

ـ خزانة ءال عبد العزيز الأدوزي في بعقيلة.

ـ خزانة ءال المحفوظ الأدوزي في بعقيلة.

ـ خزانة ءال تامرا في بعقيلة.

ـ خزانة أزاريف في ايت أحمد.

ـ خزانة تيدسي في سندالة.

ـ خزانة تيمغدشت.

ـ خزانة اليزيديين في إيسي.

ـ خزانة إديكل في أملن.

ـ خزانة الإلغيين.

ـ خزانة العلامة الطاهر الأفراني.

ـ خزانة فم تاتتلت عند مشهد سيدي محمد بن يعقوب.

جلالة المغفور له محمد الخامس في زيارة لتافيلالت رفقة الأمير مولاي الحسن في 26 يونيو 1948

- خزانة القاضي الحاج إسماعيل بسكتانة.
- خزانة مدرسة مزوضة لأساتذتها.
- خزانة ءال مدرسة الساعدات.

ملحق

رقم 33 حوالة أخبار تارودانت

ص 164

نسخة كتاب كريم ورد في نجل سيدنا المنصور بالله سيدي مولاي الحسن بن سيدنا محمد بن عبد الرحمان أيده الله وأعز وجوده. نصه:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وءاله .

محبنا الأعز الأرضى. الفقيه القاضي، السيد الطيب بن محمد التملي. سلام عليك ورحمة الله، عن خير سيدنا نصره الله.

وبعد فلما كانت همة سيدنا نصره الله دائما تواقة للمعالي، وإلى سامي المقاصد فطرح نظره المنزه العالي، ورأى - أيده الله - أيد الدروس أشرفت في انتهاب الكتب العلمية، في هذه الديار المغربية، أجال - أجلّه الله - فكره الشريف فيما تجبى به وتنشر، فجلب - أعزه الله - من أقاصي المشرق ءالة طبع الكتب، فجدد بها ما دثر من تلك الأثر، رائما تكثيرها وانتشارها كل الإنتشار في سائر حواضر مملكته السعيدة، المزدهية بشريف طلعته ويُمن سياسته الحميدة، فجعل - نصره الله - عرضا في نسخ الشمائل تبركا بالإفتتاح بها، و من شرح مبارة الصغير على ابن عاشر. وشرح الأزهري على الجرومية، وهو - أعزه الله - ءاخذ في طبع الخرشي على مختصر خليل، وشرح الشيخ التاودي على ابن عاصم، واقتضى نظره الشريف أن يوجه لكل مدينة عددا مما طبع وفرغ منه لخزانة العلم الشريف بها، لينتفع به أهل العلم الشريف إن شاء الله.

وهذا العدد المفيد منها بالطرة يصلكم، فاجعله بخزانة العلم بردانة، وأمر ناظر أحباسها بتوجيه الثمن المرسوم قبالته، فيحوز من صير عليه وعلى غيره من الكتب التي لم تكمل، وحين تكمل يصدر العدد المعين منها للخزانة هنا ثم إن شاء الله. والسلام في 11 ربيع الأول النبوي عام 1284.

ومنه، وكن تعاهدها هذه المرة بعد المرة في كل شهر، مع مزيد الإعتناء بها، وحسن القيام بصيانتها، ثم يليه طابعه المثمن داخله مكتوب فيه الحسن بن أمير المؤمنين نصره الله.

ثم يليه ما بطرَّته

فمن الشمائل نسخ 5 سوم 62 يجب310

ومن نسخ ميارة 15 سوم 57 يجب 855

ومن نسخ الأزهري 10 سوم 7 يجب 70

فكان في مجموع النسخ ثلاثون. وكان في مجموع الثمن مائة مثاقل وثلاثة وأربعون مثقالا وخمس أواق بالرمز. انتهى من أصله الشريف، قوبل به مماثله.

شهد به ناسخه في 25 ربيع الثاني عام أربعة ومائة وعاشر وألف شكلان عدليان .

ديوان أداء القاضي

المصدر: «حوالة أحباس تارودانت» خ. ع رقم 33: قسم الحوالات الحبسية.

الرباط - محمد المنوني

من وحي الخطاب الملكي السامي لثامن مايو 1990:

الأصول الإسلامية للحقوق الإنسانية

للأستاذ أحمد أفزاز
الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

لقد جاء الخطاب الملكي بتاريخ 8 مايو 1990 عند تنصيب المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان بالمملكة المغربية، مؤسسا على مجموعة من القواعد والأصول القائمة على النظرية الإسلامية العميقة للحقوق الإنسانية.

وفي حديث سابق نشر بهذه المجلة قدمت مدخلا لدراسة الحقوق الإنسانية انطلقت فيه من الرؤية الحسنية السامية اعتمادا على الخطاب الملكي المشار إليه.

وأعود اليوم لنفس الموضوع لدراسة زاوية أخرى من زوايا حقوق الإنسان المتعددة الصور، وأخص بالذكر مبدأ المساواة.

أعلن الإسلام منذ بداية نزول القرآن نظرية المساواة، ومبدأ التساوي في الحقوق والالتزامات، وجعل هذه القاعدة مفروضة في كل تعامل بين الناس يقول تعالى: **﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**(1).

وإذا دعي الإنسان إلى أداء شهادة لم يكن له أن يفرق فيها بينه وبين خصمه أو والديه والأقربين إليه، أو يفرق فيها بين الغني والفقير، يقول تعالى: **﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما﴾**(2).

ويؤكد هذا رسول الله ﷺ، فيربي المسلمين على أنهم سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى.

روى أبو هريرة رضي الله عنه، قيل يارسول الله من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم)(3) وفي بعض روايات خطبة الوداع أن الرسول ﷺ قال: (أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدام، وآدم من تراب، ليس لعربي فضل على عجمي ولا لعجمي فضل على عربي ولا لأسود على أبيض، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى)(4).

ويلاحظ من خلال التأمل في هذه النصوص أن الشريعة الإسلامية فرضت المساواة بين الناس وجعلتها عامة ومطلقة فلا تمييز لجماعة على أخرى

(1) الآية 13 من سورة الحجرات.
(2) الآية 135 من سورة النساء.
(3) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء «باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا).
(4) أخرج الحديث أحمد في مسنده من حديث أبي نظرة. أنظر الوصية النبوية للدكتور فاروق حمادة.

ولا لقبيلة على قبيلة أخرى لا باللون ولا بالأصل وأفضل الناس أقربهم إلى الله وأتقاهم.

لقد كان الناس يتفاضلون بالأصل والنسب، والجاه، والمال، والقبيلة والعشيرة واللون، والجنس، ولسمو رسالة الإسلام رفعت الناس إلى مستوى واحد، وجعلتهم سواسية في التحمل والأداء، وفي الالتزامات والحقوق وفي الفرائض والعزائم والرخص.

وفي التطبيقات العملية لهذه القواعد بيان واضح لأهمية هذه المساواة في الإسلام.

لنأخذ مثلا حقوق الإنسان في إطار ما للرجل وما للمرأة وما عليهما من واجبات لنرى كيف طبق الإسلام نظريته تطبيقا يتفق مع طبيعة الرجل والمرأة ويظهر مدى عدالة الشريعة الإسلامية وسموها، وإحاطتها للمرأة على الخصوص بكامل العناية والرعاية والاهتمام. والمثال واحد من المشاهد الإسلامية في المساواة.

إن أحكام الشريعة الإسلامية تهدف دائما إلى جلب المنافع وبيان السبل إليها لسلوكها، ودفع المضار وبيان ما يؤدي إليها لتجنبه.

القاعدة التي يقوم عليها الإسلام أن المرأة والرجل متساويان في الحقوق والواجبات، وفي المسؤولية والجزاء أمام أحكام الشريعة فلها ما للرجل من حقوق، وعليها ما على الرجل من تحملات والتزامات، وهي تلتزم للرجل بما يقابل التزاماته لها، فكل حق لها على الرجل يقابله واجب عليها، وكل حق للرجل عليها يقابله واجب على الرجل لها، يقرر هذا قول الله تعالى: **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾**(5) ويسوي بينهما في الجزاء على العمل فيقول تعالى: **﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة﴾**(6)، ويقول في نفس الموضوع: **﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مومن فاولائك يدخلون الجنة﴾**(7).

ويؤكد ذلك مرة أخرى في قوله تعالى: **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾**(8). هذا في عمل الصالحات، وفي عمل السيئات، يسوي الإسلام في الجزاء، فيقول الله عز وجل: **﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾**(9). ويقول: **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله﴾**(10).

فإذا انتقلنا إلى الحقوق المدنية نجد النظرية الإسلامية لا تنقص المرأة شيئا متزوجة كانت أو غير متزوجة، فشخصيتها وأهليتها قبل الزواج تستمر بعده في التحمل والأداء، فتجري مختلف العقود من بيع وشراء وهبة وقرض، ووصية ووديعة ووكالة وغيرها، وما تملكته بسبب تلك التصرفات يبقى خالصا لها لا يشاركها فيه غيرها من زوج أو أب أو ولد، بل حتى الصداق الذي دفعه الزوج من ماله تملكه الزوجة كله أو نصفه، ولا يجوز للزوج أن يسترد منه شيئا إلا في الحدود

---

(5)الآية 228 من سورة البقرة.
(6) الآية 97 من سورة النحل.
(7) الآية 114 من سورة النساء.
(8) الآية 32 من سورة النساء.
(9) الآية 2 من سورة النور.
(10)الآية 38 من سورة المائدة.

الشرعية ﴿ولا يحل لكم أن تاخذوا مما آتيتموهن شيئا﴾(11). كما يقول الله تعالى، وفي آية أخرى: ﴿وآتوا النساء صَدُقَاتهن نحلة، فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه، هنيئا مريئا﴾(12).

وفي ميدان اكتساب العلم والمعرفة والثقافة، لم تفرق أحكام الإسلام بين الرجل والمرأة، فأباحت لها الحصول على كل أنواع المعرفة أدبية كانت أو علمية بل أوجب على الإثنين معرفة الأمور الضرورية في الدين والدنيا، حتى إذا قام واحد منهما بعبادة الله أو أداء الفروض الإسلامية قدمها على الوجه الصحيح المحدد في أحكام الإسلام، فالله لا يعبد عن جهل، ولكن يعبد عن علم ومعرفة، وإذا تصرفت المرأة أو الرجل بشؤون الحياة الإجتماعية وجب على كل منهما أن يكون عارفا بما يجوز التصرف فيه وبما يمنع، وأحوال كل منهما. فهذه أمور لا يحصل عليها الإنسان رجلا أو امرأة إلا بالعلم والتعلم، والخشية من الله في التصرفات الإنسانية إنما تتم بالعلم ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾(13). ويقول تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(14). فمسؤولية التعلم هنا عامة ومطلقة تشمل الرجل والمرأة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال (طلب العلم فريضة على كل مسلم)(15) «وإذا كان طلب العلم واجبا على كل مسلم، فهو شامل للذكر والأنثى، لعموم اللفظ، وفي حديث آخر يقرب إلى هذا الموضوع يقول فيه الرسول ﷺ: (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)(16) ولفظ «من» جنس يشتمل النوعين معا الذكر والأنثى.

ومن تتبع مواضع الفقه الإسلامي نجد مجموعة من الأحكام تخص النساء فقط، وعليهن معرفتها لتطبيقها في حالاتهن، زيادة على اشتراكهن في أحكام الرجال العامة ، ولا يتأتى الاطلاع على ذلك إلا بالعلم والمعرفة، وعرض السؤال وفهم الجواب، والتفقه في الدين.

ويشمل مبدأ المساواة في الإسلام بين الرجل والمرأة الحق في العمل مثل حق الرجل، فأباح الإسلام للمرأة القيام بالأعمال المشروعة التي تحسن أداءها ولا تتنافى مع طبيعتها، ولا تمس بكرامتها أو تعرض أنوثتها للتبذل، فإذا استطاعت المرأة القيام بوظيفة سواء في القطاع العام أو الخاص في وقار وحشمة وصون لنفسها وخلقها، فإن ذلك جائز شرعا مادام ذلك لا يؤثر على وظيفتها الأصلية في صيانة بيتها وزوجها وأولادها، وإن إنتاج ولد صالح يعرف ربه ودينه، ويتخلق بخلق الإسلام أصلح للمجتمع من إنتاج أي شيء آخر، وهذا العمل لن تقوم به أية مؤسسة كيفما كانت درجة تخصصها غير مؤسسة الأم، لأن المؤسسات الاجتماعية قد تضمن الحاجيات المادية للطفل، ولكنها لن تستطيع أن تعطيه كل الحاجيات الروحية، لأن هذا من اختصاص الأمومة، فكان من أجل هذا دور الأم في البيت أفضل للأمة من دورها خارجه.

---

(11) الآية 229 من سورة البقرة.
(12)الآية 4 من سورة النساء.
(13) الآية 28 من سورة فاطر.
(14) الآية 9 من سورة الزمر.
(15) أخرجه ابن ماجة في المقدمة.
(16) أخرجه البخاري من كتاب العلم.

إن الشريعة الإسلامية، مع تقريرها لقاعدة المساواة بين الرجل والمرأة، ميزت الرجل على المرأة في مجموعة من الأمور نقف معها وقفة قصيرة لنرى هل في ذلك حيف عليها، أم أن ذلك نابع من وظيفة كل منهما في المجتمع الإسلامي.

1 ـ الإشراف على الأسرة

جعلت الشريعة الإسلامية للرجل درجة على المرأة بنص الآية في قوله تعالى: **﴿وللرجال عليهن درجة﴾**(17)، وبينت حدودها وأسبابها في قوله تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم﴾**(18).

فالدرجة التي أعطاها الإسلام للرجل على المرأة وهي الرئاسة والقوامة على شؤونهما المشتركة في البيت والأسرة قائمة على سببين اثنين:

أولهما: أن الرجل هو المكلف بالإنفاق وهو المسؤول الأول عن الأسرة وعن تدبير أمور حياتها مسكناً ولباساً وصحةً وتربيةً، فهل من العدالة أن يلتزم الرجل شرعا بهذه المهام ولا تعطى له الكلمة العليا فيها. «إن السلطة التي أعطيت للرجل إنما أعطيت له مقابل المسؤولية التي حملها ليتمكن من القيام بمسؤولياته على خير وجه»(19).

ويؤكد تقرير هذه المسؤولية ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كلكم راعٍ،وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله، ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها)(20).

فمسؤولية الرجل في أهله هي مسؤولية الدرجة التي أعطيت له وتخص الأمور المشتركة التي تقوم بها الأسرة، ولا تتجاوزها إلى الأمور الخاصة بالمرأة، فالتصرف في مال الزوجة مثلا لا يدخل في سلطات القوامة فهي مثل الرجل في حق التملك والتصرف فيما تملك.

وثاني السببين: لمنح سلطة الإشراف على البيت للرجل أن المرأة يغلب عليها الجانب العاطفي وقوة الانفعال وحركة الوجدان، وليست هذه نقيصة أو عيبا فيها، ولكنها جزء من تكوينها الطبيعي كامرأة، وبدون ذلك لا تستطيع المرأة أن تقوم بوظيفتها كأنثى، الأمومة وهي من وظائف المرأة تفرض وجود العطف والحنان، والحضانة وهي من اختصاصها حتى في حالة غيبة الأمومة تجعل الجانب الوجداني في معاملة المحضون أكثر حضورا من غيره.

إن قوة العاطفة وغلبة الحنان والوجدان في المرأة مظهر من مظاهر كمالها وكمال أنوثتها، وهو أمرمحمود فيها، وبخلو ذلك منها يجعلها فاقدة لجزء كبير من مهامها الحياتية، بينما الرجل وهو يسعى لتدبير أمور البيت والتفكير في مواجهة المتطلبات اليومية يغلب عليه في تصريف ذلك جانب التروي والتأمل والإدراك الكامل ووضع الحسابات مرتبة، فكيف لا تكون له القوامة والرئاسة البيتية؟

(17) الآية 228 من سورة البقرة.
(18) الآية 34 من سورة الأنبياء.
(19) التشريع الجنائي الإسلامي لعبد القادر عودة ص 28 ط الأولى.
(20) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة ومسلم في كتاب الإمارة.

ومع هذه السلطة تكلف الشريعة الإسلامية الرجل بمعاملة زوجته بالمعروف يقول تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾(21).

ويقول: ﴿فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾(22). ويقول رسول ﷺ في خطبة حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله»(23).

معاملة المرأة بالإحسان والمعروف وفي دائرة من التقوى أمر مطلوب حتى مع القوامة والقيادة الأسرية.

إن جعل الإسلام قيادة البيت في يد الرجل ينبغي أن يكون مبنيا على الرحمة والمودة والمحبة والإرشاد والإحسان وفي إطار يحفظ كرامة المرأة ويصونها ويحقق مصلحتها ومصلحة الأسرة كلها، فرئاسة البيت للرجل رئاسة توجيه وعطف، لا رئاسة سيطرة واستبداد.

إن الإسلام ينظم عمل الجماعة ولو كانت مكونة من شخصين، فيجب على أحدهما تدبير الأمر في حضر كانا أو في سفر، وإعطاء القوامة لأحد الشريكين في البيت أمر «ضروري» ولا يصلح لها إلا من تحمل تبعات بناء الأسرة والمحافظة على أمورها وهو الزوج.

2 ـ الميراث

ونظرية الإسلام في الميراث قائمة على توزيع الثورة التي جمعها الموروث ليعمل كل واحد من الورثة في تنمية ما يصل إلى يده منها، حتى تكون هي بدورها محل توزيع جديد بعد الوفاة، يقول تعالى: ﴿**للرجال نصيب مما ترك الوالدان، والاقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه او كثُر نصيبا مفروضا**﴾(24).

وحدد حظوظ الطرفين الرجال والنساء بقوله تعالى: ﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾(25)، ويتم هذا بين الزوجين وحتى بين الأبوين في كثير من الأحيان فيكون نصيب الأب ضعف نصيب الأم.

وأساس هذه التفرقة يمكن حصره فيما يقع على عاتق الرجل من تكاليف وتحملات عائلية لايقع مثلها على المرأة، فكان من العدل أن يقع هناك تمييز في الأنصبة ما دامت المرأة ستحتفظ بمالها لنفسها، بينما يجبر الرجل وحده على الإنفاق منه على بيته وأهله.

إن عدالة الإسلام في قسمة التركة جاءت بنظام متكامل وبأحكام شاملة فيها إنصاف وفيها رعاية، وفيها إحقاق للحق وصيانة المجتمع من الخلل والزلل فصلحت بذلك شؤون الخليقة إلى يوم الدين(26).

3 ـ الشهادة

لقد فرق الإسلام في أداء الشهادة بين الرجل والمرأة في بعض الأحيان فجعل شهادة الرجل تعادلها شهادة امرأتين، يقول تعالى في كتابه

---

(21) الآية 19 من سورة النساء.
(22) الآية 231 من سورة البقرة.
(23) أخرجه الإمام في حديث جابر بن عبد الله في كتاب الحج.
(24) الآية السابعة من سورة النساء.
(25) الآية 11 من سورة النساء.
(26) الميراث العادل في الإسلام للشيخ أحمد بن العجوز.

الحكيم: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتُذَكِّر إحداهما الأخرى﴾(27).

ويرجع سبب ذلك إلى ما ركبه الله في طبيعة المرأة من تغليب جانب العاطفة والوجدان على جانب العقل والإدراك، فإذا شهد رجل بواقعة وشهدت معه امرأتان فإن شهادتهما يكمل بعضها البعض، وتذكر كلتاهما الأخرى بما يمكن أن يفوت عليها أو ما غلبت عليها فيه عاطفتها، غير أن الأمور التي تتعلق بالنساء فقط ولا يعرفها غيرهن تجوز شهادة المرأتين وحدهما فيها، وقد نص الفقهاء على حالات قبول شهادة المرأتين في مثل الولادة والحيض والحمل والسقط والاستهلال والرضاع وإرخاء الستور، وفي كل ما تحت ثيابهن(28).

4 ـ الطلاق

شرع الإسلام الطلاق لعلاج ما يقع داخل البيت من سلبيات لا تجد وسيلة للإصلاح كالتنافر في الطبائع أو فساد الأخلاق، كما شرع التطليق للضرر أو العيب أو الغيبة أو الإعسار أو غير ذلك من الأسباب الأخرى، وجعل الأول بيد الزوج، والثاني رهن إشارة الزوجة لإستعماله عند الحاجة وبواسطة السلطة القضائية.

عندما أباح الإسلام الطلاق وجعله بيد الزوج حذر من استعماله بشتى الأسباب والعلل، فتحدث عن قدسية عقد الزواج ﴿وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾(29).

وقال فيه رسول الله ﷺ: (أبغض الحلال إلى الله الطلاق)(30) ، وتحدث القرآن عما يمكن أن يكون سببا في الطلاق من كراهية بعض أخلاق الزوجة، لكنه نص صراحة على أن ذلك قد يجعل الله فيه خيرا كثيرا، ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾(31). وحث على إجراء الصلح والتحكيم لعلاج سلبيات الحياة الزوجية، كل ذلك لصالح استمرار علاقة الشركة البيتية، وأخيرا وضع الإسلام التزامات مالية على الزوج في حالة استعمال سلطته في الطلاق من أداء مؤخر الصداق، ونفقة العدة بما تشتمله من أكل وشرب ولباس وسكن وحق التمتيع ﴿ومتعوهن على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، متاعا بالمعروف﴾.(32).

وتشريع الإسلام لحق الزوجة في طلب التطليق إذا أثبتت سببا شرعيا له، يكون توازنا في الحقوق من المنظور الشرعي.

إلا أن السؤال الذي يطرح في الموضوع هو لماذا جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل وعلى لسانه، ينطق به متى شاء، ويكون لازما له، وجعل حق المرأة في شأنه متوقفا على إثبات سبب شرعي له، وعلى أن يكون ذلك بيد السلطة القضائية ويستفسر بعض

---

(27) الآية 282 من سورة البقرة

(28) تبصرة الحكام لابن فرحون، بهامش فتح العلي المالك للشيخ عليش ج 1 ص: 293 طبعة دار الفكر وانظر الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية ص 221 تحقيق الدكتور محمد غازي.

(29) الآية 21 من سورة النساء

(30) أخرجه ابن ماجة في كتاب الطلاق

(31) الآية 19 من سورة النساء

(32) الآية 236 من سورة البقرة

السائلين عن موقع ذلك في إطار حقوق الإنسان ومبدأ المساواة في الإسلام.

نعلم جميعا أن تشريع الطلاق وفسخ علاقة الزوجية أقره الإسلام ليغني الله كلا من سعته ﴿**وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته**﴾(33).

إن منح الزوج وحده حق الطلاق وبدون مسطرة قضائية غير الإشهاد عليه لتوثيقه يقوم على أسباب أدبية ومعنوية وعلى أسباب مادية، فالأسباب الأدبية تعود إلى أن الرجل خلقه الله، وأعطاه طاقة عقلية أكثر من الطاقة العاطفية لمواجهة أحداث الحياة بعقله لا بقلبه، وهو بمقياس الرجل العادي ـ لا يلجأ إلى استعمال سلطة الطلاق إلا بعد تفكير وترو، وتأمل وتدبر، لكونه يقدم على أمر فيه مخاطر على الأسرة والبيت وعلى حياته الاجتماعية نفسها، وهو لهذا لا يستعمل هذا الحق إلا في المرحلة الأخيرة من صعوبة تسوية الخلافات الزوجية، فإعطاء الرجل هذه السلطة وحده اعتباراً للضمانات التي تجعله لا يستعملها إلا بعد دراسة وتفكير.

أما المرأة فقد جعل الله طاقتها العاطفية تأخذ حجما أكبر من قدرتها القلبية في تكوينها النفسي والإنساني، ولو ملكت حق طلاق زوجها بإرادتها المنفردة لفعلت ذلك لأتفه الأسباب ولأبسط الأحداث، ولأصبحت الحياة الزوجية والأمن الدخلي للبيوت في أشد حالات الخطر الاجتماعي مما يعرض الأسرة للتفكك بسبب فورة عاطفية جامحة قد تكون عابرة.

أما الأسباب المادية لجعل الطلاق بيد الزوج دون الزوجة فهو أن الالتزامات المالية والاعتمادات المصرفية تقع على مسؤولية الزوج، فهو المكلف بالإنفاق وتدبير احتياجات الأسرة من سكن ولباس وتطبيب وتربية وتعليم، والشارع يقرر أن حل ميثاق الزوجية يفرض على الزوج مصاريف بيتية مدة بقاء الزوجة في مرحلة العدة، وكأن علاقة الزوجية في تكاليفها المادية لم تنفصم، بل يزيد الزوج تحملا بأداء تعويضات التمتيع ودفع مؤخر الصداق مما لم يكن مطلوبا قبل الطلاق.

والزوج عندما يتدبر أمر الطلاق ويفكر فيه يتصور هذه التحملات، وقد تجعله يرجع عن عزمه على الطلاق، ويوثر الصبر على بعض المتاعب مقابل متاعب أشد في إطار التوجيه القرآني الكريم ﴿**فعسى أن تكرهوا شيئا، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**﴾(34). وتكون تلك التحملات المادية دافعا له على عدم إجراء فراق بينه وبين زوجته.

ولكن المرأة ليست ملتزمة بتكاليف مادية في قضية الطلاق ولا تعطي شيئا، بل هي التي تأخذ، فلو أعطيت سلطة الطلاق مثل سلطة الرجل ـ لأجرته دون التفكير فيه، بل ربما لتكسب منه جانبا ماديا، دون النظر للخسارة المعنوية، وللخسارة الإجتماعية التي تصاب بها الأسرة.

إن هذا التمييز الذي أقرته الشريعة الإسلامية رعت فيه المصلحة العامة وأمن الأسرة والبيت والمجتمع، ولن تتضرر منه المرأة كلما استعمله

---

(33) الآية 130 من سورة النساء

(34) الآية 19 من سورة النساء

الـزوج في إطـاره الشرعي وضمن حـدود التربيـة الإسلامية التي ينشأ عليها المسلم.

إن بعـض الكتـاب المسلمين يعترضـون على الشريعة الإسلامية في مـوقعهـا هـذا، ويطـالبـون بإبطال سلطة الطلاق التلقائية من الزوج وجعلها في يـد القضـاء، مثل سلطـة التطليق التي تلجأ إليهـا الزوجة، محاولين بذلك استبدال شريعة اللـه الـذي يعلم خائنـة الأعين ومـا تخفي الصـدور، بشريعـة الإنسان الذي يتأثـر بـالأحـداث ويخضع لمظـاهـر اجتماعية قد تكون فيها المصلحة ظرفية وتبتعد عن القصد الإسلامي في التشريع.

إن لبيت الـزوجيـة أسراراً أمـر اللـه بحفظهـا وصيانتها، وعندما جعل الطلاق بيد الـزوج أراد أن لا تذاع تلك الأسرار، وأن لا تنزل إلى قاعات المحاكم، وتنشر بين العموم بما فيها من تبـادل التهم وخلق الأسباب.

إن الشريعة الإسلامية عندما جعلت الطلاق بيد الـزوج دون استجـوابـه عن أسبـابـه وبـواعثـه، واستفساره عن أسراره وعلاقاته مع زوجتـه كـانت ترمي بذلك إلى صيـانـة كـرامـة المرأة وحفظهـا في نفسها وفي عفتهـا من أن تنـزل إلى الميـدان لتـوزن بمقـاييس قـد تكـون مختلفـة التركيب ومتعـددة التوجهات.

5 ـ الطاعة الزوجية

تقوم قضية الطاعة الزوجية على أساس إجبـار الزوجة على السكن في بيت الـزوجيـة: (إن الـزواج مؤسسة شرعية تؤدي وظيفـة اجتماعيـة غـايتهـا الإحصان والعفاف وتكثير سواد الأمة بإنشاء أسرة على أسس مستقرة تكفل للمتعاقدين تحمل الأعبـاء في طمأنية وسلامة وود واحترام)(35).

وتضع هـذه المؤسسـة على عـاتق الـزوجين واجباتٍ وحقـوقـا متبـادلـة، في تـوازن اهتمت بـه الشريعة الإسلامية بالأحكـام والقـواعـد المقـررة في الموضوع.

ومـا دام الـزوج لـه الإشراف والمسـؤوليـة في تـوجيـه شـؤون الأسرة واختيـار السكن المنـاسب للاستقرار المادي والنفسي فإن الزوجة لا يجوز لها أن تهجر بيت الزوجية، يقـول تعـالى: ﴿**أسكنوهن من حيث سكنتم من وُجْـدكم**﴾(36)، فإذا خالفت ذلك وفـرَّت من بيت الـزوجيـة الـذي يضمن لها الصيانة والعفاف والكرامة والاستقامة فإن إجبارها بطريقة مشروعة على الرجوع لبيت الزوجيـة لأداء حقوق الزوج والأسرة، والقيام بواجبـاتها الشرعيـة أمر ليس فيه مس بحقـوق المرأة كإنسـان، ولكنـه تنفيذ لالتزامات شرعية يكفلها عقد الزواج.

وكما تجبر الشريعة الإسـلاميـة الـزوجـة على الطـاعـة تنفيـذاً لحق الـزوجيـة، تجبر الـزوج على الإنفاق والقيام بواجبات الأسرة، وقد يصل الأمر إلى درجة حبسه في إطار إهمال الأسرة.

إن تـدخل الشـارع بأمـره للمـرأة بـالطـاعـة الزوجية مثل تدخله بإلزام الزوج بمساكنة زوجتـه ومعـاشرتها بـالمعـروف، وفي ذلك مصلحـة الفـرد والمجتمع، وليس في ذلك إهـدار لحق الـزوجـة، أو التقليل من كرامتهـا وإنسـانيتهـا، والأوضـاع بهذا

---

(35) نص المادة الأولى من مـدونـة الأحـوال الشخصيـة المغربية.

(36) الآية السادسة من سورة الطلاق

الشكل تكون التوازن والأمن الاجتماعي المطلوب على مستوى الأسرة.

ومن مبادىء حقوق الإنسان في الإسلام في نطاق قاعدة المساواة، التسويةُ في الحقوق والواجبات بين المسلم وغير المسلم، فالذمي الذي يكون في بلد إسلامي وتحت حكم المسلمين له حقوق كباقي المسلمين، وعليه واجبات تقابلها، فلهم مالنا، وعليهم ما علينا في الحدود التي يضبطها الإسلام.

فللذميين على الدولة الإسلامية حمايتهم كما تحمي رعاياها وتقضي لهم أو عليهم كما تحكم في شؤون المسلمين، إلا ما تعلق بأمور عقيدتهم فإنها تتركهم يتحاكمون لها، بل وصل الأمر بمعاملة السلطة لأهل الذمة إلى إسقاط بعض التزاماتهم تجاه صندوق الدولة، فقد روى أبو يوسف في كتاب الخراج وأبو عبيد في كتاب الأموال أن عمر رضي الله عنه، مر بباب قوم وعليه سائل يسأل ـ شيخ كبير ضرير البصر ـ فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى، قال: أسأل الجزية والحاجة، والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال، أنظر إلى هذا وضرباته فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم)(37).

ومن الدروس التي أعطاها رسول الله ﷺ للمسلمين للمتعامل مع غيرهم من أهل الذّمة ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: مر بنا جنازة فقام لها النبي ﷺ وقمنا به، فقلنا يارسول الله إنها جنازة يهودي، قال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا (وفي رواية عبد الرحمان بن أبي ليلى، فقال رسول الله ﷺ: (أليست نفسا)(38).

وفي قراءة لمعاهدة تسليم مفاتيح مدينة القدس إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يوضح موقف الإسلام من المساواة بين المسلمين وغيرهم، تقول معاهدة الصلح: (بسم الله الرحمان الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المومنين أهل إيليا من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود)(39).

هذه أحكام الإسلام الواضحة في مواجهة الأقليات التي لا تدين بالإسلام وفيها من الضمانات ما لا نجده في أي شريعة أو قانون آخر حتى العصر الحاضر.

واقتصر في الحديث عن مبدإ المساواة في الإسلام على الصور والمشاهد السابقة ولعل فيها ما يكفي لإغناء فقه حقوق الإنسان بالأحكام والقواعد والأصول.

الرباط ـ أحمد أفزاز

---

(37) أوليات الفاروق السياسية، للأستاذ غالب عبد الكافي القرشي ص 232

(38) صحيح البخاري، كتاب الجنائز ـ باب من قام لجنازة يهودي

(39) مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله، ص 488 ط دار النفائس.

بورور محمد الخامس

بأستاذه وإمام قصره

للأستاذ أحمد مصطفى عاشور

منذ أرجعَ الفقيه العلامة القاضي النزيه(1) السيد «الحاج محمد النَّصِيري» إلى وظيفه(2) القديم، كمدرس بالقصر السلطاني، وإمام مسجده بالرباط،(3) وهو يعمل جادا ليتعرف على طبقات السكان، ويتودد إلى فضلاء العاصمة وأخيارها، علّه يجد فيهم، ومن بينهم، من يستأنس به، في هذه الأرض الطيبة، التي أبت الأقدار الإلهية إلا أن يستقر بها، نهاية المطاف. هذا ويمكننا أن نتصور الأستاذ الإمام قد خرج صباح يوم من دار المخزن، وكان جمعة، بعدما أنهى مهمته التربوية. فخطر بباله، وهو في الطريق، أن لا يقطع نهر أبي رقراق، على متن «البركاصة»(4) ليلتحق بمنزله في حي الحديقة بسلا، حتى يؤدي صلاة الفريضة برباط الفتح. وكان جامع أهل فاس أقرب المساجد إليه. فقصده باكرا، عملا بوصية(5) الرسول ﷺ... ولم يكن به ساعتئذ سوى بعض الشيوخ الموقرين، جلسوا هنا وهناك، يذكرون الله سرا، مستعينين بسبحاتهم، في أداء أورادهم، فانتهز الأستاذ الفرصة. فجدد وضوءه. وصلى ما وفقه الله له من نوافل، ثم اندمج بعد ذلك مع المومنين الذين شرعوا في تلاوة كتاب الله. متدبرا معاني الآيات، سابحا في فيض من الخشوع والخضوع. حركة مفاجئة، لفتت نظره قبيل وصول الجناب الشريف، ذلك أن مقصورة المسجد فتحت أبوابها، فدخلها في تؤدة، رجل طويل القامة، شديد بياض الوجه والثياب. عليه سمة العلم والورع

---

(1) قبيلة زعير قديما وحديثا ج. ث. ص: 146-147 للأستاذ بنسودة المري

(2) المصدر السابق ص: 174.

(3) المصدر السابق ص: 146.

(4) زورق عمومي ضخم وفسيح، كان السكان يتنقلون عليه بين العدوتين وكان يسير بالبنزين. والكلمة مشتقة من اللغة الإسبانية.

(5) في صحيح البخاري أحاديث كثيرة تتحدث عن فضل الجمعة والتبكير إليها.

والوقار. وكان هو العلامة «الحاج محمد(6) عاشور» الإمام والخطيب السلطاني. ذلكم الإنسان الذي سمع عنه الشيء الحسن. وكان يتوق للاتصال به والتعرف عليه، خصوصا، وقد سبق له أن ائتم به، واستمع إلى خطبتيه القصيرتين(7) الجامعتين البليغتين. فتأثر لوعظه وإرشاده، وأعجب بفصاحته وطريقة إلقائه. فرأى في ذلك اليوم، أن لا يبارح المسجد، إلا بعد أن يربط معه وشائج الأخوة، وأواصر المودة. فلما انتهت الصلاة، وتفرقت الجموع، بقي الأستاذ الإمام قابعا في مكانه، يذكر الله كعادته،(8) منتظرا خروج الإمام الخطيب. حتى إذا أقبل عليه، وقف الأستاذ وتقدم إليه في أناة وسكينة، وبش في وجهه، وحياه تحية إسلامية مباركة. فرد عليه صاحبه بمثلها. فتصافحا، وتعارفا، وخرجا معا، وافترقا على موعد ضرباه بينهما. وكان من الطبيعي أن تنعقد بين الرجلين الكريمين لقاءات، وتتبادل آراء، وتتناقش موضوعات ونوازل، في رحاب دار المخزن، وعبر مكاتبها الفسيحة. ومع مرور الأيام، توطدت عرى الصداقة بينهما. فأصبحا أخوين في الله، يجتمعان ويفترقان عليه. وكان تلقائيا أيضا، أن يُسِرَّ الأستاذ الإمام، ذات يوم لصديقه، ببعض معاناته في الحياة. وبالخصوص، إثر فقده رفيقة حياته، زوجته الفاضلة، أم أولاده. فالتمس منه المساعدة ومدَّ يد العون. وأعرب له صراحة عن رغبته، إذا كان ممكنا، في مصاهرة بيت «الرشاي»، الشهير بعاشور، الذي لايخفى عليه حسبُه ونسبُه، وتراجم أعلامه الأفذاذ، ورجالاته السلفيين المصلحين. فوعده الإمام الخطيب خيرا، بعد أن أصغى إليه بسمعه(9) وقلبه. وتأثر لحاله. وعاهده، حسب الاستطاعة على تحقيق أمنيته، وتلبية مطلبه. وهكذا كان... فقد «أنجز حر ما وعد»... مبرهنا بذلك عن وفائه وإخلاصه. فقد كانت له أخت نبيهة، ـ بجانب إخوة وأخوات ـ تصغره بسنوات، دأب على تهذيبها وتوجيهها.(10) فلما بدا منها ما يسر ويبشر بالخير، جعل يستشيرها أحيانا في بعض القضايا العائلية، والشؤون الهامة. وجلس إليها مرة، بعدما انتهت عِدتها، من ابن عم لها شقيق.(11) وحدثها عن الصداقة التي ربطها مع العلامة النصيري. وأشاد لها بمكارمه وأخلاقه، وعلمه وجهاده في ميدان القضاء،(12) وإعلاء كلمة الحق والعدل، والدفاع عن مكانة الدولة المغربية وهيبتها، ومقاومة تعسفات المراقبين المدنيين، وجشع الطغاة المعمرين،(13) وأذنا بهم المرتزقين. ولم يخف عنها في النهاية رغبة الأستاذ ورجاءه في مصاهرة الأسرة... وقبل أن يغادر الأخ الوقور مجلس أخته

---

(7) أعلام الفكر المعاصر ج. ث. للجراري ص: 161.

(8) قبيلة زعير قديما وحديثا. ج. ث. ص: 147 لابن سودة المري.

(9) وحلى من الخصال الحميدة التي يجب أن تتوفر في الإخوان والأصدقاء وقد أشار إلى ذلك أبو تمام بقوله:

وتراه يصغي للحديث بقلبه * وبسمعه ولعله أدرى به.

(10) بعد رحيل والدها العلامة أبي حفص ج. عمر الرشاي عاشور.

(11) هو والد كاتب السطور مصطفى بن عبد الله بن محمد الرشاي، قاضي الجماعة بمراكش في عهد م. سليمان وم. عبد الرحمن، رحمهم الله جميعا.

(12) قبيلة زعير ج. ث. ص: 147.

(13) نفس المصدر ونفس الصفحة.(6) راجع في شأنه الاغتباط لأبي جندار ج. 1. ص: 184 وأعلام الفكر المعاصر ج. ث. ص: 160 للجراري.

الحكيمة، ناشدها الله لتساعده على حل هذا المشكل، وتعالج أمره في جد وإيجابية. بل وتصوغ له جوابا ناجعا مرضيا. وقد خاطب الأخ أخته بهذه الطريقة، على ضوء الحديث النبوي الشريف، الذي يبيح للثيب أن تعرب(14) عن نفسها. وخلال يوم صحا طقسه، وأشرقت أنواره، وطابت نسائمه، وتعطرت أجواؤه، شاءت الأقدار الإلهية أن تزف المرأة المصونة بالله، أخت العلامة ج. محمد عاشور، عروسا على كتاب الله وسنة رسوله، إلى بعلها الفقيه المشارك ج. محمد النصيري، بالضفة اليمنى، من نهر أبي رقراق، بمدينة سلا، الزاهية المغمورة بالخير والبركة والصلاح.(15) فشكر الأستاذ الإمام ربه على فضله واختياره. وحَمِدَه على نعمه وآلائه. وتقرب إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقصد بيته الأصدقاء، القدماء منهم والجدد، مهنئين مباركين. داعين له وللأسرتين بدوام الصحة والسلامة. إلا أنه مع تعاقب الشهور وتوالي الأسابيع والأيام، حدث ما لم يكن بالحسبان. ذلك أن مرارة الغربة، حسب الظاهر، لم يستطع أحد الاستمرار في احتمالها، وطول المسافة بين مقر العمل بالعاصمة ومدينة السكن، أضنت الأجساد، وكادت أن تدمي الأقدام. أما البعد عن تيار الأصهار، فقد ضاعف المحنة... فلم يَسَعْ الأستاذ الكريم، أمام كثرة النفقات ـ من جراء الذهاب والإياب والتنقلات ـ إلا أن يطالب الجهات المعنية بإمكان إسكانه بربوع الجهاد والفتح. فقوبل ملتمسه بالترحاب والتنفيذ. وكان رحمه الله، لا يهمل طلبه، ولا يخيب له رجاء. وبعد استقراره نهائيا بالمشور السعيد، جوار مسجد أهل فاس، اشتهر صيته، وعم فضله، وشع في الأحياء علمه وصلاحه. فأقبل عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب، متوددين له، مضاعفين لشخصه المتواضع التقدير والاحترام. وأصبح بذلك بيته الرحب كَنادٍ يلتقي فيه العلماء والفقهاء ـ وطلبة العلم الشريف، أولئك الذين كانوا يشكلون حلقاته العلمية ـ بمسجد أهل فاس ـ تلك التي أصبح يعقدها، تطوعا. فيفيد ويعلم، ويوجه ويرشد، حبا في تعميم المعرفة، ورغبة في تفقيه العباد وتنبيههم. الأمر الذي جعل الدروس النصيرية يبلغ صداها الطيب إلى الأوساط المعنية بالمدينة(16) العتيقة. فتسارع بعض أبنائها إلى الانضمام إليها. والحضور فيها، للتحصل والاستفادة من معلوماتها. وكان من بين تلاميذها أولا أبناء العلامة النصيري الثلاث، السادة محمد وعبد السلام رحمهما الله، وابنه الأوسط، أبو العباس، أحمد، ناظر الأحباس(17) سابقا، بمراكش الحمراء. وثانيا، فقيها حيي توارکة العليا والسفلى. وثالثا، أشخاص آخرون، كان من بينهم الحاج المعطي(18) عاشور وعمه الحاج عبد الحميد عاشور. وبالإضافة إلى نشاط العلامة النَّصِيري المذكور، ـ الذي كان يزاوله خارج دروسه بالقصر السلطاني ـ فقد كان أحيانا

(14) وقد جاء في الحديث «البكر تستأمر وإذنها صماتها، والثيب تعرب عن نفسها»

(15) صلاح رجالاتها الأبرار وفي طليعتهم القطبان الكبيران سيدي ج. أحمد بنعاشر وسيدي عبد الله بن حسون، رضي الله عنهم أجمعين.

(16) كان المستعمرون قديما يطلقون على المدينة المسورة، تلك التي بنى جل منازلها وأحيائها اندلسيو الرباط. أما الأحياء التي كان يقطنها الأوروبيون فكانوا يسمونها بالمدينة الأوروبية أو المدينة الحديثة.

(17) وكان مع السيد عبد الهادي الغربي يعملان في العهد البائد «بالإدارة الشريفة» ومن المتصلين بمحمد الخامس رحمه الله. ولازالا ولله الحمد حيين يرزقان.

(18) إمام مسجد باريس وخطيبه سابقا وهو ابن العلامة ج. محمد عاشور أما عمه فهو نجل أبي حفص العلامة ج. عمر

جلالة محمد بن يوسف بمسجد انتسيرابي يحدث المؤمنين ويشرح لهم الآيات البينات من الذكر الحكيم.

« في هذا الموقف الرهيب أتذكر فترة تاريخية عشتها بجانبك حينما تكالب علينا الاستعمار مهدداً لجلالتك متحدياً لمهابتك يساومنا على أن نرضى بالدنية في وطننا ويراودنا على أن نرهن مصير الأمة في عبودية مستمرة مستعملاً لذلك أنواع الوعيد ... ومع ذلك لم يهن لنا عزم ولا ضعفت لنا قناة . . . إنك لا تزال أمامي يوم أن طوّق القصر . . . ومازلت أتذكر وقد نظرت إليك نظرة إشفاق وأراك تبتسم مردداً : لا تحزن إن الله معنا ».

الحسن الثاني
(محمد الخامس . فكرة وعقيدة . ص 249)

ينزل إلى منزل أصهاره بزقاق مسجد عطية، المحاذي لزنقة القبة، بحي تحت(19) الحمام، وبعد تناول الغذاء، تنعقد تلقائيا ندوة علمية، تتطرق إلى كثير من المسائل والموضوعات، يساهم فيها الضيف الموقر، وصديقه الصدوق، فيستفيد منها الأبناء الحاضرون والسادة المدعوون. حتى إذا حل المساء، عاد الأستاذ الإمام إلى بيته الجديد بالمشور السعيد، مصحوبا بأبنائه، ومن بينهم صبي زوجته وابنه الروحي، وقد أولاه عناية خاصة، وأشرف على تربيته وإعداده وتوجيهه التوجيه الصالح. فكان يصحبه معه مرارا إلى مسجد القصر. ويجلسه أحيانا في حلقاته العلمية، رغم صغر سنه وعدم إدراكه. وذلك حسب رغبة والدته الحنون الواعية، ونظرتها البعيدة، وأفكارها البناءة، وأهدافها الصائبة، مخططة بذلك لفلذة كبدها، بمساعدة زوجها الإمام، النهج القويم، الذي يجب أن يسير عليه، إلى آخر نفس من حياته. كما كان أبناء الأستاذ وبناته، يعتبرون ولد زوجة والدهم كأخيهم، وواحد منهم. وينظرون إلى رفيقة حياة أبيهم، نظرة احترام ومحبة ووقار. مما دفع بالمرأة الصالحة، والأم الكريمة، أن تنزلهم بدورها، سويداء قلبها، وتوثرهم على نفسها، كما لو كانوا أبناء صلبها.

والحقيقة أن العلامة النصيري، حين وفقه الله لاختيار كريمة المحدث أبي حفص ج. عمر بن محمد الرشاي عاشور، زوجةً له، وسَنَدِ عَيْشِهِ ومَحْيَاهُ، ـ بعد انتقال زوجته الأولى الفاسية الفاضلة، إلى جوار الله ـ كان على عِلْم مسبقا بمكارمها ومحاسنها، وذلك حسب ما استخلصه من معاشرته لأخيها الإمام الخطيب. زد على ذلك أن «البلد الطيب يخرج نباته(20) بإذن ربه» والأصل تتبعه الفروع».(21)

يذكر بعض المؤرخين أمرين بارزين، الأول في حياة جد المرأة الصالحة، العلامة مَحمد ـ بفتح الميم ـ بن العربي الرشاي، قاضي الجماعة بمراكش ودفينها،(22) ـ ذلك الذي عرف بعلمه وورعه وزهده وصرامته في الأحكام، وتحريه الصواب(23) ـ أنه حين توفي لم يوجد في ملكه رحمه الله، سوى خمس أواق.(24) والأمر البارز الثاني في ترجمة والدها أبي حفص عمر،(25) الذي اشتهر بتضلعه في الفقه والحديث والتصوف والكرم الحاتمي، أن المنية فاجأته، قدس الله روحه، وهو يطالع كتابا في الحديث،(26) كان دون ريب، يستعد لإلقاء درسه على طلبته ومريديه. ولقد علق صاحب «مجالس

(19) أنجب هذا الحي رجالات في الفقه والأدب والتاريخ إلخ. راجع أعلام الفكر للمؤرخ عبد الله الجراري والاغتباط لأبي جندار والانبساط لدينية، ورياض الجنة أو المدهش المطرب للعلامة المرحوم عبد الحفيظ الفاسي.

الدار الوحيدة التي كانت قريبة من باب جامع أهل فاس، قبل أن تطرأ عليه إصلاحات وتحسينات في عهد بطل التحرير سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه.

(20) آية 58 من سورة الأعراف إلى قوله تعالى ﴿يشكرون﴾.

(21) كما قرر الأصوليون.

(22) راجع ترجمته في الانبساط ج. 1. للعلامة دينية ص: 167. والاغتباط للمؤرخ أبي جندار ج. 1. ص: 183.

(23) نفس المصدرين.

(24) الانبساط ج. 1. ص: 170.

(25) راجع ترجمته في الانبساط والاغتباط، والاعلام.

(26) الانبساط ج. 2. ص: 245.

الانبساط»(27) على هذا الحدث بقوله: «سبحان الله! هذا مصداق قول النبي ﷺ: «يموت المرء على ما عاش عليه». هذا وقد حَبِيَ الأستاذ النصيري رحمه الله ما شاء له ربه أن يحيا، وقضى أيامه في خدمة الدين والوطن والعرش، وميدان القضاء والعدل بين المواطنين، وفي مقاومة المستعمرين أيضا. ولم يشغله شاغل، ولا أغواه شيطان عن ذكر الله، حتى حينما ابتلي بداء السكري العضال، الذي نغَّصَ عليه صفو حياته وراحته. فصمد في وجهه بفضل الله. وبقي ثابتا إلى آخر نفَس من حياته. مستعينا عليه بتلاوة(28) كتاب الله، وبترديد الأذكار النبوية، وبتناول أيضا مادة «الحلبة»،(29) كعلاج شعبي تقليدي، وبآخرَ عصْري. وكان أحد الأطباء الفرنسيين يقدم له الإسعافات الضرورية اللازمة. كما كان الطبيب الرباطي الشهير السيد «عباس العوفير»(30) يُعْنَى هو الآخر بصحته عن طريق الأصهار، ويجد للتخفيف من مصابه. معتمدا في علاجاته لمرضاه، على تجاربه الخاصة، واجتهاداته الشخصية، ومعلوماته الجمة، التي استفادها وتلقاها من لدن عدة أطباء أحرار. اختاروا الإقامة في المغرب لممارسة أعمالهم الإنسانية. نظرا لما خص الله أرضه بطقس معتدل، وهواء نقي بليل، وامتيازات طبيعية أخرى قلما تتوفر عليها أصقاع وبلدان.

وحيث إن البيت النَّصِيري كان يجتاز حالة استثنائية من جراء ما ألم بعميده العزيز، وفرض على أفراده كامل التجنيد والسهر على راحته، فإن ابن الزوجة الصالحة كان خلال هذا الظرف الكئيب، يمضي سحابة يومه في كتاب فقيه «تواركة التحتية»(31). وكان الإمام النَّصِيري قد نقله إليه، ليستفيد أكثر من مؤهلاته الثقافية. ولا يعود منه إلا في المساء، ليجد الجميع ملتفا حول سرير الفقيه المبتلى.

كانت الزيارات الكريمة التي كان يتفضل بها «سيدي محمد بن يوسف» على شيخه الوقور، تترك أثرا حميدا في نفسه، وفي نفس الأسرة النَّصِيرية، بل ويبلغ خبرها إلى علم «أهل المدينة»، الأصهار الكرام، فيخفف من ألمهم، ويواسيهم فيما كانوا يعانونه بدورهم من جراء رؤية صهرهم المحترم طريح الفراش، وتمنى ابن الشيخ الروحي أن يحضر ولو مرة إحدى هذه الزيارات الثمينة، ليعاين ببصره ونفسه، ذلك السلطان المحبوب، صاحب الوجه الوضاء، والجلباب الحريرية البيضاء، الذي يستقبله أطفال كتابه، أثناء وقت قصير محدد، لا يتجاوز، وبالأسف، سوى دقائق معدودات.... وذات مساء، لم يتسنَّ للأخ «محمد بن إبراهيم»(32) أن يرافقه إلى الكتاب، ليحميه في الطريق الطويل من الخطاطيف(*)

---

(27) المصدر السابق ص: 246.

(28) مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «تداووا بالقرآن وبالمشي».

(29) يذكر الطب أن الحلبة تحتوي على خمير يعين على امتصاص أصناف السكر.

(30) كانت عيادته قرب روض الشريف سيدي عبد الكريم الوزاني الذي كان يعد من أندية الرباط الأدبية.

(31) «الفقيه الحمار» وفقيه تواركة الفوقية، التي لحسن رحمهما الله.

(32) ابن أخي الفقيه النَّصِيري.

(*) كان يخشاها سائر الصبيان.

التي كان يخشى طيرانها، وترهبه بتقلباتها ودورانها في الأجواء. فانزوى في غرفته القريبة من حجرة نوم المريض الموقر، ليستمع من نافذتها إلى كثير من الأحاديث. ويستعرض عدة وجوه أشخاص من ذوي العمائم والجلاليب الصوفية الرفيعة، والبرانيس «البزيوية». كانوا يدخلون لعيادة الأستاذ مبتسمين، ويغادرون بيته وهم متأثرون. فلما أسدل الليل أستار ظلماته الحالكة على الوجوه، وضعت الزوجة الصالحة «لحافا»(33) حريريّاً مطرزاً، تجاه فراش الفقيه الجليل، وأصدر «سيدي أحمد»، نجله الأوسط أوامره للحارس ليلازم باب الدار في وقار. ولا يكاد هذا الأخير ينتصب في مكانه، حتى يفاجئه العاهل الكريم بدخوله في تواضع وهدوء وابتسام. يمشي على الأرض هونا، مفشيا السلام على كل من صادفه في طريقه. فإذا أخذ مكانه، أقبل الحاضرون على تقبيل راحته الشريفة. ثم شرع حينا في استفسار سيدي أحمد عن صحة الوالد، وعن مفعول آخر الأدوية، التي أمر الطبيب بتناولها. في هذه اللحظة بالذات، ألقى الطفل من بعيد نظرته الخاطفة على العاهل العظيم. فتأكد لديه أنه حقا جلالة السلطان الذي يستقبله صبيان كتابه بألواحهم القرآنية. فجَدَّد فيه نظرته، فبدا له بنفس الوجه الوسيم، ونفس الابتسامات التي تسر بها الأبصار، وتنشرح لها الصدور، وتَرتاح إليها الخواطر، وتطمئن إليها القلوب والنفوس. الهالة النورانية الملازمة لشخصه، كانت ساعتئذ تحيط به وتشع من عينيه، وتنعكس على قسمات مُحَيَّاه. حتى الجلباب التي كان يرتديها هذا المساء، كانت تستمد نصاعتها من بياضه، ولمعانها من بريق عينيه، وأناقتها من رقته. ولم يفت الصغير أن يلمس أيضا أن لهجة الزائر المبجل المراكشية وأحاديثه العذبة، كانت عبارة عن أراجيز موسيقية، تمتع الأسماع، وتحرك النياط والأوتار، وتصل إلى أعمق الأعماق. وباختصار، كل شيء في سيدي محمد الخامس. أوحى للناشئ بالثقة في الحياة، والإيمان بعظمة الله، والشعور بالطمأنينة، وخلال هذه الدقائق القليلة السعيدة من عمره، نسي - وهو يتملى بالنظر إلى طلعة أمل الصغار ورجاء الكبار، والقائد المحنك - هموم جو الكتاب الجديد، «وفلقة»(34) الفقيه الضخمة، وسوطه(35) الجهنمي. وفي الوقت الذي كان أمير المومنين في حوار هادئ مع «سيدي أحمد»، كان الفقيه يغط في نومه. وبإلهام من المولى تعالى، يستيقظ، ويفتح عينيه قليلا قليلا، عند ذاك تخبره الزوجة الصالحة الساهرة في إخلاص على تمريضه، بالحضور المولوي. فيتلفت شيئا فشيئا نحو جلالته، ويهز إليه رأسه، مبتسما مرتاحا. وكأنه يعترف له بالجميل. ويشكره على ما يحيطه به من عطف وعناية وتوقير. ولكن السلطان المومن الرؤوف، يرفع كفيه إلى الله، مبتهلا إليه في خشوع، واعيا لأستاذه وإمام مسجد قصره بالرحمة واللطف، وكان الصبي المتتبع لهذه المواقف المؤثرة،

---

(33) فراشا صغيرا ككرسي رفيع.

(34) الفلقة، عصا غليظة أثبت على جانبيها حبل متين لربط الأرجل. كان الفقهاء قديما يستعملونها وكذا الحكام لإرهاب الصغار والكبار. وهي طريقة تتنافى مع كرامة الإنسان.

(35) أو قضيب السفرجل

يستعد للاندفاع نحو أمير المومنين، ليهوي أولا بالتقبيل على يده الشريفة. وثانيا، ليتلو على مسمعه الكريم بصوت منخفض، وبغنة مناسبة، قول الله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾(*).. ولكنه عند التنفيذ، تخور قواه، وتصطك ركبتاه، فيندس بين الكبار، كحمامة صغيرة مغلوب على أمرها، ليكتفي بلثم راحة الملك المعظم، دون أن يضيف شيئا. حامدا الله على ما حدث له. ثم يلوذ بالصمت التام، وفي نفسه ما الله به عليم. على أن طفلنا إن كان قد فشل أو على الأصح إن كان قد ارتبك في استقبال عاهله الممجد، بتجويد حصته القرآنية، فإنه من جهة أخرى، حظي من جلالته بنظرة صالحة، وابتسامة حلوة كبيرة، جعلتاه يرى الدنيا بالنسبة إليه، كأنها جنة النعيم. ويشعر بأنه أسعد مخلوق على وجه الكرة الأرضية. ثم يتصور ويتساءل بعد ذلك كله عما كان سيحدث له، لو غامر بمثل ما قرر أن يفعله في البداية، من غير أن يستأذن والدته الكريمة. كل ما في الأمر، كانت المرأة الصالحة، ستضطر، لو حدث ذلك، إلى الاعتذار للملك الهمام، وتلتمس منه الدعاء لابنها الناشيء. بينما كان من المنتظر، أن يتعرض الجريء من طرف والدته إلى قرص لاذع. وربما إلى عقاب صارم، في اليوم التالي، على يد الفقيه الجديد، الله أعلم بخطورته وقساوته. ولكن مجودنا الصغير، بعد إخفاقه، تذكر وسُرَّ بما سمعه من كلام طيب، مفاده أن الله تعالى أراد به خيرا، حين سخره ليكون أنيس الأستاذ الإمام في رواحه من المسجد، ورفيقه في تهجده، وملازما له في مجالس علمه. وأن جميع المصلين متأثرون لتغيب إمامهم الراتب، مع طفله الهاديُ الوديع.

واستمر سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، في بروره بأستاذه وشيخه، إلى أن التحق بجوار ربه.(36) ولم ينس زوجته الصالحة، وأبناءه البررة، وأصهاره الأخيار. فشملهم جميعا بعطفه وعنايته. وكلما استحضر صبي الأمس، روح والدته(37) الكريمة، ومربيه العلامة ج. محمد النَّصِيري، رحمهما الله، إلا وتذكر من محمد الخامس،(38) العاهل المومن، قدس الله روحه، خُلُقَه العظيم، وإكباره للعلماء، وتكريمه لشيوخ الوطنية الصادقة، واحتفاءه بالقضاة النزهاء، وتقديره للرجال الشجعان الأوفياء.

فرحم الله محمدا الخامس الذي فتحنا أعيننا على رؤيته، وقلوبنا الفتية على محبته، وهتفنا كثيرا لبطولته في أيامه وأعياده وأمجاده. ومازلنا نقدره ونترحم عليه، كما نترحم على أعز الأهل والأحباب. وندعو لَخَلَفِه جلالة الملك الحسن الثاني بالنصر والتأييد، والتوفيق في خدمته قضايا العروبة والإسلام، وحقوق الإنسانية جمعاء، في أصقاع المعمور.

الرباط: أحمد مصطفى عاشور

(*) آية 1 من سورة الفتح.

(36) توفي العلامة النصيري سنة 1953 بالرباط.

(37) التحقت بجوار الله سنة 1971.

(38) والتحق بالرفيق الأعلى سنة 1961 وخلفه على العرش ولي عهده، جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

دراسة في موضوع

دور الاجتهاد في مواكبة المستجدات بالنظر لمقاصد الشريعة

للأستاذ
محمد حمود

انطلاقا من هذا المحور أقسم دراستي لقسمين رئيسيين :

القسم الأول : مفهوم مقاصد الشريعة

لقد جاءت الشريعة الإسلامية رحمة للإنسانية ومنارا لها، تهديها الصراط المستقيم وتنير لها سبل الخير والعدل والحق المبين، ولأجل ذلك توجهت أحكامها وقواعدها التوجهات الثلاثة الآتية :

التوجه الأول: تربية الفرد حتى يستطيع أن يكون منبع خير للجماعة التي ينتمي إليها، وذلك بفضل العبادات التي يمارسها منذ بلوغه سن الرشد والتكليف كالصلاة والصوم والزكاة والحج، فهذه العبادات التي تطهر النفس وتسمُو بها نحو الكمال الجسمي والروحي تخلق من الفرد عضوا نافعا لنفسه ولمجتمعه، كما تجعل منه عضوا منتميا لجماعة المسلمين يذود عن حماها ويذب عن أهدافها ومصالحها، إذ تربطه وإياها روابط الأُخوة ووشائج القربى في العقيدة ووحدة الأهداف والآمال ﴿**إنما المومنون إخْوة**﴾

التوجه الثاني: إقامة العدل في الجماعة الإسلامية فيما بين أعضائها ومع غيرها من الجماعات، ومجال العدل هو القضاء والشهادات وجميع المعاملات.

واتجهت الشريعة للعدالة الاجتماعية فجعلت الناس متساوين أمام القانون والقضاء لا فرق بينهم من حيث مستواهم الاجتماعي والاقتصادي والعِرْقي، فالكل خاضع لقاعدة المساواة العامة: «كلكم لآدم وآدم من تراب».

ولتحقيق العدالة الاجتماعية أوجب الله تكريم الإنسان وأتاح له فرصة العلم والعمل، كما أوجب مكافأة العامل على قدر عمله وإنتاجه، وجعل الحقوق متكافئة مع الواجبات، سواء في ذلك النساء والرجال ﴿**ولهُنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف**﴾

التوجه الثالث: للشريعة الإسلامية والذي يبرز في جميع الأحكام الإسلامية هو المصلحة، ويراد بها المصلحة العامة لا الخاصة، كما يراد بها أيضا المصلحة الحقيقية والمتمثلة في المحافظة على الدين والنفس والمال والعقل والنسل، فبحفظ هذه الأمور الخمسة تتوفر للإنسان الحياة الكريمة ويجتمع له خير الدين والدنيا،«ما أحسَنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا..»

فالدين يسمو بالإنسان عن دَرَك الحيوان ويحرره من كل عبودية سوى عبادة الله، وقد حرصت الشريعة الإسلامية على ضمان حرية التدين ونهت عن الفتنة فيه، وشرعت مختلف العبادات حفظا للدين واستمراريته في الوجود والنفوس.

ويتمثل حفظ النفس في المحافظة على حق الحياة الكريمة وحمايتها من الاعتداء عليها بالقتل أو القذف أو الحد من نشاطها المادي والفكري، ولذلك ضمن الإسلام حرية العمل وحرية الفكر وحرية الإقامة وغيرها حتى يتمثل المسلم وجوده في مجتمع حر وكريم.

واعتبرت الشريعة حفظ العقل لدى المسلم واجبا أساسيا على الجماعة الإسلامية حتى لا يكون العقل المريض مصدر شر وأذى للناس والمجتمع. ولمنع هذه الآفة وحِفْظاً لسلامة عقول الأفراد والجماعة منع الإسلام شرب الخمور وتناوُل المخدرات وكل ما يذهب بفعالية الفكر السليم وَوَضَع عقوبات صارمة على المخالفين.

وعملت الشريعة أيضا على المحافظة على النسل لأن في حفظه ضمانا لاستمرار النوع الإنساني، فنظمت الأسرة ورابطة الزواج والحياة الزوجية ومنعت الاعتداء عليها بجميع الوسائل، كما نظمت المجتمع الإسلامي بشكل يتفق وهذه المصلحة العامة.

وأخيرا اعتبرت الشريعة من المصلحة العامة حفظ المال وصيانته ومَنْعَ الناس من الاعتداء عليه بالسرقة والغصب ونحوهما من أكل أموال الناس بالباطل وبغير حق. وفي هذا الصدد نظمت التعامل بين المسلمين على أساس العدل والرضا وتنمية المال بالطرق المشروعة وتوزيعه بين الناس توزيعا عادلا.

هذا وقد اتفقت الشرائع السماوية على حفظ هذه الأمور الخمسة، كما عملت القوانين الوضعية على تحقيقها. ولقد قال في ذلك الإمام الغزالي (المستصفى ج 1، ص 287):

«إن جَلْب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم. لكنا نعني بالمصلحة المحافظةَ على مقصود الشرع، ومقصودُ الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم وعقلهم ونسلهم، وحالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة ودفْعُها مصلحة.

وحسب رأي الإمام الغزالي فإن هذه المصالح على مراتب، وفي أعلى السلم مرتبة الضروريات وهي ما لا تتحقق المصلحة المذكورة إلا بها، مثلا فالضروري بالنسبة لحفظ النفس هو المحافظة على الحياة. والمرتبة الثانية مرتبة الحاجي وهو الذي لا يكون الحكم الشرعي فيه لحماية أصل من الأصول الخمسة بل يقصِدُ به دفع المشقة أو الحرَج كتحريم بيع الخمر لكيْلا يَسْهُل تناولها، وتحريم الصلاة في الأرض المغصوبة حتى لا يُعتَدى على مال الغير..

والمرتبة الثالثة مرتبة الكماليات وهي الأمور التي لا تحقق أصل هذه المصالح ولا الاحتياط فيها ولكنها ترفع المهابة وتحفظ الكرامة وتحمي الأصول الخمسة. ومن ذلك بالنسبة للنفس حمايتها من الدعاوى الباطلة والسب وغير ذلك مما لا يمس أصل الحياة ولكن يمس كمالها ويثنيها. ومثال التحسيني بالنسبة للمحافظة على النسل تحريم خروج المرأة في الطرقات بزينتها في قوله تعالى: ﴿**وقل للمومنات يَغْضُضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها...**﴾. ومن التحسينات بالنسبة لحفظ الدين منع الدعوات المنحرفة التي لا تمس أصل العقيدة ولكنها تخلق شكا في النفوس وبلبلة في الضمائر، وبالنسبة لحماية العقل منع المدمنين من الشرب العلني للخمر وبيعها في أوساط المسلمين.

إذن فمن البَيّن أن المصالح متفاوتة من حيث قواعدها الكلية. فالضروري منها مُقدَّم في الاعتبار على الحاجي، والكمالي متأخر عنهما).

وقد بحث الأصوليون في بيان التفاوت في الأحكام التكليفية بالنسبة للمصالح، ومن ذلك تقسيم عز الدين عبد السلام المصالح إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: مصلحة أوجبها الله تعالى لعباده وهي منقسمة إلى الفاضل والأفضل، والمتوسط بينهما. وأفضل المصالح ما كان شريفا في نفسه رافعا لأقبح المفاسد، جالبا لأرجح المصالح، وهذا القسم واجب الفعل.

والنوع الثاني: ما نَدَبَ الشارع عباده إصلاحا لهم، وأعلى رتب النَدْب دون أدنى رتب مصالح الواجب.

والنوع الثالث: مصالح المباح. ذلك أن المباح لا يخلو من مصلحة أو دفع مفسدة، وتتميز مصالح المباح بأنها عاجلة بعضها أنفع وأكبر من بعض... ولا أجر عليها.

وإذا كانت المصالح هي مقصد الأحكام التكليفية يلاحظ أن تكون مصلحة الفرد لها اعتبارها ولا تترك إلا إذا كانت معارضة لمصلحة مُعتَبرة، ولهذا فقاعدة الضرورات تبيح المحظورات مقيدة بعدم المساس بحق الغير وبقيود أخرى مثل ارتكاب أخف الضَرَرَيْن.

ويلاحظ أن الإسلام في تكاليفه يأمر الناس بما يستطيعون القيام به حتى تستمر تعاليمه دونما مشقة أو حرج، ولهذا رفع الله الحرج بالرفض حتى يمكن الاستمرار ﴿**وما جعَل عليكم في الدين من حرج**﴾، ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾. وقد وردت أحاديث كثيرة في موضوع التيسير وتجنب التعسير، ومن بين هذه الأحاديث :

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه».

وقوله صلى الله عليه وسلم: «لن يشادّ أحد هذا الدين إلا غلَبه، ولكن سدّدوا وقاربوا».

ومن هذا المنظور للمصالح ومقاصد الشريعة الإسلامية استمد فقهاء المسلمين قواعد كلية لتحقيق هذه المصالح وتيسير أسباب الطاعة وسبلها، ومن هذه الكليات: الضرر يُزال، الضرر الخاص يحتمل في سبيل دفع الضرر العام؛ دفع الضرر مُقدَّم على جلب المنفعة، المشقة تجلب التيسير. ولهذا تكون معرفة

مقاصد الشريعة ضرورية للاجتهاد في الأحكام الشرعية.

القسم الثاني: الاجتهاد ودوره في مواكبة المستجدات

أولا: التعريف بالاجتهاد والمجتهد

إن الاجتهاد في اللغة هو استفراغ الوسع لتحقيق أمر من الأمور مُستلزم للكلفة والمشقة. وفي اصطلاح أصول الفقه «هو بذل الفقيه وسُعَه لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية».

والمجتهد هو الفقيه المستفرغ وسعه في تحصيل الحكم الشرعي، ولا يكون الفقيه مجتهدا لمجرد الدعوى أو الهوى وإنما يجب أن تتوفر فيه شروط لابد منها ليصل إلى درجة الاجتهاد وهذه الشروط هي كالآتي :

1) البلوغ والعقل

فيشترط في المجتهد المفتي في الأحكام الشرعية أن يكون بالغا عاقلا لأن الصبي وإن بلغ رتبة الاجتهاد وتيسّر عليه إدراك الأحكام، إلا أنه لا ثقة بنظره فلابد من بلوغه حتى يعتمد قوله كما لا يعتد باجتهاد المجنون لأنه ليس له تمييز يهتدي به الصواب.

2) العدالة

كما يشترط في المجتهد أن يكون عدلا ثقة، إذن فالفاسق لا يُعْتَدُّ باجتهاده وإن أدرك الأحكام وعرف طرق الاستنباط.

3) فقه النفس

وهو الذي يصير الفقه سَجِيَّةً ملازمة له، يستطيع بواسطتها استنباط الأحكام وإدراكها.

4) العلم بالقرآن

ويشترط في المجتهد أيضا أن يكون عالما بالقرآن لأنه هو عمود هذه الشريعة ومصدرها وأصل الأحكام كلها وأساس معرفة الحلال والحرام. ولا يكفي المجتهد أن يعرف من القرآن لغته ومعناه الإجمالي فحسب بل يجب عليه أن يحصل لنفسه علما حقيقيا يستطيع بواسطته تصَوُّرَ وتـذَكُّرَ آيات الأحكام.

وليس المراد أن يكون المجتهد حافظا لهذه الآيات بل المراد أن يكون عارفا بمواقعها ليرجع إليها عند الحاجة. وعدد هذه الآيات كما قال الغزالي وابن العربي هو خمسمائة، وذلك إذا كان المراد بالآيات التي تدل على الأحكام دلالة صريحة، وإلا فالآيات القرآنية التي يمكن استنباط الأحكام منها هي أكثر بكثير. ونظرة سريعة في كتب المفسرين المتبحرين تجعل الإنسان يكتشف العجب العجاب مما يحتويه القرآن.

ومن جملة ما يجب على المجتهد معرفته من القرآن :

أ ـ **الناسخ والمنسوخ:** فيعرف الآيات المنسوخة حتى لا يعمل بها والآيات الناسخة حتى يمكنه استنباط الأحكام منها.

ب ـ **العام والخاص:** فيعرف الآيات العامة والآيات الخاصة. والعامة التي دخلها الخصوص، والعامة المراد بها الخصوص، ليحمل العام على الخاص بالشروط اللازمة لذلك.

ج ـ **المطلق والمقيّد:** إذ عليه أن يعرف الآيات المطلقة والمقيّدة ليتمكن من حمل المطلق على المقيّد عند قيام دواعيه أو يبقي كلا منهما على ما هو عليه عند

عدم الدواعي.

د ـ أسباب النزول: وعلى المجتهد أيضا أن يكون على دراية بأسباب نزول القرآن إذ بذلك يتضح المراد من الآية ويقطع بدخول صورة السبب في الحكم ويمتنع تخصيصها.

5) العلم بالسنة

وعلى المجتهد أيضا أن يعرف من السنة مثل ما يعرف من القرآن، ويكفيه الرجوع إلى الرجال المشهورين في هذا الفن ومصنفاتهم فيه، فيرجع إلى الأمهات السّت وهي البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة وغير ذلك من السنن والجوامع والمصنفات والمسانيد، كسُنن البيهقي والدارقطني وغيرهما. ولا يكفي المجتهد الاقتصار على سنن أبي داود أو الصحيحين فقط، لأن هذه الكتب وإن جمعت كثيرا من الأحاديث المتعلقة بالأحكام إلا أنها لم تستوعب كل الأحكام. وليس المراد بمعرفة السنة حفظ أحاديثها عن ظهر قلب بل المقصود الإشراف عليها والاطلاع على مراجعها.

ومما يجب على المجتهد معرفته في السنة ما يلي :

أ ـ الصحيح والضعيف: إذ يجب عليه أن يعرف الحديث الصحيح من الضعيف ليقدم الأول على الثاني وينزل كل حديث منزلته.

ب ـ التاريخ والرجال: ويجب أن يعرف ما تمس الحاجة إليه من تاريخ وأحوال الرجال والرواة ليتوصل به إلى معرفة الصحيح من الضعيف والمقبول من المردود.

ج ـ أسباب الجرح والتعديل: ومن واجبه أيضا معرفة أسباب الجرح وأنواعه ومتى يقدم على التعديل حتى تتم له معرفة الصحيح من السقيم.

6) معرفة وسائل الإجماع

ويجب على المجتهد أن يكون عارفا بمسائل الإجماع حتى لا يفتي بخلافه ولا يكون خارقا له. ومواضع الإجماع هي أصول الفرائض وأصول المواريث والمحرمات التي جاء بها القرآن وجاءت بها السنة. ويجب على المجتهد أيضا أن يكون على بينة من اختلاف الفقهاء ويقارن بين الآراء فيعرف الصحيح وغير الصحيح، والقريب من الكتاب والسنة والبعيد عنها.

7) معرفة أصول الفقه

ويجب عليه أن يكون عارفا بأصول الفقه وكيف تمكن علماؤه من نصب الأدلة على مدلولاتها، ويتقي مباحث القياس وشرائطه المعتبرة وشرائط العلة الصحيحة ومسالكها وقواعدها ليسلم قياسه وتصح أحكامه.

8) معرفة اللغة العربية

كما يجب عليه أن يكون على علم باللغة العربية، لأن القرآن مصدر هذه الشريعة نزل بكتاب عربي والسنة كذلك. وقد حدد الغزالي القَدْر الذي تجب معرفته في العربية للمجتهد: «إنه القدر الذي يفهم به خطاب العرب وعاداتهم في الاستعمال حتى نميز بين صريح الكلام وظاهره، ومجمله، وحقيقته ومجازه وعامّه وخاصّه ومحكمه ومتشابهه، ومُطلقه ومقيده ونصّهِ وفحواه، ولحنه ومفهومِه».

ثانيا: مواكبة الاجتهاد للمستجدات

من الملاحظ أن المجتمع الإسلامي منذ العصر النبوي حتى الآن يعرف، ولايزال، تطورا متلاحقا ومستمرا كما يعرف تجديدا مذهلا في نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولاشك أن

النصوص التشريعية الأولى كانت ملبية لحاجات عصرها ومجتمعها، إلا أنها كانت كذلك تحتوي على المبادئ العامة لبناء المجتمع الإسلامي على مر الحقب والقرون، ومن هنا بدت ضرورة الاجتهاد مما أدى إلى ظهور مدارس ومذاهب فقهية يتميز بعضها عن بعض بما سلكته من طرق وأدلة للاجتهاد، ومن هنا أيضا انطلق علم الأصول ليكون زاد المجتهدين ووسيلتهم لفهم مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرارها. ولذلك إذا توفرت للفقيه المسلم اليوم معرفة مقاصد الشريعة وشروط المجتهد أمكنه أن يجتهد ويدلي برأيه فيما يعرض عليه من مستجدات العصر مما لا يوجد فيه نص صريح من الكتاب والسنة ولا إجماع.

أما القول بإغلاق باب الاجتهاد فمتجاوز في عصر من أهم سماته التطور المتلاحق في كل مجالات الحياة. سيما وأن حكم الاجتهاد هو فرض عيْن على كل شخص قادر عليه متوفر على شروطه، وفرض كِفاية على الأمة الإسلامية جمعاء حيث تعد أطراً كفاة ومؤهلة تأهيلا علميا رفيعا يخول لها ممارسة الاجتهاد. وقد قامت المعاهد الإسلامية الكبرى في شرق العالم الإسلامي وغربه بإعداد العلماء المبرزين في علوم الشريعة الذين أمكنهم القيام بهذا الدور خير قيام. كما وأنشئت مؤسسات قطرية وأخرى على صعيد العالم الإسلامي للقيام بالبحوث الإسلامية والاجتهاد في النوازل التي لم يسبق لعلمائنا الأولين أن ادلوا برأيهم فيها.

والمجتهد كإنسان قد يصيب وقد يخطئ، فإن اجتهد وأصاب فله أجران، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد كما جاء في الأثر. وهذا دليل على تشجيع حركة الاجتهاد في العالم الإسلامي.

وقد يختلف المجتهدون في بعض الأحكام الشرعية العملية اختلافا بيناً، فهل يُعتبر كل من الرأيين صوابا أو أن أحدهما صواب وثانيهما خطأ؟ اتخذ العلماء موقفين متعارضين: الأول يقول: إذا اتفق رأي المجتهد مع حكم الله تعالى في النازلة فهو مصيب وإذا لم يتفق مع حكم الله كان مخطئا والثاني يرى أن كِلاَ الرأيين صواب.

وعلى أي حال، فلمواكبة الاجتهاد لمستجدّات العصر لابد من التيقن من توافر شروطه لدى علمائنا المعاصرين، وهذا ما أكّده الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر سابقا بالنسبة لبعض معاصريه إذ قال: «إن معظَم الشروط تشتمل عليها ثلاثة فنون: الحديث، واللغة، وأصول الفقه. وقد جمع العلماء آيات الأحكام في غير ما كتاب، وجمعوا أحاديث الأحكام في غير ما كتاب، وجمعوا الناسخ والمنسوخ في غير ما كتاب، وأصبحت الأحكام مُدَوّنة في كتب الفقه وفي شروح الحديث وكتب التفسير إلى أن قال: ليس الاجتهاد ممكنا عقلا فقط، بل هو ممكن عادة، وطرقه أيسر مما كانت في الأزمنة الماضية، أيام كان يرحل المحدث إلى قطر آخر لرواية حديث، وأيام كان يرحل الرواة لرواية بيت من الشعر أو كلمة من كلمات اللغة. وقد توافرت مواد البحث في كل فرع من فروع العلوم: في التفسير، والحديث، والفقه، واللغة والنحو، والمنطق، وجُمع الحديث كله ومُيِّز صحيحه من فاسده وأصبحت هذه الفنون تضمها مكاتب للأفراد والحكومات في كل قطر من الأقطار الإسلامية. وهذا لم يكن ميسورا لأحد في العصور الأولى: ومذاهب الفقهاء جميعهم مدونة، وأدلتها معروفة. ويؤكد ذلك بقوله: «إن الزمن لم يغير خِلْقَة الإنسان، فالعقول لم

تضمر والطبيعة باقية في الإنسان كما كانت في العصور الماضية، وهاهم علماء الأمم يحدوهم الأمل إلى بلوغ أقصى ما يتصوره العقل البشري ويصلون إليه بجهدهم واجتهادهم ويصرح بعد ذلك: «بأن في علماء المعاهد الدينية في مصر من توافرت فيهم شروط الاجتهاد ويحرم عليهم التقليد».

كما أن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر أكد في قرار مؤتمره الأول المنعقد بالقاهرة بتاريخ مارس 1964 على ما يلي: «إن الكتاب الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للأحكام الشرعية، وإن الاجتهاد لاستنباط الأحكام منهما حق لكل من استكمل شروط الاجتهاد المقرَّرة، وإن السبيل لمراعاة المصالح ومواجهة الحوادث المتجددة هي أن يتخير من أحكام المذاهب الفقهية ما يفي بذلك، فإن لم يكن في أحكامها ما يفي به كان الاجتهاد الجماعي المذهبي، فإن لم يَفِ كان الاجتهاد الجماعي المطلق وينظم المجمع وسائل الوصول إلى الاجتهاد الجماعي بنوعيه ليوخذ به عند الحاجة».

ويرى الدكتور زكريا أن تنظيم الاجتهاد الجماعي في العصر الحاضر يتطلب ما يلي :

1) أن يكون أمر تحديد الشروط التي يجب تحققها في المجتهدين واختيارهم من أهل الذكر والاختصاص والعلم والصلاح، موكولا للدولة وولي الأمر مع العناية والدقة والتحرر في هذا الاختيار.

2) أن يكون بجانب المجتهدين مستشارون وخبراء من علوم الحياة وفنونها للرجوع إليهم في حدود اختصاصهم إذا اقتضى الأمر ذلك.

3) أن تقوم بذلك كل دولة إسلامية على انفراد، أو مجموعة من الدول تيسر تعاونها واجتماعها، في انتظار جمع شمل الأمة الإسلامية.

4) أن يؤخذ عند اختلاف آراء المجتهدين برأي الأكثرية لأنه الأقرب إلى الصواب.

5) أن يأمر الحاكم الأعلى باتخاذ إجراءات تنفيذ هذا الرأي في المسائل الاجتماعية العامة حتى تكون له الصفة القانونية الملزمة، لأنه من المقرر في الشريعة الإسلامية أن حكم الحاكم تشريعا أو قضاء يرفع الخلاف بين العلماء.

والخلاصة أن الفقيه إذا توفر له فهْمُ مقاصد الشريعة الإسلامية والمصالح التي تهدف إلى تحقيقها، وتوفرت فيه شروط المجتهد كما تطرق إليها علماء أصول الفقه، ونال ثقة الجماعة الإسلامية التي ينتمي إليها. أصبح مجتهدا وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمامه، وبذلك يصبح دور الاجتهاد هو مواكبة المستجدات وملاحقة ما يعرفه المسلمون من تطورات في ميادين الاقتصاد والسياسة والاجتماع وشؤونهم العامة والخاصة. والله الموفِّق للصواب.

محمد حمود

متى يتقاعد الشاعر

د/ستاذ أحمد عبد السلام البقالي

يمكن أن تقدم لأصدقائك وزيرا على أنه وزير سابق. وكذلك البطل الرياضي، ورئيس الشركة المتقاعد؛ ولكن هل جربت قط أن تقدم لصديقٍ شاعراً على أنه شاعر سابق؟ اللهم إلا إذا أردت أن تكون هدفاً لقصيدة هجاء عصماء لاذعة ورادعة! وكأنك قلت عنه: إنه «إنسان سابق!». في الحضارة الغربية عموما، والأمريكية التي تطبعها السرعة والتغير، على الخصوص نجد أن الشاعر، والمطرب، والممثل إذا اختفى إنتاجهم أسبوعاً واحداً فقط، أو لم يظهروا للناس على شاشة التلفزيون أو السينما، فإنهم غالبا ما تلحق بأسمائهم كلمة «سابق».

****

ملكة الشعر تتكون من عنصرين أساسيين: الموهبة والطاقة. ولا غنى لإحداهما عن الأخرى.

الموهبة: هي القدرة الفنية، والحاسة الموسيقية التي تجعل الشاعر يميّز بين ما هو شعر، وما هو مجرد كلام، وهي مهارة الشاعر في ضبط الإيقاع، واصطياد المعاني الجميلة، وسبكها في أسلوب رشيق يحرك حواس الطرب والانفعال عند الناس.

والطاقة: هي القوة العاطفية التي تحرك جهاز الموهبة، وتعطيه الحرارة التي ترفع إنتاجه عن مستوى الكلام العادي، وهي طاقة كسائر الطاقات البشرية الأخرى. فهناك الطاقة العضلية التي تجعل من الفرد رياضيا، والطاقة الغرامية أو (الليبيدو)، التي تدفع الناس، بقوة غريزية، إلى الحب والزواج، والمحافظة على النوع، وهناك الطاقة الفكرية التي تجعل من الشخص مفكرا أو فيلسوفا.

وإذ كانت الشاعرية طاقة كسائر الطاقات، فلابد أن تنضب يوما، ويخمد أوارها، كما يخمد أوار بطارية الراديو، فيسكت عن التغريد.

وتكون طاقة الشاعرية في عنفوانها في ميعة الشباب، وما تزال تستهلك مع الأيام حتى تقل حرارتها في الكهولة، وينضب معينها تماما في سن الشيخوخة وهذه حكمة الله، وحتمية نواميس من الطبيعة.

وحين تشرف الطاقة الشعرية على النضوب، يظهر ذلك واضحا في شعر الشاعر، وخصوصا الغزلي منه، فيصبح صناعيا، متكلفا لا حرارة فيه ولا صدق، ولا مصداقية لقائله، حتى ولو بقيت له الموهبة الشعرية كاملة غير منقوصة. ويصبح الشاعر كالمغني العجوز في الأعراس المحلية، يردد أغاني العشق والهيام، بصوت أنهكه الزمان، وهو يفتعل الانفعال، ويحاول التعبير بملامح وجهه المتعب عن اللوعة ووجد الغرام، فيصير هدفاً لتندر الصبايا والحسان. والأدهى من ذلك، أنه يفسر تغامزهن عليه، إعجابا بفنه، ووقوعا في حبائله!

ورغم أن شعر الشباب قد تنقحه تقنية الصناعة، ومهارة التمرس، فإنه يعوض عنهما بحرارته وصدقه، ودخوله المباشر إلى القلوب. استمع إلى هذه البدوية المحترقة غراما، وهي تبيع كبدها المقروح للحجيج بمكة:

ولي كبد مقروحة من يبيعني

بها كبدا ليست بذات قروح؟

أباها عليَّ الناسُ لا يشترونها

ومن يشتري ذا علة بصحيح؟

فرغم أن البيتين خاليان من كل تحليق في الخيال، أو رشاقة في العبارة، فإنهما يحتويان على شحنة عاطفية صادقة تحرك الوجدان.

ومثلها قول الشاعر البدوي:

سل المفتي المكي هل في تزاور

وضمة مشتاق الفؤاد جناح؟

فقال:

معاذ الله أن يخرق التقى

تلاصق أكباد بهن جراح

وقول العاشق العباسي الذي وقع في غرام جارية في سوق (بغداد)، فتبعها إلى أن دخلت قصر الخليفة، فأخذ يدور بالقصر وينشد:

يا مشرع الماء قد سدت موارده

أما إليك سبيل غير مسدود

لحائم حام، حتى لا حراك به

مشرد عن طريق الماء مطرود

وغنى العاشق أبياته هذه حتى سمع به الخليفة فأرسل في طلبه. وحين سمع قصته رثى لحاله وأهداه الجارية.

ومثلها قول الشاعر:

وإني لتعروني لذكراك هزة

كما انتفض العصفور بلله القطر

وقول (قيس بن الملوح) في ليلاه:

وشاب بنو ليلى، وشب ابن بنتها

وحرقة ليل في الفؤاد كما هيا!

وإن كنت لا أعتقد أن قيسا قال هذا البيت في شيخوخته، فهو يلتهب بحرقة الشباب. وأظنه قاله في صيغة الماضي وهو يعني المستقبل، مبالغة في اليأس والأسى.

* * * *

وإذا طبقنا هذه النظرية على شعرائنا الأحياء، فلن نجدهم يشذون كثيرا عن القاعدة. فإذا قارنا غزليات (نزار قباني) القديمة بالتي نظمها في كهولته، نجد الفرق واضحا، فالمتأخرة، رغم رشاقة عباراتها، وجدة معانيها، وبعدها عن المستنسخات المستهلَكة، لا حرارة فيها ولا كهرباء!

وحتى الأشعار الوطنية الحماسية مثل قصيدته الأخيرة، والجميلة عن (أطفال الحجارة)، لا ترقى إلى وطنياته النارية السابقة.

وقد قل شعر (عبد الوهاب البياتي) مؤخرا كتعبير عن خمود الجذوة التي كانت تنضجه. وكذلك الشاعر الرقيق (أحمد عبد المعطي حجازي).

وكلاهما ملأ الدنيا في شبابه، وشغل الناس. وقد حول (حجازي) طاقته إلى البحث والتنظير في الشعر بنجاح كبير، وأفلت من لعنة مطاردة الشهرة، والتعلق بشمس الشعر الغاربة.

أما (أدونيس)، فهو حالة خاصة في التشبث بالشباب، وبالزعامة الشعرية بأي ثمن! فقد انفصل عن رعيله، وركب موجة الحداثة المستوردة من (فرنسا)، دون أرضية عربية ترتكز عليها، فانتهت به وبأتباعه إلى درب مسدود. واختار التنازل عن شروط الشعر الصعبة، بما فيها الموهبة، في مقابل الشعبية بين الناشئين الذين تقف أدنى قواعد الشعر، بما فيها الإيقاع، سدّاً منيعا بينهم وبينه.

وقد صدر (لأدونيس)، هذه السنة، ديوان جديد (بالمغرب)، يكفيك عنوانه لتعرف ما وصل إليه الشعر على يد هذا الشاعر الفحل (سابقا) من تردّي. فإذا كنت مستعدا لسماعه، فها هو: «شهوة تتقدّم في خرائط المادة»!! وإذا كنت قد تماثلت من الصدمة، فإليك بعض أبيات الديوان، واصبر معي، لوجه الله، وفي سبيل المعرفة، ولن أبحث عن أضعف ما في الديوان، كما يفعل المغرضون، ولكني سأقرأ لك أول قصيدة. وكلمة «قصيدة» هنا موقتة في انتظار مصطلح أنسب! إسمع إذن:

حدث هكذا ـ /سكاكين تنزل من السماء/ الجسد يركض إلى الأمام، والروح تتجرجر وراءه. «إنتهى».

هذا هو المقطع الأول من القصيدة. ووالله ما أنا هازل! فهل أزيدك؟ إليك المقطع الثاني:

«حدث هكذا ـ / مطارق حدادين يعملون داخل الجمجمة / خرس، وانقراض سلالات: الكتابة حمض ايديولوجي، والكتب زيزفوليات» إنتهى.

وأرجوك ألا تنزعج، فلن أزيدك!

مثل هذه الحالات الداعية إلى الرثاء، تطرح سؤالا ملحا، هو : «ماذا على الشاعر أن يفعل حين تنفد طاقته، وتخمد حرارته؟ هل يستمر في الكذب على نفسه، وانتظار الإلهام الذي لا يأتي، ويعيش معذبا في ظل شهرته الغاربة، يجتر ماضيه، ويكتب أشباح قصائد لا روح فيها ولا دفء، أو يعلن إحالة نفسه على المعاش، ويتقاعد؟

وماذا يكون سلوك جمهوره إزاءه؟ هل يستمر في مجاملته، وإيهامه بأنه ما يزال الفحل الذي لا يشق له غبار، أم يكون صادقا معه، فيقيم له حفل تكريم، يخطب فيه الخطباء، وينشد الشعراء كل ما يمكن أن يقال في تأبينه، ثم يقدمون له ساعة وقلما، الساعة ليتنبه إلى أن ساعة سكوته قد أزفت، والقلم ليبدأ في كتابة مذكراته.

الرباط ـ أحمد عبد السلام البقالي

اشهدْ يا غُشت

للشاعر عبدالله سُليماني

إمتطي قمة الشموخ إباء ... واحملي مشعل الفخار لواء
واملئي مسمع الزمان نشيدا ... يا بلادي فقد بلغت الرجاء
فلكم أنجبت الألى ملاوا التا ... ريخ مجدًا وشرَّفوا الأسماء
كتبوا أروع الملاحم نورا ... وأقاموا حضارة زهراء
حملوا راية البطولة جيلا ... بعد جيل مسترخصين الدماء
وهبوا دونك الحياة وهبوا ... ـ كلما واجبٌ دعا ـ كرماء
عرفتهم فدائيين فرنسا ... يوم ثاروا فعلموها الفداء
عرفتهم مثل البراكين ناراً ... يوم داست حقوقهم عمياء
عرفت فيهمو ابنَ يوسف شهما ... إذ تصدى يسفه السفهاء
عرفتهم أباة ضيم يجودو ... ن بأزكى دمائهم نبلاء
ما استطابوا الحياة حتى استعادوا ... بالبطولات عزهم كرماء

* * * *

بوركت أمة تُعانق عرشا ... افتداها، فبادلته الفداء
بوركت حرة مدينة «زيري» ... أعلنتها انتفاضة حمراء

بـوركت ثـورة بـوجـدة كـانـت ... نـور فجـر ـ رغم العـدى ـ وسَـنـاء
أذن اللـه أن تكـون انطـلاقـا ... وطـريقـا إلى الفـدا غـراء
جلجلت صيحـة الفـدا فـاستجبنـا ... نهب الـروح للبـلاد فـداء
فـاشهـد يـا غشت،فـالإلـه شهيـد، ... كيف ثُرْنا عـرشـا وشعبـا سـواء
كيف خضنـا النضـال حتى انتصرنـا ... وانتـزعنـا الحريـة الحمـراء
حمل المشعـل «ابـن يـوسـف» شهما ... واندفعنـا من حـولـه بُسَلاء
كم تـوالـت عـروضهـم مغـريـات ... فـأبى شهمـاً منهمـو الإغـراء
صـاح فيهم: واللـه لـو قـد فـرشتم ... لـي تبـرا بجنـة خضـراء
لـو وضعتـم خـزائن الأرض مـلأى ... بيميني مـع السماء ثـراء
لـو منعتـم ـ إذا أردتـم ـ طعـامي ... وشرابي ـ وإن قـدرتـم ـ هـواء
مـا تخليت لحظـة عن عهـودي ... لست راضيـا بقـاءكم دخـلاء
لست راضيـاً نعيـم ملـك وأنتـم ... ببـلادي تستنـزفـون الـدمـاء
لست راضيـاً مستعمـرين استحلـوا ... حـرمـات وحكمـوا الأهـواء
سلبـوا الأرض أهلهـا، مـزقـوهـا ... واسترقـوا أحـرارهـا سجنـاء
فـرقـوا الشعـب في طـوائف شتـى ... كـي يسـودوا، واستـوزروا العمـلاء
مـوتـة الحر في الكـرامـة أحلى ... مـن حيـاة ذليلـة نـكْراء

* * * *

فقـدوا الـرشـد والصـواب وجنـوا ... واستطـالُوا على الحمـى سفهـاء
أقـدمـوا ـ ويلهـم على رمـز شعـب ... واستحلـوا الجريمـة الشنعـاء
افتـدى الشعـب والبـلاد مليـك ... وتهيـا لثـورة عصماء
لقـي البـؤس والقسـاوة لكـن ... كـان أقـوى صـلابـة ومضـاء
«مـدغشقـر» «كـوريـا» والمنـافي ... شـاهـدات تـردد الأصـداء
كـان فيهـا منـاضـلا وإمـامـا ... كـان فيهـا «محمـداً» بحـراء

يعبد الله صابراً لا يبالي ... في رضى الله والبلاد العناء
فانتفضنا وراءه كأُسود ... ولبسنا لما نَروم الرداء
فإذا الثورة المجيدة تغشى ... كل بيت وتملأ الأرجاء
وخلايا الفداء رعب وهول ... وسلام يباغت الأعداء
نسترد المجد السليب وإلا ... فلنمت دون مجدنا شهداء
بارك الله عزمنا فانتصرنا ... وانتزعنا الحرية الحمراء
يوم عاد المليك شامخَ رأسٍ ... حاملا في بديه ذاك الرجاء
لم يزَل سائرا على الدرب حتى ... لقي الله راضيا كيف شاء
لم يزل في ضمائر الشعب روحا ... حرة تغمر النفوس مضاء
فسلام على «أبي يوسف» لما ... ثار حيا ويوم مات فداء
وسلام على الثوار شبابا ... وكهولا وفتية ونساء
وليبارك إله كل البرايا ... وارثَ السر، ولْيُدِمْه رجاء
حسن المجد من به قد بلغنا ... كل مجد، وحرر الصحراء

البيضاء ـ عبد الله سليماني

ذكرى عيد الشباب

تأهب للعمل باستمرار

للأستاذ عبد السلام حيران المسفيوي
رئيس المجلس العلمي الإقليمي بمراكش

إن ذكرى عيد الشباب لؤلؤة وضاءة بين الأعياد الوطنية في جبين تاريخ الشعب المغربي وتاريخه الحافل بالأمجاد، وهي ذكرى تحل كل عام في التاسع من يوليوز حلول يمن وإسعاد، فنعتز بها كامل الاعتزاز في سائر أنحاء البلاد، لها أعلى المكانة في قلوب الجماعات والأفراد، وتغمر فيها الشعب المغربي من أقصاه إلى أقصاه أنواع المسرات والأفراح، لأنها أشرقت فيها على دنيا الوجود طلعة أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره وخلد في الصالحات ذكره، فنشأ وقد طبعه الله على أنبل الخصال وجليل الأعمال في شتى المجالات في مختلف المستويات وفي سائر الجهات، فكانت ذكرى تستوجب التقدير والإعظام على مدى مرور الأيام، لأنها تذكرنا بأعمال الشباب على اختلاف ميادينها، لأن الشباب عماد التقدم الحضاري والفكري ورمز الأمل وعنوان الشجاعة، ودرع الأمة الواقي وحصنها الحصين وسندها في إطراد نموها، وقلبها النابض بالحيوية، ولسانها المعبر، وعقلها المفكر في كثير من الأشياء.

وعلى سواعد الشباب بَنَتْ وتبني صروح المجد والعزة وفتحت الحصون، فهو الذي صنعَ التاريخ الحافل بالمآثر، فتسعد البلاد بأعمال الشباب في يومها وفي غدها كما هو في أمسها، ويعقد تحقيق جل الآمال على الشباب المستضيء بنور الإيمان، لأن النبي -ﷺ- قال: «المومن القوي خير من المومن الضعيف» وقال أبو العتاهية في شعره :

وهل يستوي الرِّجلان، رِجْل صحيحة
ورجل رمى بها الزمان فشلت

وقال حَبْر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (الخير كله في الشباب، وروائح الجنة في الشباب).

ونوه القرآن الكريم بالشباب فقال: ﴿**إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا...**﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى...**﴾ الآية.

ومن الطبيعي أن الأجيال تغذي بعضها بعضا. وإذا أجلنا النظر في أدوار التاريخ المجيد نجد في

تأسيس الدول وتحقيق المكاسب العظيمة الخالدة، الشباب هم روادها وطلائعها منذ زمن الرسول ﷺ لأن أول معركة وهي معركة بدر التي كان فيها أعظم انتصار للإسلام والمسلمين كان الشباب من الصحابة يتسابقون فيها إلى مواضع الجهاد ومواقع النضال بتنافس كبير حتى رد ﷺ جماعة منهم شفقة عليهم لصغر سنهم، ولما قبل ﷺ رافع بن خديج لحسن رمايته جاء زميله في السن سمرة بن جندُب محتجا فقال: كيف أرد من المعركة ويقبل رافع، وأنا أصرعه. ولما علم الرسول ﷺ بمقالته أمر برده وجعلهما يتصارعان، فتغلب سمرة على رافع فقبلهما الرسول معا. وكان كل واحد من شباب الصحابة يتمنى أن يموت منتصرا أو مستشهدا، ولا يحب أن يموت على فراشه ويحمل على نعشه بدون فائدة.

وها هو الشاب البطل «أسامة بن زيد» ولاه رسول الله ﷺ قيادة الجيش في أخريات حياته وفي الجيش كهول وشيوخ، ولكن ولاه لكفاءته. ولما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى أراد بعض المسلمين أن يعوض بواحد من الكبار فقال أبو بكر (ض) والله لا أحبس جيشا أعده رسول الله ﷺ ولا أغير قائدا عينه، فتقدم أسامة قائد الجيش ممتطيا متن جواده وخرج خليفة رسول الله يودعه ماشيا.

وإذا رجعنا إلى تاريخ المغرب العريق المجيد نجد الصانعين له من الشباب المسلم الناهض، المولى إدريس بن ادريس كان شابا طموحا، كون الدولة المغربية الإسلامية: كما كون دولة المرابطين شاب عالم ومجاهد «عبد الله بن ياسين»، ودولة الموحدين شاب نابغة «المهدي بن تومرت» وهكذا دواليك عبر سلسلة التاريخ. وسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه خير ممثل للشباب المسلم، أمين في شبابه، وصادق في إيمانه، وممتاز في بطولته، ومدقق محقق في عمله. قال فيه ابن الخطيب في رقم الحلل في نظم الدول.

عليا علي وابن عم المصطفى
ليس لها في العالمين من خفاء

فعلى شبابنا اليوم أن يجعلوه قدوة في شؤونهم عقيدة، وسلوكا، ومعاملة ليصبحوا عناصر البناء والأمانة، ودعائم العمل والمسؤولية عن جدارة واستحقاق.

كما عليهم أن يتخلقوا بأخلاق الإسلام، ويتأدبوا بآدابه، فيجمعوا بين المطالب الروحية وبين المطالب الجسمية، وبين الأصالة والمعاصرة، وعليهم أن يبحثوا في أسرار التشريع الإسلامي حتى يتذوقوا حلاوة الإيمان الذي يطرد معه كل نجاح، ويكون لهم حصنا حصينا من التيارات الجارفة والمغريات المردية التي تتجاذبه من كل جانب، كما عليهم قبل كل شيء أن يبتعدوا من عبادة غير الله عزوجل، ويتجهوا إلى خالقهم بألسنتهم وقلوبهم وسائر جوارحهم في كل ما أراد الله، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومن المأثور لا تعودوا أبناءكم على طباعكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم. والشاب العاقل يرى وقته من ذهب إن لم يحرص على إنفاقه فيما ينفع ذهب. من هنا قال ﷺ «اغتنم خمسا قبل خمس، شبابك قبل شيبك.....» إلخ الحديث.

وشيبها ورجالها ونسائها، جلالة الملك الحسن الثاني أبد الله ملكه وخلد في الصالحات ذكره، قرير العين وصنوه السعيد مولاي رشيد وسائر أفراد أسرته النبيلة. إنه سميع مجيب. والحمد لله بدءا وختاماً.

مراكش ـ عبد السلام جبران المسفيوي

إطلالة على التصوف المغربي وتاريخه

الأستاذ محمد علي بن الصديق

في إطار جهود وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المحمودة في نشر وتدعيم التراث الصوفي بالمغرب، وعلى هامش: ندوة الطرق الصوفية بالمغرب «دورة الطريقة التيجانية» ارتأيت أن أساهم بهذا البحث المتواضع في التعريف بالتصوف عموما والتصوف المغربي خصوصا.

والحديث عن التصوف المغربي هو حديث طويل له ذيول كثيرة ونواح متعددة، والاستفاضة فيه تقتضي وقتا طويلا ومراجع كثيرة ودراسة حقب طويلة من تاريخ المغرب، والإلمام بتراجم شخصيات عديدة لا يكفي فيها بحث أو عرض كهذا، فضلا عن إعواز المراجع اللازمة لهذا البحث، وأكثرُها لايزال مخطوطا، وحتى المطبوع منها أصبح نادرا يعز الحصول عليه. ومع هذا وذاك وعملا بالقاعدة المعروفة «ما لا يدرك كله لا يترك كله» فإني آمل بحول الله أن أعطي نظرة موجزة ومصغرة عن الدور الذي لعبه التصوف المغربي في ميدان نشر العلم والمعرفة والدعوة إلى الله والتمسك بأخلاق الإسلام وآدابه، وبث روح المقاومة والجهاد ضد الاحتلال الأجنبي. وكيف اضطلع أهله بمهمة الدفاع عن البلاد حتى انحصرت فيهم في حقب من تاريخ المغرب. ومن ثم جاء هذا العنوان المقتضب إطلالة على التصوف المغربي وتاريخه.

ولعله من المفيد قبل الكلام عن التصوف في المغرب أن نُعرف بالتصوف وحقيقته وموضوعه.

1) التعريف بالتصوف وحقيقته وموضوعه:

إن العلماء اختلفوا كثيرا وطويلا في تعريف التصوف، وصعب على الباحثين وجود تعريف له ـ جامع مانع ـ كما يقول المناطقة. ذلك أن التصوف ليس مذهبا قائما على حدود ضيقة أو أصول أو قواعد محدودة، شأن المذاهب الفقهية والكلامية مثلا. ولا هو كذلك علم ذو حدود خاصة وموضوعات معينة، يمكن اكتسابه بمجرد الاطلاع عليها والإلمام بها. وإنما هو قبل كل شيء سلوك ومعاملة وزهد وعبادة، وعزوف عن الدنيا وإقبال على الله، وهو بالتالي ثمرة الإخلاص في العبادة والمجاهدة في الله ﴿والذين جاهدوا فينا

لنهدينَّهم سبلنا﴾(1) واستراوح إلى الخواطر الربانية والإشراقات النورانية.

والطرق إليه بهذا المعنى كثيرة ومتعددة، فأي طريق سلك بك هذه الغاية وتحققت معه ثمرة العبادة والمجاهدة قيل فيه تصوف. ولما كانت هذه الطرق لا تنحصر حتى قال بعضهم: «إن الطرق إلى الله على عدد أنفاس بني آدم». اختلفت أنظار الصوفية أنفسهم في تعريف التصوف وحقيقته، فعرف كل واحد منهم الطريق التي رأى أنها أقرب في الوصول إلى الله. وقد أوصل أبو نُعَيم في الحِلْية ما قيل في التصوف إلى ألف قول وتعريف. وأعقب كل ترجمة في كتابه بتعريف يناسب حال المترجم له وسلوكه، قائلا عقب كل ترجمة: «وقد قيل: التصوف كذا وكذا مما ينطبق على أحوال صاحبها».

وهذا الاختلاف في الواقع ليس اختلاف تضاد يوجب سقوطها من الاعتبار، وإنما هو اختلاف في حال، ودليل على شمول التصوف لكل ما قيل فيه، فهو إلى تعدد الأسماء أقرب، وذلك دليل على شرفه وأنه من السعة والشمول بحيث لا يحصره حد، ولا يجمعه تعريف. وهذا هو سر نسبة الصوفية إلى شعارهم الظاهر، وهو لبس الصوف دون نسبتهم إلى ما اختصوا به من الكلام عن الأحوال والمقامات والمجاهدات، وكان الأولى أن ينسبوا إليها. كما نُسِب الفقهاء إلى ما اختصوا به من الأحكام، والمحدِّثون إلى الحديث، والمؤرخون إلى التاريخ والأدباء إلى الأدب، وهكذا...».

وفي هذا المعنى يقول أبو نصر الطوسي(2) فإن سأل سائل فقال: «وقد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث والفقهاء إلى الفقه، فلِمَ قلتَ الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم، ولَمْ تضف إليهم حالا كما أضفت الزهد إلى الزهاد والتوكل إلى المتوكلين والصبر إلى الصابرين، فيقال له: لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون علم ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة سالفا ومستأنفا. وهم مع الله في الانتقال من حال إلى حال مستجلين للزيادة. فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين إسما دون إسم. فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالا دون حال، ولا أضفتهم إلى علم دون علم. لأني لو أضفت إليهم في كل وقت حالا، هو ما وجدت الأغلب عليهم من الأحوال، والأخلاق والأعمال، وسميتهم بذلك، لكان يلزم أن أسميهم في كل وقت باسم آخر. وكنت أضيف إليهم في كل وقت حالا دون حال حسبما يكون الأغلب عليهم. فلما لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر اللبسة وكان ذلك مجملا عاما، مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة، وهو كلام نفيس، ومع كل هذه الأقوال التي تبلغ الألف أو تزيد والتي يصعب تتبعها لا بأس بذكر بعضها كنموذج لما قيل في التصوف وعرف به، وللتأكد من أن الاختلاف إنما هو في أهم الأسس التي ينبني عليها التصوف ويقوم على ملاحظتها والتخلق بها، فعبر كل واحد عما رآه أولَى

---

(1) العنكبوت/69.

(2) اللُّمَع ص (40-41) ط دار الكتب الحديثة بمصر.

وأنسب أو أهم وأشمل. فمن هذه الأقوال والتعريفات:

- التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة.
- التصوف، الجد في السلوك إلى مَلِك الملوك
- التصوف، الموافقة للحق والمفارقة للخَلْق
- التصوف، ابتغاءُ الوسيلة إلى منتهى الفضيلة
- التصوف، حفظ الوفاء وترك الجفاء
- التصوف، ألا تملك شيئا ولا يملكك شيء
- التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده.
- التصوف..... إلخ.

أما الجُنَيد رحمة الله عليه، فعرفه بقوله(3): «التصوف تصفية القلوب عن موافقة البَرِيَّة ومفارقة الأخلاق الطبيعية. وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول ﷺ في الشريعة».

قال العم عبد الله بن الصديق:(4) «ولعل هذا التعريف من أشمل وأوفى ما عرف به التصوف، لأنه تضمن الأسس العامة التي بني عليها، ولا عجب فهو صادر عن الجنيد إمام الطائفة ورئيس الطريقة التي به عرفت وإليه تُنسَب».

ومهما قيل في حقيقة التصوف واختلف في تعريفه، فقد أصبح متميزا بمناهجه وطرقه وموضوعاته وأبحاثه وكتبه ورجالاته...

وكما اختلف العلماء في حقيقة التصوف وتعريفه اختلفوا في لفظة «الصوفي» وأصلها، فقيل: نسبة إلى الصف الأول لما كان شأن أصحابه التزام الصف الأول أي في الصلاة. وقيل إنها نسبة إلى الصِّفة أي الحميدة أو الصفاء، وأن الأصل فيها صفوي على القياس ثم عدل عنها إلى الصوفي تخفيفا، وقيل إنها نسبة إلى الصُّفَّة، وهي موضع مظلل في آخر المسجد النبوي كان يأوي إليه فقراء الصحابة والمنقطعون منهم للعبادة. وقيل إنها نسبة إلى رجل اسمه صوفة أو إلى كلمة «سوفيا» اليونانية بمعنى الحكمة. والأقرب إلى الاشتقاق والواقع أنها نسبة إلى الصوف لما كان الصوف هو اللباس الغالب عليهم لأنه يدل على الزهد والخشونة ولأنه كان لباس الأنبياء والصديقين وشعار المساكين، كما قاله غير واحد منهم.

والظاهر أن أول استعماله كلقب على الزهد والعبادة كان في القرن الثاني، ويقال: إن أول من أطلق عليه لقب صوفي هو أبو هاشم الكوفي المتوفى سنة 150هـ(5)

على أن الطوسي نقل عن الحسن البصري المتوفى سنة 110هـ أنه قال: «رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه. وقال: معي أربعة دوانيق، فيكفيني ما معي». بل نقل عن ابن إسحاق في أخبار مكة ما يفيد أن هذا اللفظ كان معروفا قبل الإسلام وأنهم كانوا يطلقونه على أهل الصلاح.(6)

2) التصوف من صميم الدين الإسلامي :

ومما تقدم يظهر لنا جليا، أن التصوف هو من

(3) حُسْن التلطف في وجوب سلوك طريق التصوف، لعبد الله بن الصديق ص 4 مطبعة السعادة مصر.

(4) نفس المصدر السابق.

(5) من محاضرة للوالد حول التصوف وموقف الزوايا من الاستعمار.

(6) نفس المصدر السابق.

صميم علوم الدين، وأنه غير دخيل كما يدعيه بعضهم. بل هو من مشمولات حديث جبريل ـ عليه السلام ـ الشهير الذي تضمن علوم الدين الثلاثة وهي: التوحيد والفقه والتصوف الذي هو شرح لمعنى الإحسان كما جاء في حديث جبريل الذي رواه مسلم في صحيحه:(7) قال: «فأخبرني عن الإحسان: قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...» إلى أن قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»، فسمى رسول الله ﷺ كلا من الإيمان الذي هو موضوع العقائد، والإسلام الذي هو موضوع الفقه والعبادات، والإحسان الذي هو موضوع التصوف دينا.

وحين أخذ المسلمون يشتغلون بالتأليف والتدوين، انشغلت طائفة منهم ببيان أركان الإيمان والعقيدة. فأُطلِق عليهم علماء التوحيد والكلام. وانشغلت طائفة أخرى ببيان أركان الإسلام وقواعده فسُمُّوا الفقهاء. بينما انشغلت أقوام ببيان مقام الإحسان والطرق الموصلة إليه، فلُقِّبوا بالصوفية، وهكذا يكون التصوف في أصله من صميم الدين وأحد علومه.

قال الطوسي:(8) «وجملة علوم الدين لا تخرج عن ثلاث: آيات من كتاب الله عزوجل، وخبر عن رسول الله ﷺ وحكمة مستنبطة خطرت على قلب ولي من أولياء الله. وأصل ذلك حديث الإيمان حيث سأل جبريل النبي ﷺ عن أصول ثلاث: عن الإيمان والإسلام والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وصدَّقه على ذلك جبريل ثم قال: والعلم مقرون بالعمل، والعمل مقرون بالإخلاص، والإخلاص أن يريد العبد بعلمه وعمله وجه الله. وهؤلاء الأصناف الثلاثة في العلم والعمل متفاوتون في مقاصدهم، وفي درجاتهم متفاضلون... إلى أن قال: فكل من أشكل عليه أصل من أصول الدين وفروعه وحقائقه وحدوده وأحكامه ظاهراً أو باطناً فلابد له من الرجوع إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة: أصحاب الحديث والفقهاء والصوفية. وفي هذا المعنى قال الجد رحمه الله(9) في جواب له عن أول من أسس طريق التصوف: «وأما أول من أسس الطريقة وهل كان تأسيسها بوحي؟ فاعلم أن الطريقة أسسها الوحي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلاشك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعدما بينها واحدا واحدا، دينا، فقال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان.

فالدين كما في الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بمقام الإحسان الذي هو الطريقة فدينه ناقص بلاشك لتركه ركنا من أركانه. ولهذا نص المحققون على وجوب اتِّباع طريق التصوف وجوبا عينيا. واستدلوا على ذلك بما هو ظاهر عقلا ونقلا... إلى أن قال في جواب هل كان الصحابة صوفية؟ جواب هذا يعلم مما قبله. فإن الطريقة إذا كانت من الدين،

---

(7) صحيح مسلم بشرح النووي ج 1 ص 157 ط 1 1349هـ المطبعة المصرية بالأزهر.

(8) اللمع ص 22 و 23.

(9) التصور والتصديق في أخبار سيدي محمد بن الصديق ص 71 و 72 طبعة السعادة بمصر.

بل هي أشرف أركانه، وكانت بوحي كما قلنا، وكان الصحابة بالحالة التي بلغتنا عنهم تواترا، من المسارعة إلى الامتثال لأمر الله، كانوا بالضرورة أول داخل فيها، وعاملٍ بمقتضاها وذائقٍ لأسرارها وثمراتها. ولهذا كانوا على غاية ما يكون من الزهد في الدنيا والمجاهدة لأنفسهم ومحبة الله تعالى ورسوله والدار الآخرة، والصبر والإيثار والرضا والتسليم وغير ذلك من الأخلاق التي يحبها الله ورسوله وتوصل إلى قربهما، وهي المعبِّرُ عنها بالتصوف والطريقة. وكما كانوا رضي الله عنهم على هذه الحالة كان أتْباعهم أيضا عليها وإن كانوا دونهم. وكذلك أتباع الأتباع وهَلُمَّ جَرّاً.... إلى أن ظهرت البدع وتأخرت الأعمال، وتنافس الناس في الدنيا، وحييت النفوس بعد موتها فتأخرت بذلك أنوار القلوب وكادت الحقائق تنقلب. وكان ابتداء ذلك في أواخر المائة الأولى من الهجرة، ولم يزَلْ ذلك يزيد ويشتد سنة بعد أخرى إلى أن وصل إلى حالة تخوَّفَ منها السلف الصالح على الدين، فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ الدين، فقامت طائفة منهم بحفظ مقام الإسلام وضبط فروعه وقواعده. وقامت أخرى بحفظ مقام الإيمان وضبط أصوله وقواعده، وقامت أخرى بحفظ مقام الإحسان وضبط أعماله وأحواله. فكان من الطائفة الأولى الأئمة الأربعة وأتباعهم، وكان من الطائفة الثانية الأشعري وأصحابه، وكان من الثالثة الجنيد وأشياخه وأصحابه. فعلى هذا ليس الجنيد هو المؤسس للطريقة وإنما نسبت إليه لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها ودعائه للعمل بذلك عندما ظهر التأخر عنها. ولهذا السبب نفسه نسبت العقائد إلى الأشعري، والفقه إلى الأئمة الأربعة وغيرهم، مع أن الجميع بوحي من الله تعالى. انتهى.

وقال ابن خلدون(10) في المقدمة: «علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لا تزال عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة.... إلى أن قال: وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة، إذن فالذي حدث هو الاسم، وتمييز المقبلين على العبادة باسم التصوف، أما النهج والطريقة فهي نفس ما كان عليه الصحابة والتابعون ومن بعدهم... إلى أن قال بعد أن تكلم عن الأحوال والمقامات التي خاضوا فيها، فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاما ويترقى منها إلى غيرها. ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا على التعبير عنه بلفظ يتيسَّرُ فهمه منه. فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه، وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والمعاملات، وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في

(10) المقدمة ص 467-469 ط مصطفى عمر مصر.

طريقها وكيفية الترقي منها. من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك. فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله، والكلام، والتفسير وغير ذلك، كتَب رجال من أهل هذه الطريقة عبادة فقط. وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت، يعني أن نفس هذه العلوم ابتدأت أولا من طريق التلقي شفويا ثم دونت كما وقع في التصوف تماما». هـ بتصرف

وإنما أكثرت من هذه النقول لتبيين حقيقة التصوف وأنه من صميم علوم الدين وأن مصدره الأول كتاب الله وسنة رسوله، لا كما يزعم بعضهم متأثرا بآراء المستشرقين في أنه علم مبتدع في الدين ودخيل في الإسلام، وأنه متأثر بالمسيحية والأفلاطونية الحديثة وتصوف الهنود والبوذيين.

ويعجبني هنا ما قاله أحمد أمين في هذا الموضوع:(11) ويحق لنا أن نتساءل: هل وجود فكرة في إحدى الأمم ثم وجودها بعد ذلك في المتصوفة دليل على أنها أخذت عنها؟ فإذا وجد الفناء في البوذية ثم وجدت فكرة الفناء في الصوفية. هل يكون هذا دليلا على أخذ الآخرين من الأولين؟ وقد يكون هذا نوعا من التفكير الذي يدعو إلى الشك لا الجزم، خصوصا وأن هناك موانع كثيرة من هذا الرأي، مثل أن رابعة العدوية امرأة عربية لم يثبت لنا أنها ثقفت ثقافة أجنبية، وهي أول من تكلم في الحب الإلهي. فمن أين وصل إليها الحب النصراني؟ ثم إن الاتجاهات المتحدة والأمزجة المتحدة تنتج نتائج متحدة، قد لا نعجب بها إذا وجدنا النتائج العقلية متحدة في العالم، لأن عقول الناس في العالم متشابهة. وهي تسير على قوانين منطقية واحدة من مقدمات مشروطة بشروط وأنواع من القياس، أما العواطف فمختلفة كثيرا عند الناس، ومع ذلك لما اتحد الصوفيون في طريقة رياضة النفس والمجاهدة والأخذ عن المشايخ رأيناهم أيضا تقاربوا في النتائج، ورأينا الصوفي العراقي يفهم الصوفي الأندلسي والعكس، ومحيي الدين بن عربي الأندلسي استطاع أن يفهم الحلاّج العراقي، وهكذا لا نستطيع أن نجزم بتسرب بعض العناصر المختلفة إلى التصوف.

وهو كما نرى حديث في غاية الوجاهة والنفاسة.

ومن كل ما سبق، ندرك أن التصوف نشأ أول ما نشأ عبادة وزهدا وإقبالا على الله، وأن ما يدعو إليه كان هو طريقة السلف الصالح عامة من الصحابة والتابعين وإن لم يُعرَفوا به ويختصوا بلقبه، إذ كان الشأن في كل مسلم في تلك العصور أن يكون متحليا به، متحققا بمقامه.

فكما لم يُعرَف الصحابة بالفقهاء والمحدثين والمفسرين، مع أنهم كانوا في الواقع فقهاء وأصحاب حديث ومفسرين ولغويين، فكذلك لم يُعرَفوا بالصوفية، وإنما عُرِفوا بالصحابة لأن شرف الصحبة التي خُصُّوا بها، لا يُعادِلُه شيء في الفضل. قال الطوسي:(12) «الصحبة مع رسول الله ﷺ- لها حُرمة وتخصيص من شمله ذلك. فلا يجوز أن يطلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة،

(11) ظهر الإسلام 4/157ط الثالثة مطبعة لجنة التاليف والنشر 1964.

(12) اللمع ص 42 .

وذلك لشرف رسول الله ﷺ وحُرمته. ألا ترى أنهم أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين ببركة الصحبة مع رسول الله ﷺ فلما نُسِبُوا إلى الصحبة التي هي أجل الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال».

طنجة : محمد علي بن الصديق

جلالة الملك الحسن الثاني
داعية سلم ورائد سلام

للشيخ ماء العينين لارباس
رئيس المجلس العلمي الاقليمي بالعيون

إن الحديث عن شخصية أمير المومنين الحسن الثاني دام عزه يغري صاحبه بما وهب الله لجلالته من نعوت الفضل وصفات العظمة وسمو المكانة.

فهو العالم المتضلع في علوم الشرع ومقاصده.

والعبقري النادر من نوعه في صفاء الذهن ورفعة المستوى وحسن الابتكار وجمال الخلق ولمعان الإبداع، وهو الخطيب المفوه الذي حير البلغاء لما يمتاز به من سلاسة اللفظ وحسن العبارة وسرعة البديهة واتساع العلوم.

وهو القانوني الذي طبع عمله وسلوك أمته بالمشروعية لتصبح دولة العدل والإنصاف، فدافع عن الإنسان وحقوقه بكل موضوعية وبدون تبجح.

فتضلعه في علوم القانون المعاصر، زيادة على ما له من معارف إسلامية واسعة جعلت رجالات الفقه والقانون يعتبرونه مرجعا عديم النظير، كل هذا وغيره مما منحه الله من العظمة وحسن الأخلاق ونبل المقصد والدفاع عن القيم الروحية والمادية جعله أعزه الله نسيج وحده وفريد زمانه.

(تالله لا يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لضنين)

فلهجت بذكر جلالته الألسن متبارية في مدحه أعزه الله والثناء عليه، وتنافست في الكتابة عن شخصيته النادرة أقلام رجالات الفكر وأقطاب العلم في جميع أصقاع الدنيا مبرزين مكانته السامية ومحللين جوانب من شخصيته الفذة، فازدانت الخزانة الإسلامية وغيرها بكثير من المؤلفات المفيدة المتحدثة عن جلالته بكامل الفخر وموفور الاعتزاز.

ولقد ألبست شخصيته العظيمة عصره الذهبي حلة زاهية من نشر العلم والدين، والدفاع عن السلم، والإخلاص للوطن، والعمل على توحيد البشرية واستقرارها، والذب عن مكانة الإنسانية لتنال أرفع المجد وأروع الازدهار دام نصره وتوفيقه.

يدعو للسلم ويدافع عن السلام، ويزرع المحبة والإخاء بين أبناء الأنام ليعيش بنو الإنسان بقطع النظر عن دياناتهم ونحلهم ومللهم ومعتقداتهم في أمن وسلام ومحبة واطمئنان.

كما ينادي باحترام البعض للبعض وعدم دخول أي دولة في شؤون أخرى الداخلية ليبقى الاحترام متبادلاً والتقدير متجذراً والثقة متكاملة.

لقد انتزع إعجاب إخوته الملوك والرؤساء من دول العالم بأسره فاثنوا عليه وامتدحوه.

وكم قدموا جلالته للتحدث باسمهم لاقتناعهم بعبقريته النادرة وعلومه الجمة وشخصيته الجذابة.

(ما آثروك بها إذ قدموك لها
لكن لأنفسهم كانت بها الأثر)

وكم استنار بتوجيهات جلالته السامية والصائبة والموفقة من ساسات العالم ورواده المتطلعين لإسعاد أممهم، اعتقادا من الكل ببعد نظره وإصابة رأيه وبركة خطواته التي يخطوها.

ولا غرابة في ذلك فهو ولد الرسول الأعظم الذي حباه الله بعنايته الربانية فألهمه التوفيق وكلل أعماله بالنجاح.

(وإذا العناية لاحظتك عيونها
نم فالمخاوف كلهن أمان)

لقد أحيى أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله سنة جده محمد ﷺ- فنشر في ربوع المملكة مدارس التعليم الأصيل لينهل الولد في ريعان شبابه من معارف الإسلام، وتنطبع في ذهنه عقيدته النقية وهو طري التفكير، بعد أن يبدأ بقراءة القرآن في الكتاتيب القرآنية التي تغطي رقعة الوطن، زيادة على ما يعج به بلدنا الناهض من مدارس عصرية وكليات تدرس فيها جميع التخصصات العلمية فتعطينا أفواجا من شبابنا المتطلع مسلحة بسلاح المعرفة الروحية والمادية لتواجه الحياة المعاشة بكل ما تحتاجه من خبرة وقدرة وكفاءة عالية، لا مناص لمن قدر الله عليه أن أظله هذا العصر بعلمه وتقدمه المذهل من أن يكرس الجهد كي لا يتخلف عن قافلة العلم المتطور الذي لا حدود لمحيط تقدمه (التكنلوجي).

فلقد سار أمير المومنين بأمته السير الحثيث لترقى مدارج الرقي وتنال مقامات الكمال رغم ما يزرع في طريقها من أشواك كي تعيقها عن المضي في منهاج التقدم الذي تسير فيه دولتنا بخطوات الواثق من نفسه المدرك لأوضاع عصره.

إن المملكة المغربية صارت في عهد الحسن الثاني كعبة زوار الملوك والرؤساء نتيجة الثقة المطلقة التي وضعها قادة العالم الإسلامي في عاهلنا المفدى الذي يدعو إلى السلم وتوحيد الصف ورأب الصدع فلا يرضى من أمتنا الإسلامية أن تبقى مفرقة يحارب بعضها البعض. يريدها أعزه الله أن تعتصم بحبل الله المتين.

قال الله تبارك وتعالى:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾.

وقال عليه السلام: «أيها الناس عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، ثلاث مرات».

فسعى من نحتفي بذكرى عيد شبابه في توحيد صفوف المسلمين وتقارب وجهات نظرهم وحذر الكل من المفرقين المشاغبين الذين يزرعون الفتن ويعمقون الجرح بين الإخوة الأشقاء.

قال عليه الصلاة والسلام: «تكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر المسلمين وهم جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان»

وهذا السعي الجاد منه دام علاه لنفي الخلاف ونبذ الفرقة بين العرب والمسلمين أعطى لنا البعد الحضاري، وجدد لنا المكانة السامية التي عرف بها المغرب الأقصى وأحيى الدور الطلائعي الذي لعبه

بلدنا الأمين في نشر العلم وبث الهداية في كثير من أصقاع الدنيا.

لقد انتشرت المساجد في عهد سيدنا داخل المغرب وخارجه للقيام برسالتها الدينية، فلم يبق حي ولا مدشر ولا مدينة إلا وشيدت فيها بيوت الله لإقام الصلاة وتلاوة الحزب الراتب حسب العادة المتبعة عندنا، وأطرت المساجد بالقيمين الدينيين ودوى صوت الخطباء وأصحاب الدروس والوعظ والإرشاد في هذه الأماكن الطاهرة.

ولم يقتصر هذا العمل الديني الرائع النشيط الذي تباشره وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتوجيهات من سيدنا دام علاه، لم يقتصر هذا العمل الرائد من نوعه على المساجد فحسب بل عم الثكنات والمدارس والأندية والمؤسسات في جميع الأقاليم.

كما توجه إلى الخارج مجموعات من العلماء لجالياتنا في المهجر لتؤطر المساجد هنالك وتأخذ بيد المسلم الغريب عن بلده بصفة عامة وتفقهه في أمر دينه وتنشر هذه المجموعة المسلمة الموجهة إلى أبناء المسلمين في الخارج الإسلام بيسر مبشرة غير منفرة وميسرة غير معسرة وفق الكتاب والسنة ملتزمة بمذهبنا المالكي وعقيدتنا الأشعرية، سالكة سبيل المسلم المتسامح المدرك لما يحيط به، المتشبث بعقيدته ودينه الواعي بظروف عصره. وما يحمل من تعقيدات لا حصر لها.

فجدد دام علاه أمر دين جده ودافع عنه ونشره، وأظهره في حلته الجذابة المقنعة، بالرغم مما يحاك ضد هذه العقيدة الطاهرة السامية والصالحة لكل زمان ومكان. ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

وإن في الرسالة التي وجّهها أمير المومنين جلالة الحسن الثاني إلى الأمة الإسلامية بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري ما يكفي هذه الأمة من توجيه سام وإن هي أخذت بما نصت عليه تلك الرسالة الفريدة من نوعها فلاشك أنها ستحتل المقام اللائق والمركز الأسمى.

فمن توجيهات هاته الرسالة قال أعزه الله:

«معاشر المسلمين: إن الطريق إلى مركز الصدارة بين الأمم مفتوح في وجه الأمة الإسلامية لا يحول بينها وبينه حائل، لكن يلزم لضمان ذلك أن لا تقتصر عنايتها على الجانب المادي وحده، وعليها أن توجه حظا كافيا من اهتمامها إلى الحفاظ على تلاحم الأسرة المسلمة وحمايتها من عوامل التفكك والانحلال وأن تعيد للتربية الدينية والخلقية ما كان لها من الاعتبار، والأهمية في تنشئة الأجيال، وأن تجعل من الأم المسلمة أما مثالية تعتز بأن تكون هي المربية الأولى للناشئة والأطفال فداء لدينها، وإخلاصا لوطنها، وأن تجعل من المدرسة والكلية والجامعة - إلى جانب المسجد - الملتقى المفضل والدائم للعلم والإيمان، وأن تتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وأن تزيل من طريق التضامن والإسلام الكامل والشامل كل ما يعرضه للانتكاس والاحتلال، وأن تقبل على حل مشاكلها الطارئة والمزمنة بجدية وواقعية وتخطيط، بدلا من اللامبالاة والإهمال والارتجال»

إنها النصائح الغالية النابعة من قلب القائد الرائد والعالم العامل والموجه البصير والحكيم المحنك، والمسلم الغيور، والداعية إلى سبيل الهدي والرشاد وفق الكتاب والسنة لا يرضى من أمتنا دام علاه التفرقة والمهانة والتفكك والإهانة، يريدها أن تكون خير أمة أخرجت للناس تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

أعاد الله هذا العيد على جلالته مقرور العين بولي عهده الأمجد سمو الأمير مولاي سيدي محمد وبصنوه الرشيد سمو الأمير مولاي رشيد وبكافة أسرته الملكية الشريفة، إنه مجيب الدعوات وجالب الخيرات ودافع المضرات.

العيون: الشيخ ماء العينين لارباس

نبذة تاريخيّة عن

حلقات الدروس العلمية برباط الفتح

من خلال مذكرات الفقيه محمد بن محمد الأزرق الرباطي

للأستاذ عبد الحق بنطوجة

لقد كان لمؤلّف المرحوم عبد الله الجراري «من أعلام الفكر المعاصر بالعُدْوتين: الرباط وسلا»، الدورُ الكبير والفعال في التعريف بمجموعة من الأعلام الفكرية والعلمية، الذين تعاقبوا على منصة الفكر والعلوم والآداب بهاتين العدوتين. فكانوا بحق شعلةً مُضيئة أضاءت جوانب عديدة من ثقافتنا المغربية، على اختلاف فروعها وتخصصاتها.

وإذا كان لنا من كلمة منصفة في حق هؤلاء الأعلام، فهي أنهم أدوا دورهم العلمي والتثقيفي على أحسن وجه، في وقت كان الشعب المغربي برمته يرزح تحت نير الاستعمار، الذي سعى جهده لطمس معالم الثقافة المغربية ومحاولة تغريبها وفرنستها.

وما سياسة الظهير البربري إلا الوجه الحقيقي للاستعمار، الذي أبان من خلاله عن خبث نواياه السيئة والدفينة اتجاه مقومات الأمة المغربية الدينية واللغوية والتاريخية.

ولقد كان لحلقات الدروس العلمية ـ والتي كانت تتخذ من المساجد والزوايا مركزا لها ـ أثر بارز في تحدي مخططات الاستعمار الدنيئة الرامية إلى تقويض دعائم مقوماتنا التاريخية والدينية واللغوية، حيث كانت الدروس العلمية تبتدئ بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء الأخيرة.(1)

وبين أيدينا الآن مذكرة عَلَم من الأعلام الواردة تراجمهم بمؤلّف المرحوم عبد الله الجراري السابق الذكر، إنه المرحوم الفقيه محمد بن محمد بن الجيلاني الأزرق(2) المكناسي الأصل والرباطي المنشأ والدار. حيث ضمن مذكرته تواريخ افتتاح بعض حلقات الدروس العلمية واختتامها، من لدن مجموعة من علماء ومفكري رباط الفتح، وذلك في مختلف مساجد وزوايا هذه المدينة. إضافة إلى ذكر تواريخ وفيات بعض هؤلاء المفكرين وغيرهم من الأعلام.

وقد آثرنا أن نسوق هذه التدوينات كما هي

(1) عبد الله الجراري: من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الجزء الأول ص: 190

(2) انظر ترجمته بالجزء الثاني من أعلام الفكر للمرحوم عبد الله الجراري ص: 415-416.

مثبتة بالمذكرة، نظرا لدقة ترتيبها الزمني بحسب الأحداث والمستجدات:

ـ الحمد لله وحده، من خط والدي رحمه الله ما نصه: تاريخ سفرنا من مكناس إلى رباط الفتح في يوم الجمعة 24 جمادى الثانية عام 1289هـ.

ـ ومن خطه أيضا: تاريخ جلوسنا لقراءة الصبيان في يوم الأحد 16 من ذي الحجة عام 1302.

ـ ومن خطه أيضا: وفي يوم الأربعاء ثاني جمادى الأولى عام 1318، تولينا الإمامة بالولي الصالح سيدي عبد الله الحويشي رضي الله عنه.

ـ وفي ليلة 29 رجب عام 1309، توفي حجة الإسلام وبركة الأنام الشيخ العارف بالله تعالى أبو المحاسن سيدي العربي بن السائح الشرقي العمري المكناسي ثم الرباطي مقدم الطريقة التجانية المحمدية والسلام.

ـ وفي يوم الثلاثاء 28 جمادى الثانية عام 1310 توفي الفقيه النحرير، المعروف بالإتقان والتحرير السيد زين العابدين البناني الرباطي. والسلام.

ـ وفي ليلة الخميس 3 ذي الحجة الحرام عام 1311، توفي السلطان المولى الحسن، وذلك بوادي العبيد من أرض تادلا: ودفن بإزاء جده الأعلى السلطان أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله، وكان دفنه في يوم الأربعاء التاسع من الشهر المذكور.

وفي اليوم الرابع منه انعقدت البيعة من جميع الجيوش لِـنَـجْـلِـه الهمام الأمجد أبي المواهب مولاي عبد العزيز، ووصل الخبر للرباط يوم الأحد السادس من الشهر المذكور، وفيه بويع له عشية ذلك اليوم.

ـ وفي ليلة الجمعة 18 من ذي الحجة الحرام بعد صلاة المغرب عام 1311، توفي شيخ الإسلام العلامة المشارك الهمام أبو إسحاق سيدي إبراهيم التادلي الرباطي وصلي عليه بعد صلاة الجمعة بالمسجد الأعظم، ودفن بمحل درسه الذي اتخذه بداره والسلام.

ـ وفي التاسع والعشرين من ذي الحجة الحرام عام 1314، توفي العلامة النقادة الصوفي أبو حفص السيد الحاج عمر ابن العلامة القاضي الأجل السيد محمد فتحا عاشور الرباطي. توفي رحمه الله مجيئة وبيده كتاب من كتب الحديث. ودفن بزاوية مولاي العربي الدرقاوي.

ـ توفي سيدنا الوالد محمد بن الجيلاني الأزرق المكناسي الأصل والمنشأ والدار الرباطي في يوم الثلاثاء 8 رمضان المعظم عام 1328. وأقبر بمقبرة العلو قرب برج الدار تحت برج الاوداية رحمه الله رحمة واسعة.

وجلسنا بمحله صبيحة غد من تاريخه لتعليم الصبيان القرآن، ومن الله الإعانة على الدوام.

ـ وفي 14 رجب عام 1329، توفي السيد المكي والزهراء ودفن بالزاوية الناصرية رحمه الله.

ـ وفي صبح يوم الأحد 21 حجة الحرام عام 1333، افتتح شيخنا العلامة المحدث الشهير الشيخ أبو شعيب الدكالي مختصر الشيخ خليل بشرح الدردير، وذلك بضريح مولاي المكي بن محمد. رحم الله الجميع.

ـ وفي يوم الإثنين 11 جمادى الأولى عام 1338، ابتدأ العلامة المحدث الحافظ الهمام سيدي أبو شعيب الدكالي صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، وذلك بالزاوية الناصرية.

ـ وفي يوم الأحد 4 جمادى الثانية عام 1339،

انتقلنا من مكتب جامع النخلة لمكتب آخر قرب ضريح الولي الصالح سيدي الحسن المسكيني رضي الله عنه.

- وفي يوم الأحد ثاني رجب الفرد عام 1339، افتتح شيخنا العلامة المحقق سيدي محمد السائح قراءة مختصر الشيخ خليل، وذلك بمسجد النخلة بعد الزوال. والسلام.

- وفي يوم الأحد 23 رمضان المعظم عام 1340، ختم شيخنا العلامة المحدث الحافظ الهمام صحيح الإمام مسلم، وذلك بالزاوية الناصرية بعد صلاة العصر والسلام.

- وفي يوم الجمعة 19 شوال الأبرك عام 1340، افتتح شيخنا المحدث سيدي أبو شعيب الدكالي جامع الإمام الترمذي وذلك بالزاوية الناصرية.

- وفي يوم الأحد 19 حجة الحرام عام 1340، افتتح شيخنا العلامة المحدث أبو شعيب الدكالي شرح العلامة ابن القاصح على الشاطبية المسمى بسراج القاري، وذلك بالزاوية الناصرية بعد صلاة الصبح والسلام.

- وفي ليلة الأربعاء 18 رجب الفرد عام 1341، توفي الشريف الجليل العلامة العامل النبيل مقدم الطريقة التيجانية الورع الزاهد الدال على الله تعالى سيدي محمد بن الحسني العلمي الإدريسي رضي الله عنه وأرضاه وجعلنا في جواره آمين.

- وفي ليلة السبت 19 محرم فاتح سنة 1342، ختم شيخنا المحدث الحافظ سيدي أبو شعيب الدكالي جامع الترمذي، وذلك بالزاوية الناصرية بين العشاءين.

- وفي صبيحة يوم الثلاثاء 29 محرم فاتح سنة 1342، ختم شيخنا المحدث الشهير سيدي أبو شعيب الدكالي ابن القاصح على الشاطبية المسمى بسراج القاري المبتدي، وذلك بالزاوية الناصرية بعد صلاة الصبح.

- وفي ليلة الأحد 16 شعبان الأبرك عام 1342، افتتح شيخنا العلامة المحدث الشهير سيدي أبو شعيب الدكالي سنن أبي داوود، وذلك بالزاوية الناصرية.

- وفي ليلة السبت 26 شوال عامه أعلاه، انتقل شيخنا المذكور الشيخ شعيب للمسجد الأعظم للقراءة المذكورة أعلاه.

- وفي يوم الأحد 27 شوال عام 1342، افتتح شيخنا الشيخ أبو شعيب الدكالي، ألفية ابن مالك بشرح الأشموني، وذلك بمسجد القبة بعيد الشروق.

وفي عشية يوم الإثنين 22 محرم فاتح عام 1345، ختم الألفية أعلاه والسلام.

- وفي ليلة الجمعة 10 ربيع النبوي الأنور عام 1343، ختم شيخنا المحدِّث الشهير الشيخ شعيب الدكالي سنن أبي داوود، وذلك بالمسجد الأعظم والسلام.

- وفي ليلة الأحد 4 ربيع الثاني عام 1343، افتتح شيخنا الشيخ أبو شعيب الدكالي سنن الإمام النسائي وذلك بالمسجد الأعظم بين العشاءين والسلام.

- وفي عشية يوم الخميس 29 رمضان عام 1343، ختم شيخنا المحدث الشهير أبو شعيب الدكالي سنن النسائي رحم الله الجميع وذلك بالزاوية الناصرية والسلام.

- وفي ليلة السبت 15 من شوال الأبرك عام 1343، افتتح سيدنا الشيخ أبو شعيب الدكالي سنن

ابن ماجة. رحم الله الجميع، وذلك بالزاوية الناصرية بين العشاءين.

- وفي 22 محرم فاتح سنة 1344، توفي الأستاذ السيد أحمد المدور، ودفن بالزاوية القجيرية رحمه الله.

- وفي ليلة الأربعاء 4 ربيع النبوي عام 1344، توفي صهرنا مقدم الطريقة التجانية سيدي محمد الغربي بداره بسلا وغسل بها. وصلي عليه بمسجدها الأعظم. وصلى عليه الشريف المحدث الحافظ الشهير سيدي المدني بن الحسني ودفن بالرباط بزاوية جده سيدي أحمد الغربي. رحم الله الجميع والسلام.

وفي التاريخ نفسه توفي الشيخ المربي سيدي محمد بن عبود المكناسي السلوي. رحمه الله آمين.

- وفي 12 ربيع الأول عام 1344، توفي الطالب الأستاذ الحمزاوي الحاج محمد الجبلي ودفن بباب شالة مع ولده رحمهما الله تعالى.

- وفي ليلة الأحد 15 ربيع النبوي الأنور عام 1344، توفي الأستاذ العلامة المشارك. الورع الزاهد سيدي الحاج المحمدي بن عبد السلام متجنوش رحمه الله. ودفن بمقبرة الولي الشهير سيدي الحسن بنسعيد بدار حذاءه تعرف بدار الكبرات. وخلف رحمه الله التآليف العديدة من منظوم ومنثور والسلام.

- وفي ليلة الإثنين 10 رجب الفرد عام 1344، ختم الشيخ المحدث الأشهر سيدي أبو شعيب الدكالي سنن ابن ماجه. رحم الله الجميع. وذلك بالزاوية الناصرية والسلام.

- وفي ليلة السبت 22 رجب الفرد عام 1344، افتتح شيخنا العلامة المحدث الشهير سيدي أبو شعيب الدكالي تفسير العلامة النسفي، وذلك بالزاوية الناصرية والسلام.

وفي عشية يوم الخميس 27 رمضان عام 1353، ختم الشيخ المذكور أعلاه تفسير النسفي.

- وفي ليلة الخميس ثاني صفر عام 1345، افتتح شيخنا الشريف الأجل العلامة المحدث الحافظ الأفضل سيدي المدني بن الحسني كتاب القوانين الفقهية لابن جُزَي. رحم الله الجميع. واختتمها في ضحوة الأربعاء 23 شعبان عام 1357هـ.

- وفي ليلة الأحد 4 صفر الخير عام 1345، افتتح الشيخ المحدث الشهير أبو شعيب الدكالي أساس البلاغة للزمخشري. رحم الله الجميع.

- وفي يوم الأحد 12 صفر الخير عام 1345، توفي الفقيه البركة العدل الحاج محمد بن الغازي ودفن بالزاوية القجيرية.

- وفي ظهر يوم الأربعاء 19 ربيع الثاني عام 1345، وتوفي الفقيه الأديب السيد محمد بن مصطفى بوجندار. رحمه الله.

- وفي ليلة السبت 2 رجب الفرد عام 1345، افتتح شيخنا العلامة المحدث الشهير أبو شعيب الدكالي صحيح الإمام البخاري. رحم الله الجميع.

- وفي ليلة الأحد 16 رمضان المعظم عام 1345، توفي الشريف الأجل شيخ الإسلام المحدث الشهير سيدي محمد بن جعفر الكتاني. رحمه الله تعالى.

- وفي ليلة السبت 2 فاتح سنة 1346، افتتح شيخنا الشريف شيخ الجماعة سيدي المكي البطاوري - موطأ الإمام مالك، وذلك بالزاوية التهامية. رحم الله الجميع.

- وفي يوم الخميس 21 جمادى الأولى عام

1346، توفي السلطان الأجل الحائز لمكارم الأخلاق الأفضل أبو المحاسن سيدي يوسف بن مولاي الحسن العلوي رحمه الله. ودفن بفاس مع جده الأعلى مولاي عبد الله رحمه الله.

- وفي يوم 21 رجب الفرد عام 1346، ختم شيخنا العلامة المحدث أبو شعيب الدكالي مختصر الشيخ خليل بشرح الدردير. والسلام.

- وفي صباح يوم الأحد 7 جمادى الأولى عام 1347، افتتح شيخنا المحدث الشهير الشيخ شعيب الدكالي تحفة ابن عاصم بشرح التاودي وذلك بجامع القبة. والسلام.

- وفي صبيحة يوم الأحد 19 جمادى الأولى عام 1352، افتتح شيخنا العلامة المحدث الشهير الشيخ أبو شعيب الدكالي موطأ إمام الأيمة سيدي مالك ابن أنس رحم الله الجميع. والسلام.

- وفي صبيحة يوم الخميس متم جمادى الأولى عام 1352 - افتتح شيخنا العلامة الشريف المحدث الشهير سيدي المدني بن الحسني رسالة ابن أبي زيد القيرواني وذلك بالمسجد الأعظم بعد صلاة الصبح. والسلام.

- وفي ليلة الخميس متم جمادى الأولى عام 1352، افتتح الشيخ أبو شعيب الدكالي سورة الجمعة بتفسير الجلالين، وذلك بالمسجد الأعظم من سلا. ابتدأ عشية الأربعاء ولكن طلب منهم أن يكون ذلك يوم الأحد. والسلام.

- وفي صبيحة يوم الثلاثاء 8 صفر الخير عام 1353، اختتم شيخنا الشريف الأجل المحدث الشهير الأمثل سيدي المدني بن الحسني مختصر الشيخ خليل. وذلك بجامع النخلة.

- وفي 9 ربيع الثاني عام 1353، توفي الشريف الأجل نقيب الأشراف العلويين الرباطيين سيدي سليمان بن إسماعيل العلوي. ودفن بالضريح المكي رحمه الله.

كذلك في اليوم نفسه توفي العلامة الزاهد الورع سيدي أحمد ابن الفقيه الجريري السلوي. ودفن بسلا عشية يومه. رحمه الله.

- وفي يوم الأربعاء 10 شوال الأبرك عام 1353، توفي الأستاذ الحمزاوي السيد صالح بن عسيلة ودفن بالعلو. رحمه الله تعالى.

- وفي ليلة الجمعة 12 شوال الأبرك عام 1353، توفي مقدم دلائل الخيرات السيد محمد فتحا ابن أحمد ملين. ودفن بمولاي المكي والسلام.

- وفي ليلة الأربعاء فاتح محرم عام 1355، توفي شيخ الجماعة من هذه الحضرة الرباطية الشريف سيدي محمد المكي الشرشالي المعروف بالبطاوري. ودفن بضريح مولاي المكي بن محمد والسلام.

- وفي ليلة السبت 8 جمادى الأولى عام 1356، توفي العلامة المحدث الشهير الشيخ أبو شعيب الدكالي. ودفن بضريح مولاي المكي من هذه الحضرة الرباطية والسلام.

- وفي ضحوة يوم الأحد ثمانية رمضان عام 1358. افتتح الفقيه الشريف سيدي محمد بن العربي العلوي موطأ الإمام مالك. وذلك بمسجد مولاي سليمان. والسلام.

- وفي رمضان عام 1361، افتتح شيخنا الشريف المحدث الشهير سيدي المدني بن الحسني زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية. والسلام.

- وفي ليلة الإثنين 13 شعبان عام 1364، توفي

الفقيه العلامة المحقق سيدي محمد بن عبد المجيد أقصبي. ودفن بمقبرة مولاي أحمد بن علي الوزاني المقابلة لضريح مولاي المكي بن محمد. رحم الله الجميع.

كذلك في التاريخ نفسه توفي العلامة النحرير النفاعة المدرس الفرضي أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد بن الحبيب العلوي الأفوسي المدعو (سيدي خويا) والسلام.

- وفي فاتح شعبان الأبرك عام 1365، ترشحنا للكتابة بمجلس الاستيناف الشرعي الأعلى. والسلام.

- وفي صباح يوم الثلاثاء تاسع عشر قعدة الحرام عام 1368، توفي الفقيه الجليل المدرس المشارك العضو الاستشاري بالاستيناف الشرعي الأعلى، سيدي محمد بنسعيد المكناسي، إثر مرض لم يستغرق 24 ساعة. ودفن بمقبرة العلو من حضرة رباط الفتح. رحمه الله تعالى رحمة واسعة آمين.

- وفي أواخر رمضان عام 1369، توفي الفقيه الأجل الكاتب بالأعتاب الشريفة بمجلس الاستيناف الشرعي الأعلى، السيد محمد بن عبد الصادق الدكالي. ودفن بمقبرة سيدي الخطاب. رحمه الله رحمة واسعة آمين.

- وفي زوال يوم الإثنين 14 محرم فاتح سنة 1374، توفي الفقيه العدل المبرز الخطيب بجامع السنة نائب القاضي وقت تاريخه سيدي محمد ابن عبد الله اجديرة. توفي رحمه الله فجأة، وأقبر بمقبرة العلو قرب سيدي ادريس رحمه الله رحمة واسعة وألحقنا به مسلمين موحدين آمين.

- وفي 23 صفر الخير عام 1374، توفي الفقيه العلامة المطلع السيد الحاج الطاهر الرجراجي. وأقبر بمقبرة سيدي الخطاب بحضرة الرباط. رحمه الله رحمة واسعة آمين.

إلى هنا يجف مداد المرحوم الفقيه محمد الأزرق، ويتوقف عن السيلان. وإذا كان لنا من تعاليق على هذه التدوينات، فهي أن قيمتها تتجلى في نظرنا وفي المقام الأول، في ضبط والحفاظ على مجموعة من الحقائق التاريخية، وإطلاع الأجيال التالية على ما ساد المجتمع الرباطي من تقاليد علمية، أغنت ثقافتنا المغربية، ورفدتها بكثير من العطاءات العلمية والفكرية المتميزة، والتي كان لها دورها الواضح والجلي في بث بذور الوعي الوطني والنهوض من كبوة الاستعمار.

الرباط : عبدالحق بنطوجة

جلالة الملك الحسن الثاني رمز الشباب

للشاعر: مولاي الطيب المريني دنيا

عيد المليك لدى الشباب أثير ... وله بطالعه السعيد وصول
ياتي فيذكي في النفوس شبابها ... إن الشباب على الكمال دليل
ما عذر مجتمع الشباب إذا ونى ... والظرف طاغ والزمان خَذول
والحاجيات تلح في إنجازها ... كمّاً وكيفاً، ضغطها موصول

* * * *

من لي بآيات البلاغة أنتقي ... منها البديع ليومِهِ وأصول
يوم له رسم الإله شبابه ... وأنا لَه العزماتِ فهو فعول
ما حاد عن نهج الصواب يقوده ... (ملك شجاع) بالنجاح كفيل
قد حقق الآمال فهي عظيمة ... ومشى يخط إلى العلا ويجول
قد قاده رمز الشباب فزانه ... عرش له كل القلوب تميل
بهرت أياديه وتم كمالها ... بالنصر، بالتوحيد، فهو جليل
وإذا الشباب وقد وعى أمجاده ... يبني العظائم همه التأصيل
وتدارك الخطإ الذي تصحيحه ... يقضي يبذل الروح وهو قليل
وإذا الإمارة والشباب تعاهدا ... جاء النجاح يحوطه التهليل
وهل الحياة سوى نجاح بعده ... نجح له طعم الحياة جميل

تـالله مـا سر الحيـاة سـوى الـذي ... تـزهـو بـه عنـد الفخـار أصـول
وتـرى البنـوة بعـدهـا في منعـة ... بـالمكـرمـات فخيرهـا مبـذول
لسعـادة الـوطـن الـذي إنعـامـه ... وسـع الجميـع ففضلـه مسـدول
قـد أرهقتـه حمايـة مشـؤومـة ... وتخلـف، مـن قبلهـا مسـؤول
فتعـاونـا زمنـا بكـل شراسـة ... حتـى يـدوم تـأخـر وخمول
وتـدوم غطـرسـة الـدخيل وحـزبـه ... وتـدوم دولـة بغيـه وتطـول

* * * *

يـا نفحـة مـن خلـد ربي صـانها ... ملـك همام حقـه التبجيـل
عبـق الشـذا منهـا فعطـر أرضنـا ... حتـى انتشـى القـاصي، وسُـرَّ قبيـل
يهنيك مـا أسـديت للـوطـن الـذي ... يبقـى الفخـور، وإنـه لجليـل

مراكش ـ مولاي الطيب المريني دنيا

أثر الإيمان في تربية الشباب

للشيخ محمد حدّو أمزيان
رئيس المجلس العلمي الإقليمي
بمدينة تطوان

الشباب هم عصب النشاط والحيوية والأمل في الأمة، ومصدر قوتها وضعفها، وغناها وفقرها، وهم الحلقة الذهبية في الحياة الاجتماعية المتسلسلة بين الأجيال بالاستمرار، وهم الذين يقلبون التاريخ، ويعززون الأمم ويخلقون التيار، لذلك يستحقون العناية كلها، سواء من الدولة أو من العائلة أو المجتمع عموما في التربية والتوجيه والإرشاد، فالأمة تتكون من ثلاث حلقات، الأطفال والشباب والشيوخ، فالأطفال مصدر المتعة والأنس، والشباب مصدر العمل والإنتاج والقوة، والشيوخ مصدر التوجيه والتخطيط والمراقبة، فإذا كان هناك تعاون بين هذه الطبقات، وبالخصوص بين الشباب والشيوخ، الشباب يعمل والمشيخة توجه كان هناك خير كثير وفضل عميم، وإن لم يكن هناك تعاون بل بالعكس انفقدت الثقة بينهما بحيث صار الشباب يسخر من الشيوخ ويلعنهم ويخالفهم ويلح في مخالفتهم، وينظر إليهم بالنقص والنفور والتحقير، والشيوخ نفضوا أيديهم من جهتهم من الشباب، وأهملوا أمرهم ولم يبالوا بعنايتهم كان هناك شر كبير وانفكاك وذلة للجميع.

وبما أن الشباب له هذه المزية والقوة والفعالية بين هذه الطبقات الثلاث كان دائما موضع المسابقة بين قوة الصلاح وقوة الفساد من جعلهم تحت نفوذها، فقوة الإصلاح تقوم على تربيته تربية وطنية واعية نظيفة، وتغرس فيهم جذور الماضي لتجني منهم آمال المستقبل، وتجعله أداة نشيطة للبناء والإنتاج، يسير وفق خطة التوجيه والإرشاد من الشيوخ، وقوة الفساد بالعكس تعمل على فك الترابط وإشاعة الجفاء بين هذين الطبقتين حتى لا تكون هناك ثقة بينهما ولا تعاون، فإذا ذهبت الثقة وانخرم الترابط انخرم التعاون وضاع الجميع، وتصير كل طبقة منهما تعيش الفراغ لا تستطيع أن تعمل شيئا، كل واحد يشكو من مرض، ولا يهتدى إلى علاج، فيسهل أمر مثل هذه الأمة على غيرها، وتنقاد للتبعية لغيرها، وتقع تحت سيطرة ذلك الغير واستغلاله.

فمن يستطيع أن يضع يده على الشباب، ويستولي على أمره، استطاع أن يضع يده على الأمة كلها، ويستولي على شؤونها كلها، لأن الشباب هو الصفحة البيضاء التي يكتب فيها مصير الأمم، وهو العجين الذي يكيف حسب الرغبة المثلى، وهو الغصن

الذي تلقح فيه الأمة كلها، ليكون بعد ذلك ثمارها حلوا أو مرا، وهذا يبدأ مبكرا من مرحلة الطفولة في فترة النشوء والنماء، إذ في هذه الفترة يكون الشباب في حالة تجعله يقبل كل شيء ويحسن النية في كل شيء، كالرضيع يتمصص كل ما يقع في يده خيرا وشرا، وهذا ما يساعد على أن يخلق منه الإنسان الذي يريده الموجه حسب رغبته الهادفة لشيء معين، كان جليلا أو حقيرا.

وإذا كان الشباب هذا أمره في قبول التوجيه والإرشاد، وهذا أمره في الاعتماد على الغير في التلقي والتربية في بداية الأمر، (الناس على دين ملوكهم)، فماذا ينبغي أن نقدمه له وما لا ينبغي؟، هل الضمير أو المهنة، هل العلم الكلي أو العلم الجزئي؟، والضمير أو العقيدة أو العلم الكلي كلها أشياء ترجع إلى شيء واحد، وهو إفراغ الإنسان الوليد في قالب معين في العقيدة لينمو على وفقه، وعلى شكل معين، كما أن العمل أو المهنة أو العلم الجزئي كلها أشياء ترجع إلى شيء واحد، وهو إنتاج ذلك الشخص، وبما أن الأعمال لا تصدر عن المرء إلا وهي منفعلة بضميره وعقيدته، ولا تصدر عنه إلا وفق نمطه، كان الواجب أولا أن نصلح فيه العقل وهو مصدر الإنارة ونصلح فيه الوجدان مصدر الرغبات، ومصدر المشاعر وهو الضمير، لأنه الأصل الأصيل في بنيان الإنسان.

وهذا يعني أن الإنسان صناعي لا طبيعي، أو يعني تصنيع الطبيعة أي ندخل عليها الصنعة ونهذبها وفق رغبة الأمة الاستراتجية أو الأولية، ونعتني به في هذا السبيل مزيدا من العناية، لأنها منبع الاستقامة، ومنبع وضوح الرؤية، والسلوك النظيف، ومنبع الفلاح والرشاد أو الغواية والضلال، فالعلم عموما نوعان: نوع يتعلق بجزئيات حياتنا، وهو الذي نتلقاه في المدارس والكليات، ويشتمل على عدة فنون وعلوم، ونوع لا يتعلق بجزئيات حياتنا ولا بمعاملاتنا وإنما يتعلق بنا نحن أي ببناء الإنسان نفسه، والإنسان عقل وضمير ولسان والباقي هيكل لبناء هذه الأركان وصيانتها، وهذه الأركان الثلاثة دائما تتغذى من العقيدة، وتستقي عملها من العقيدة وتصطبغ إنتاجها بصبغة العقيدة، وعليه فالعقيدة هي كل شيء في الإنسان، وهي التي تمثل العلم الكلي الذي يخلق فينا شعورا خاصا بمكانتنا ودورنا في الدنيا ورسالتنا في الحياة، ويخلق فينا شعورا بالكون وشعورا بمن خلق هنا الكون والإيمان به والالتجاء إليه وعبادته وفق ما بلغنا عنه من رسله الأبرار وهذا هو الصراط المستقيم الذي يجب أن نسلكه في حياتنا مع بعضنا.

إن هذا العلم الكلي له حكم الأصل والأساس، وعلومنا الجزئية هي فروع لهذا الأصل الكلي، وعلى استقامته أو اعوجاجه تتوقف أفكارنا وأعمالنا وشؤون حياتنا صحة وفسادا، لأن معرفة الصلاح والفساد تتوقف على معرفة الخير والشر في الوجود، ومعرفة الخير والشر في الوجود تتوقف على معرفة ما هو دورنا في الحياة؟، أو لماذا خلقنا، أو ما الغاية وراء وجودنا في هذه الدنيا؟. فإن كان الاعتقاد أن حياتنا طبيعية، وأن وجودنا طبيعي ليس له وراء بعد، وأن السعادة والشقاء هما ما نرى في هذه الحياة، وأن الحياة محصورة في الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية لوجودنا، فلا بعث ولا حساب ولا جزاء بنار ولا بجنة، تصبح حينئذ قضية الخير والشر قضية غامضة بل مضطربة، كل واحد يفسر الخير والشر

على حسبه هو، وحسب مصلحته المنظورة له، أما المصلحة العامة، وأما الأخلاق والدين والمساواة، وأما الضمير والإنسانية المطلقة فلا يكون لشيء مما ذكر معنى في هذا المجتمع، وإنما يكون المجتمع حينئذ عبارة عن جماعة من الأفراد مفككين عن بعضهم روحا وخلقا ودينا تتحكم فيهم الغرائز الطبيعية ذئابا على بعضهم والقوي يأكل الضعيف، والعدل هو مصلحة الأقوى، ففي مثل هذا الإطار ينعدم مقياس موحد بينهم لمعرفة الخير والشر، أما إذا كان المجتمع يسوده دين التوحيد، يعتقد بوجود إله واحد فوقنا جميعا، إياه نعبد وإياه نستعين، وعلى شريعته نسير في دنيانا، وعليها تتمحور حياتنا وغدا سيحاسبنا بالعدل على ما قدمنا، فإما إلى الجنة وإما إلى النار فحينئذ يتميز الشر والخير للجميع، لأن ما رآه الدين من خير فهو خير للجميع، وما رآه شرا فهو شر للجميع، إذن فمعرفة الخير والشر ترتبط بالعقيدة العامة بين الناس. بالعقيدة القرآنية عند المسلمين.

وواضح أن أهليتنا للحياة وفق تعاليم الإسلام تترتب على عملنا بشريعته، بَيْدَ أنه لا يتاح لنا دائما تحقيق ذلك على الوجه المطلوب إذا كان الأمر بيننا فرادى لا جماعة، لأنه وإن كانت الغاية الأساسية للدين الإسلامي هي إصلاح الناحية الفردية للإنسان، فإن مما لاريب فيه أن جزءا كبيرا من الإصلاح الفردي لا يمكن تطبيقه إلا عن طريق مجهود جماعي موحد لعدد من الأفراد، وهكذا فإن الفرد مهما صحت عزيمته فإنه لن يتمكن بحال من الأحوال أن يصوغ جماعته على نحو يتفق مع تعاليم الإسلام دون أن يصوغ المجتمع الذي يعيش فيه شؤون حياته بكامله في الإطار الذي يرسمه الإسلام، ومثل هذا التعاون الواعي بين أفراد المجتمع لن ينبثق من مجرد الشعور بالأخوة فيما بينهم، لأن فكرة الأخوة لابد لها من أن تترجم إلى حركة عملية اجتماعية هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى قوة رادعة جماعية تضمن لأفراد المجتمع أن يعيشوا في حرمة وعزة وحرية وكرامة، يشعرون أن أمرهم بيدهم، وكرامتهم وعزتهم في الحفاظ على دينهم وعقيدتهم وتاريخهم، فإذا لم تتوفر لهم قوة جماعية للدفاع عن كيانهم ونظامهم ونهج شريعتهم في الحياة فإن عصيان فرد من الأفراد في مسلكه قواعد السلوك العام للمجتمع المسلم يجعل وظيفة الآخرين في محاولة تحقيق المثل الأعلى صعبة، وتزداد صعوبة كلما ازداد هؤلاء العاصون حتى يتفكك الأمر كله، وفي الصحيح «أنهلك وفينا الصالحون، قال: نَعَم إذا كثُر الخبث»، وقال تعالى: **﴿كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾**.

قلنا سابق: فمعرفة الخير والشر ترتبط بالعقيدة العامة بين الناس، بالعقيدة القرآنية عند المسلمين، تنحصر في الإيمان بالله وتوحيده بالعبادة والافتقار، والعمل بما يخدم هذا التوحيد من أصول وفروع، وهذا يستلزم الشعور بأن ما عداه مخلوق ضعيف لا يعطي ولا يمنع، وبأنه لا ألوهية في الأرض لا في العلم ولا في الحكم ولا في العطاء إلا لله وحده سبحانه، وأي نظام يوضع للتربية وتهذيب الشباب يجب أن يقوم على أساس المرتكزات الأساسية للأمة يخدم تاريخها وتراثها وآمالها في المستقبل، فإن كان هذا العلم الكلي صحيحا سالما أي فإن كانت العقيدة العامة سليمة نظيفة حية فلابد أن يكون نظام التربية العام صحيحا سالما، وإن كان فيه نوع من الضعف

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده
وهو يقبل راحة والده المنعم جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه

أو الارتخاء أو التذبذب فلابد أن يكون ينعكس ذلك على نظام التربية والتهذيب أيضا، وهذا العلم الكلي هو الذي يسمى في اصطلاح القرآن بالإيمان، وهو الذي ظل ينشره ويخدمه بمختلف الوسائل وبمختلف المواعظ ثلاثا وعشرين سنة في المجتمع المحلي بالجزيرة العربية، إشارة إلى أن إصلاح العقيدة هو الخلية الأولى في بناء المجتمع الصالح لكل أمة، (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) والمراد به هنا العقل الكلي في الإنسان الفرد، منه تتفرع جميع ألوان الفكر، ومنه تستقى جميع التأملات الفردية والجماعية، فالإيمان بالله والاطمئنان إليه والوثوق في نصرته وتوفيقه هو الأساس الفكري لحياته العملية وسيرته الشخصية، ومنه يستلهم أخلاقه وشعوره، ومنه يستلهم الثبات والصبر في الأزمات، والقوة والنصر في الملمات، وهو الذي يطبع حياة المسلم بالاستقرار والصمود والأمل أمام التيارات والمذاهب العاصفة حينا فحينا، ويعصم ذهن المسلم من داء التشتت والتمزق والضياع سواء في حال الضعف أو حالة القوة، ويبقى هو في كلتا الحالتين معا كالطود الشامخ.

وكمثال لذلك في أثر الإيمان بالله ونصره في الشباب المسلم ناتي بالملك محمد الخامس رحمه الله نموذجا في الموضوع، فإنه جاء دوره في الجلوس على العرش العلوي المجيد في عهد متدن منفك هابط، فقد توج ملكا في عهد الحماية، توجوه صغيرا رجاء أن يسهل تكييفه على حسب المنهاج السياسي المخطط بهندسة الحماية، فأخذ يسير الأمور حسب ما سمحت به الحماية أن يسيرها، وفي نفس الوقت وهو واع لما حوله، وواع لدوره وتاريخه وما يرجى منه من بلده وما يرجى منه من قبل الحماية، فاستطاع أن يقوم بالدورين معه بوعي ذكي، فهو في الوقت الذي وجد الباب أمامه مسدودا في خدمة بلده استطاع أن يخلق لنفسه مسارب أخرى يتصل بها بشعبه وبعناصر من الشباب الحي، ويخدمه ويربيه وفق تعاليم الإسلام، ويزرع فيه بذور العزة والكرامة، بذور المَلَكَة الحية التي تجعله يعمل للانعتاق من الحماية وبناء المغرب المسلم الجديد بكيفية لا تتناقض مع المنهاج السياسي المسموح به في تسيير الأمور العامة في المدرسة والشارع في إطار الحماية، ومع الزمان أخذ أثر هذه التربية يظهر في الشباب شيئاً عمودياً وأفقيًا معًا، أو عمقاً وانتشاراً معاً، حتى رأى أن الوقت قد حان للصدع بكلمة الحق، فعمل سياسته مع المسؤولين الفرنسيين أن يسمحوا له أن يزور طنجة الدولية على أساس أنها جزء من المغرب، فالفرنسيون لا تغضبهم الزيارة إلى طنجة، لأن طنجة، ومع الأسف نظرا لما ينتشر بين الشباب من الانحلال في الأخلاق والبلبلة في العقيدة، والميوعة في الالتزام في الوقت الحاضر تأثرا بالتيار الحضاري المادي الغربي الذي يهب على بلادنا بالقوة يدفعنا الحق أن نقول أن التربية الدينية أو الوطنية أو المثل العليا للشباب المسلم كان في عهد الحماية أقوى مما هو في عهد الاستقلال وأنبل وأنظف منه، رغم أن الشباب الذي يتلقى التعليم في المدارس الرسمية في عهد الاستقلال يعد بالملايين، بينما كان في عهد الحماية لا يتعدى أربعين ألفا ما بين تلامذ وطلاب ومتوسطين، فإننا في عهد الاستقلال نشعر بأن الناحية الروحية في تعليمنا العمومي ضعيفة جدا،

ومعاملها في الامتحانات لا قيمة له، فهي بحاجة ماسة إلى العناية والتقوية بما لا حد له، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن الصبابة القليلة مما يمكن أن يسمى بالتربية الخلقية أو الدينية هي إلى النظريات أقرب منها إلى الممارسات بدليل إسنادها في الغالب إلى غير الملتزمين بخلق أو دين، وكذلك الشعب الإسلامية التي كثيرا ما يتولاها غير المتخصصين، وبقدر ما كان التعلم عندنا على مدى قرون مصطبغا بالصبغة المغربية سواء كان تعليما فلسفيا أو طبيعيا أو رياضيا أو لغويا، فهذا لفهم الدين ونصوصه، وهذا للرد على شُبَه الملحدين، وهذا لمعرفة قدرة الخالق، وهذا للتوسع في آفاق المعرفة للعمل على صلاح المعاش والمعاد إلى غير ذلك صرنا والغاية من التعليم هي المادة ولا شيء غير المادة، والتربية المادية دائما تعيش الضحالة والسطحية وحب الظهور، ولا علاقة لها بعزة النفس ولا بقداسة المبدأ ولا بحرمة الدين ولا بشرف الكلمة ولا بحب التضحية ولا بناء مجد الأوطان، وهذا انحراف ضال ينتج أشباه الرجال ولا رجال.

تطوان : الشيخ محمد حدو أمزيان

صورة

اعتناء الموحدين بسجلماسة

مهد الشرفاء العلويين في عهد الخليفة المرتضى

للأستاذ إدريس العلوي البلغيثي

تقع سجلماسة(1) في منطقة الواحات بتافيلالت، وهي أحد أبواب الصحراء(2)، ومهد الشرفاء العلويين. أسسها مدرار بن عبد الله من الخوارج الصفرية(3) سنة 140هـ / 757م، وأصبحت قاعدة للمُلك، ومركزا حضاريا هاما. يزخر بعدة مظاهر عمرانية. هذا فضلا عن مركزها الفلاحي والتجاري: فقد كانت غنية بثرواتها الفلاحية، كثيرة الفواكه، تربطها علاقات تجارية بالشرق والغرب المسيحي(4). وقد وصفها كثير من المؤرخين والرحال، وذكروا فضائلها ومفاخرها، وأخص بالذكر منهم ذا الوزارتين لسان الدين بن الخطيب، الذي قال في حقها في كتابه: «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار»(5):

«تلك كورة(6)، وقاعدة مذكورة، ومدينة محمودة مشكورة، كانت ذات تقديم، ودار ملك قديم، وبلد تبر وأديم، ومنمى تجر ومكسب عديم(7). معدن التمر، بحكمة صاحب الخلق والأمر، وتتعدد أنواعه فتعي الحساب، وتجم بها فوائده فتحسب الإقتناء والاكتساب. قد استدار بها ـ لحلق السور ـ الأمر العجاب، والقطر الذي تحار في ساحته النجاب، فضرب منه على عذارها الحجاب(8)، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب(9)، يحيط بها مرحلة راكب، ويصيرها سماء مخضرة ذات كواكب. فمنازلها لاتنال بهوان، وفدنها ودمنها تحت صوان، ونخلها تطل من خلف الجدار، وتتبوأ الإيمان والدار،

1ـ هي الريصاني حاليا، تبعد عن أرفود بحوالي 21كلم، والراشدية 74كلم، وعن الرباط بحوالي 556كلم.

2ـ الأستاذ عبد العزيز به عبد الله، معلمة الصحراء، ملحق: 1، ص: 62.

3ـ عبد الرحمان بن خلدون، تاريخه: ج: 6، ص: 267.

4ـ ذ. عبد العزيز بن عبد الله، معطيات الحضارة المغربية، ج: 2، ص: 55.

5ـ تحقيق: الدكتور محمد كمال شبانه، ص: 180ـ181.

6ـ كورة: مدينة وصقع، والجمع: كور.

7ـ أي لا نظير له.

8ـ كناية عن السور المحيط بالمدينة، والذي قيل إن طوله أربعون ميلا.

9ـ اقتباس من قول الله تعالى: «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: انظرونا نقتبس من نوركم، قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا، فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب». سورة الحديد، آية: 13.

وحللها مبثوثة بين الدمن، وضياعها تتملك على مر الزمن، وسوائمها آلفة للسمن، موجودة بنزر الثمن. وفواكهها جميمة، ونعمها عميمة. وسورها حصين مشيد، وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد(10)، وسقيها يخص دار الملك بحظ معلوم، ويرجع إلى وال يكف كل ظلوم.

وهي أم البلدان، المجاورة لحدود السودان، فتقصدها ـ بالتبر ـ القوافل، وتهدى إلى محرابها النوافل، والرفاهية بها فاشية، والنشافى(11) الحلية ناشية(12). لكنها معركة غبار، وقتيل عقربها جبار(13)، ولباسها خامل، والجفاء بها شامل. والجو يسفر عن الوجه القطوب، والمطر معدود من الخطوب، لبناء جدرانها بالطوب. والقرع برؤوس أهلها عابث، والعمش(14) في جفونهم لابث، والحصا يصيبهم، ويتوفر منه نصيبهم».

إنه وصف دقيق وحيٌّ لسجلماسة وأهلها في ماضيها وحاضرها، يعتمد على المشاهدة، والنظرة التاريخية، في قالب فني رفيع يعكس شخصية ابن الخطيب الأدبية الفذة.

وإذا كان هذا الوصف قد كتبه صاحبه في عصر المرينيين، أي بعد انقضاء عصر الموحدين ـ الذي هو بيت القصيدة في هذا المقال ـ وأفول شمس دولتهم العظمى، فإنه ينطبق، في معظمه، على ماقبله وبعده: فقد كانت سجلماسة مركزا إشعاعيا في العصر المرابطي، وقاعدة عسكرية يستعين بها المرابطون في الحرب والمواجهة(15).

وبلغت سجلماسة شأوا عظيما في المجد والرفعة في العصر الموحدي، الذي يعتبر من أزهى عصور الفكر والأدب في مغرب الوحدة(16)، وخصوصا في عهد ولاية الأمير الشاعر أبي الربيع سليمان(17)، حيث غدت كعبة يحج إليها أساطين الفكر وجهابذة اللغة والأدب، من كل حدب وصوب، للمشاركة في المجالس العلمية والأدبية التي كانت تنظم بحضرته، والتي كانت تجري فيها عدة مساجلات ومطارحات طريفة، يدلي فيها الأمير بدلوه، فبذت بذلك بعض حواضر الإسلام في المقام وذيوع الصيت. وكان كبار الأعلام الذين يردون على حضرته مسترفدين، يصدرون عنها والسنتهم تلهج بالمدح والثناء(18).

وحسبه فخارا ما وصفه به جامع ديوانه محمد بن عبد الحق الغساني(19): «من حلي بمحاسنه عاطل الدهر، وفخر بجميل مناقبه وكريم ضرائبه لسان الزمان والعصر، الذي أحيى من العلوم ماكان مواتا، ونشر منها ما أعاده الإهمال رُفاتا، وطلقه الناس بتاتا».

10ـ من أشهر خلفاء بني العباس: حكم هارون الرشيد (170ـ193 هـ)، والمعتصم (218ـ227 هـ). وهو يبالغ في تعظيم شان الجسر المؤدي إلى المدينة.

11ـ النشافي الحلية: الأحجار ذات الثقوب، تستعملها النساء في الحمامات.

12ـ ناشية: ذات رائحة طيبة.

13ـ جبار: هدر وذهب دم القتيل جبارا، أي لم يؤخذ له بالقصاص ولا بالدية.

14ـ العمش: ضعف الرؤية مع سيلان دمع العين في أكثر أوقاتها، فهو أعمش، وهي عمشاء.

15ـ ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 19، والحلل الموشية، ص: 131.

16ـ الأستاذ محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين.

17ـ الدكتور عباس الجراري: الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي.

18ـ الأستاذ عبد الله كنون، النبوغ، ص/ 168.

19ـ مقدمة الديوان.

واستمر اعتناء الموحدين بحاضرة سجلماسة إلى نهاية مطاف دولتهم وفي أعسر الأوقات، وأصعب الظروف، حيث كانوا يجتازون دورة عصيبة بسبب ضعف نفوذهم السياسي في الداخل والخارج، وظهور تباشير دولة بني مرين في الأفق.

ولعل خير مايمثل هذا الاعتناء المخاطبة الجمهورية التالية في تقديم عامل وناظر في المجبى بسجلماسة وما إليها، وهي مقتطفة من مجموع رسائل ديوانية مخطوطة(20) بالخزانة الحسنية العامرة بالرباط، ونصها(21):

«إلى الأشياخ والأعيان والكافة من أهل سجلماسة وأعمالها وقبائلها وسائر من يرجع إليها ـ وأدام الله كرامتهم بتقواه، وأنام عيونهم قريرة في قرار الأمن ومثواه ـ وإنا كتبناه ـ كتب الله تعالى لكم إقبالا ـ على الشأن الذي يصلح أعمالكم وينجح آمالكم، واستقبالا على الخير الذي يسدد أحوالكم، ويمهد جلالكم. والمحافظة من وظيفة دينكم على ما يزلفكم لديه. وأن تعلموا أن أهم مانجيل فيه الخاطر ونعمله، وآكد مانواليه من النظر ونصله، هو ما يعود على البلاد وأهلها بالحماية، ويفي لها من إقامة المصالح بالكفاية، ونوفيها قسط التهمم بشؤونها والعناية، وإذا اشتركت الأقطار لدينا في هذا المذهب، وكنا لا نعدل في التولي لمهامها وتوالي التعهد لخاصها وعامها عن هذا المهيع الأنجب، فلبلادكم منا مزيد تعهد وتفقد في كل الآناء، ولنا في تمهيد أرجائها وتأمين دهمائها قصد لا ينثنى عنها بحال عنان الإعتنان. وبموجب هذا القصد الذي في جوانبكم اعتمدناه، وبمقتضى إيثاركم بأحسن ما للرعايا نتولاه، ألقينا الآن بأزمة أموركم فيما يعود بالصلاح على خاصتكم وجمهوركم لمن وثقنا بغنائه واكتفائه، واستنهنا إلى سداد مقاصده وأنحائه، ووقف منا عليه الإختيار بمنصبه الذي بذ فيه كافة نظرائه. ذلكم فلان ـ وصَلَ الله أثرته ومبرته ووالى حظوته ومكانته ـ وهو السابق بذاته وسلفه في أشياخ هذا الأمر العلي، والمتميز في حزب التوحيد بالمحل السَّني والمكان الحظي، والذي لم يزل في خدمتنا سالكا على السَّنن السَّوي الجلي. وقد تلقى وصايانا له بتقوى الله في كل متصرفاته أجمل تلق، ووادعنا على أن يثني فيكم عن عدل ورفق، وأن يمشي مصالح كلها على ما للحق والشرع من وفق. وأمرناه(22) أن يمهد بلادكم بما يعمله من عزم يحسم عنها الأدواء ويطهر بكم من اشتداد يمحق البغي والاعتداء، ويرهب بها كل من جانب الاعتدال والاستواء، حتى يرتدع عن الفساد من اعتاده، ويتدع في كنف الأمان من لزم استقامته وسداده، ومن لج في ارتكاب هواه، وأطاع شيطانه فيما إليه استهواه، وتمادى في الإصرار على قبيح الآثار تمادي من أضله وأشقاه، فالسيف منه مريح، والشرع لسفك دمه مبيح، وبالشدة على أهل الشر

20ـ توجد الدراسة التحليلية التي قدمتها عنه في مجلة «دعوة الحق» الغراء، العدد: 272، السنة 1409هـ ـ 1988، ص: 150ـ166.

21ـ ص: 30ـ31.

22ـ تعرض السطر الأخير من صفحة: 30 لعبط الأرضة، وهو: «عن عدل... وأمرناه». وقد اجتهدت في ترميمه حسب بقايا بعض الحروف، واستقامة المعنى.

تصلح أحوال الرعية وتحسن، وبكف العادية عنا تأمن وتسكن ـ بحول الله تعالى ـ وجعلنا له أن ينظر في أشغال المجبى ـ ثمره الله ـ مع من يتعين لها نظرا ضابطا لقليله وكثيره، عائدا بتوفيره وتثميره، وأن لا يقع دونه انفراد فيه بتنفير أمر أو توقيفه، ولا يخرج عنه شيء إلا بعد مطالعته وتعريفه، والإذن منه في إخراجه بمقتضى المصلحة وتصريفه. فإذا وافاكم ـ بمعونة الله تعالى ـ فانقادوا إليه كل الانقياد، وتعاونو معه على ما يتولاه في مصالح بلادكم ومنافعها من الإصدار والإيراد، ويديمه من الذب عنها لأهل الفساد والعناد، والحماية لها من كل باغ وعاد، والتأمين لكل رائح عليها من أهلها وغاد. واقدروا قدر إيثارنا لكم منه بمن لا يعدل فيكم عن سديد قضاء وجميل مراد. ولا تزال محاولاته كلها فيكم واقعة منا موضع استحسان وإحماد إن شاء الله تعالى».

فالمخاطبة في الأصل رسالة ديوانية، موضوعها تعيين عامل وناظر في المجبى بإقليم سجلماسة، وهي عارية من إسم المرسل، والعامل المعين، والتاريخ، وكل ماورد ذكره بها هو إسم المرسل إليهم، وهم: «الأشياخ والأعيان والكافة من أهل سجلماسة وأعمالها وقبائلها وسائر من يرجع إليها».

وبعملية البحث في «مجموع الرسائل» السابق الذكر، إتّضح لي أن الرسالة صادرة عن الخليفة المرتضى(23) من حضرة مراكش، ببراع كاتبه أبي الحسن الرعيني(24).

وبالرجوع إلى المصادر التاريخية نجد أن العمال الذين تقلدوا شؤون سجلماسة في خلافة المرتضى هم: الشيخ أبو محمد عبد الحق الجنفيسي، والقطراني، والفقيه القاضي أبو عمر بن حجاج.

فأيهم المقصود بالتعيين في هذه المخاطبة ؟ الغالب على الظن أنه أولهم: الشيخ أبو محمد عبد الحق الجنفيسي، الذي قدمه الخليفة المرتضى على سجلماسة و «أسند له أمرها وأمر درعة وغيرها»(25).

ولعل ماورد في الرسالة عن سجلماسة: «أعمالها وقبائلها وسائر من يرجع إليها»، وعن أوصاف العامل المعين: «وهو السابق بذاته وسلفه في أشياخ هذا الأمر العلي، والمتميز في حزب التوحيد بالمحل السني السوي الجلي» ينطبق تماما على العامل المذكور.

وبتمعننا في الرسالة نجد أنها تتضمن صراحة اعتناء الخليفة المرتضى بسجلماسة وشؤونها الخاصة والعامة. ويتجلى ذلك في المظاهر التالية:

1ـ مخاطبة الأشياخ والأعيان والكافة من أهل سجلماسة: «وأن تعلموا أن أهم ما نجيل فيه الخاطر ونعمله وآكد ما نواليه من النظر وفصله هو ما يعود على البلاد وأهلها بالحماية ويفي لها من إقامة المصالح بالكفاية، ونوفيها قسط التهمم بشؤونها والعناية»، ومثله أيضا: «فلبلادكم منا مزيد تعهد وتفقد في كل الآناء، ولنا في تمهيد أرجائها وتأمين

23ـ هو عمر بن ابي إبراهيم بن ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. يكنى اباحفص. خلافته: (646ـ665هـ).

24ـ هو علي بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمان بن هيصم، يلقب: ابن الفخار، ولد باشبيلية سنة 592هـ وتوفي بمراكش سنة 666هـ

25ـ البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 411.

دهمائها(26) قصد لا ينثني عنها بحال عنان(27) الإعتناء».

2ـ الإخبار بتعيين العامل الجديد: «ألقينا الآن بأزمة أموركم فيما يعود بالصلاح على خاصتكم وجمهوركم».

3ـ وصايا الخليفة له: «وأن يمشي مصالحكم كلها على ما للحق والشرع من وفق.

4ـ الأوامر الموجهة إليه: «أن يمهد بلادكم بما يعمله من عزم يحسم عنها الأدواء».

5ـ إيعاد المتمادين في الضلالة والظلم: «وبالشدة على أهل الشر تصلح أحوال الرعية وتحسن، وبكف العادية(28) عنها تأمن وتسكن».

6ـ النظر في شؤون المجبى(29) ومراقبته: «والإذن منه(30) في إخراجه بمقتضى المصلحة وتصريفه».

7ـ التوصية بالعامل خيرا: «وتعاونوا معه على ما يتولاه في مصالح بلادكم ومنافعها من الإصدار والإيراد، ويديمه من الذب(31) عنها لأهل الفساد والعناد، والحماية لها من كل باغ وعاد، والتأمين لكل رائح عليها من أهلها وغادٍ.

يَبِين لنا من هذه المظاهر، وبكل وضوح، اعتناء الخليفة الموحد المرتضى بشؤون سجلماسة الإجتماعية والإقتصادية، والذي خول للعامل الجديد سلطة واسعة شملت معظم مصالحها، وامتدت إلى درعة(32)، ومنح للولاية نوعا من الحكم اللامركزي.

وقد حافظ الخليفة المرتضى، كأسلافه، على الأصرة الروحية التي طالما ربطت بين الحاكم والمحكومين، والتي تقوم على مبدأي العدل والطاعة: عدل الخليفة ورفقه برعيته وتعهد مصالحهم الخاصة والعامة، وامتثال الرعية وطاعتها للخليفة.

وتظل ظاهرة اعتناء الخليفة المرتضى بسجلماسة صورة مصغرة عن اعتناء الخلافة الموحدية بها. وسيستمر ذلك في عهد المرينيين الذي صادف مقام جد الشرفاء العلويين المولى الحسن الداخل بن القاسم بن محمد(33) في أحضانها، وكان قد قدم إليها في حدود سنة 664 هـ / 1265م، واستقر بها إلى أن توفي إلى رحمة ربه سنة 676 هـ / 1277م.

وسيمتد هذا الاعتناء إلى عهد انبلاج الدولة العلوية الشريفة، حيث بلغت ذروة مجدها بفضل تعهد ملوكها الأماجد لشؤونها الخاصة والعامة.

مكناس: إدريس العلوي البلغيثي

26ـ أهلها.

27ـ غاية.

28ـ الظلم.

29ـ الخراج.

30ـ الضمير يعود إلى العامل.

31ـ الدفاع.

32ـ جاء في وصفها بمعلمة المدن والقبائل: «مدينة مندرسة، يظهر أنها كانت تقع على نصف الطريق بين عكة والريصاني. وربما بالقرب من زاكورة». الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية. ملحق: 1 ص: 195.

33ـ محمد الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة. ص: 5ـ6. محمد الوفراني، نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي، ص: 287ـ291.

كتبنا على سِفْر الخلود ملاحما

للشاعر موحا ومان

وقائلة ماذا اعتراك وما جرى ... لتهجر روض الأنس أو تنبذ الشعرا؟
فقلت لها يا أخت مهلا تبيني ... فلم أقطع الأرحام ولتقبلي العذرا
فشيطان شعري إن دعته صبابتي ... تولى، وللأمجاد يلهمني الدرا
قفي نبن للأوطان مجدا وعزة ... كفاذا قفا نبك الحبيب أو القفرا
قفي نشد للذكرى بكل جلالها ... وأعظم بها ذكرى نزيد بها فخرا
أهلت وفي سهل وفي كل ربوة ... بصحرائنا ظل لرايتنا الحمرا

****

مضينا بلا سيف بلا مدفع سوى ... بعزم به شعبي لكم قهر القهرا
سقينا الرمال الغبر دمعا بنشوة ... وسرنا وعين الحاسدين ترى شزرا
تردد ذكر الله في كل هضبة ... ومن يعتصم بالله لن يعرف الخسرا
حشود - وما استثنت عجوزا ولا فتى ... قد استرخصت من أجل عزتها تِبْرا
تدوس الحدود الكاذبات قريرة ... تثير بها نقعا، تعيد بها بدرا
كتبنا على سِفْر الخلود ملاحما ... ومجدا عظيم الشأن قد ملأ السفرا

****

تساءل من بالشرق والغرب مطرق ... أواقعة حلت ونحن نرى الحشرا؟
فلا تعجبوا يا قوم إن هب مغربي ... فحقق في ربع عزيز له النصرا
فمن عقبة الفهري إلى حَسَن الرضى ... أذقنا فلول الكائدين لنا مرا
ونحن الأباة المومنون بحقهم ... فتالله إنا لن نضيع ولو شبرا
وقلنا لكل الطامعين: تيقنوا ... بأنا وحق الشعب لن نرهب الضرا
وقلنا لكل الغادرين ومن هووا ... ضلالا: فلن تجنوا كثيرا ولا نزرا

****

هنا منبت الأبطال منطلق الفدا ... سلوا الأطلس الجبار ينبكمو خبرا
هنا الحسن الشهم الحكيم إذا دعا ... لملحمة شعبا به اقتحم الوعرا
دعانا ليوم الفتح فاستبق الخطى ... برمته شعب ليفتدي الصحرا
دعانا لإنماء العيون وأسمرا ... فنافست البيضاء في بذلها الحمرا
فلسنا نريد الأرض مجدبة عَرَا ... ولكن بعزم سوف نملأها زَهرا
نقيم على سدر على حبن على ... كثيب جنان الخير زاهية خضرا
ونعلنها حربا على الجهل والخنا ... وننشر نور العلم في ربعنا نشرا

****

إليك إذا يوما أهاب بشعبه ... رأيت الدنا تصغي، تطيع له الأمرا
حملت هموم العرب وهي ثقيلة ... تنازل من يبغي بوحدتها بترا
وأنى اشتكت ضيما عروبتنا احتمت ... بهمتك القعسا تشد لها أزرا
إليك رحابُ القدس تهفو كليمة ... عساك رئيس القدس تستنقذ الصخرا
تطهر محرابا وأرضا زكية ... بها المصطفى صلى ليل معجزة الإسرا
عقود من العمر المديد صرفتها ... تذود عن الإسلام تنصره نصرا

فـواعجبـا للـوغـد ضـل صـوابـه ... ليقترف الآثـام والفعلـة النكـرا
تنكـر لـلأوطـان وارتـد كـافـرا ... ومـا عـود المرتـد شيئـا عـدا الغـدرا
ويحلم بـالتمـزيـق والأسـد هـاهنـا ... تلقنـه درسـا وتلقمـه جمرا
ومـا ضره يـومـا لـو استرشـد النهى ... وأقبـل لـلأعتـاب يلتمس العـذرا
ولكنهـا الـدنيـا ولكنـه القضـا ... ومن يضلل الـرحمان يستحْبِب الكفـرا

****

سـلام على تلـك الجنـود وواكبت ... عنـايـة رب العـرش وثبتهـا الكبرى
سـلام على شعـب إذا جـد جـده ... لمكـرمـة راعـت مكـاسبـه الـدهـرا
تقبـل أمير المؤمنين مـدائحـي ... تلقيتهـا وحيـا فصغـت بها شعـرا
ودم للمعـالي تستحـث ركـابها ... إذا أدركـت نعمـى مضيـت إلى أخـرى
ولـلأسرة الغـرا وزينـة عقـدهـا ... وفـائي وصـدق الحب أشـدو بـه العمـرا

موحى ومان

" بثباتك وصبرك وبتضحياتك بسلطانك وعرشك لقنت للمواطنين دروس التضحية والفداء ورسمت لهم طريق الحرية ... فتسابقوا للمقاومة والتضحية ... وبين عشية وضحاها عدت لها نه الأمة وأنت رمز فداها بل أنت مبتدأ التضحية ومنتهاها حاملا في يُمناك اليُمن والاستقلال وفي يُسراك اليُسر والإقبال ".

الحسن الثاني

(محمد الخامس. فكرة وعقيدة. ص 250)

رسول الإنسانية

الأستاذ عبد القادر العافية

لعله ليس من قبيل المصادفة أن يختار الدكتور الأمريكي (مايكل هارت) سيدنا محمدا ﷺ على رأس الخالدين المائة ـ لأنه لا مجال للعاطفة عند أمثاله من علماء الغرب. وقد علل اختياره بقوله: «إن محمدا كان هو الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح في المجالين الديني والدنيوي، فقد أتم رسالته الدينية بنفسه ولم يتركها لغيره ليتممها، كما فعل المسيح مثلا، ولم يشاركه في إتمامها غيره، كما حدث مع موسى، ثم هو استطاع أن يحول رسالته الدينية إلى تنظيم اجتماعي تركه قائما ممثلا في دولة إسلامية لها كيان قوي تسهر عليه وتحميه، ولم يكن في فعله يتبع تنظيمًا مسبوقاً به كما فعل غيره. وإنما قد خلق تنظيمه خلقا...» إلى آخر ما قال. إن مثل هذا الكلام لم يصدر عن الباحث الأمريكي إلا بعد قيامه بعملية استقراء واستقصاء لتاريخ الأمم والدول... وبعد تمعن ذكي فاحص توصل إلى النتيجة التي أعلنها للناس جميعا وهي: أن رسالة سيدنا محمد ﷺ تنفرد بمزايا لا توجد في غيرها من الرسالات السماوية والوضعية، والزعامات السياسية...»

ورب قائل يقول: «نحن المسلمين في غنى عن هذه التزكية من أجنبي لا يدين بديننا، وهنا نقول: شهادة الحق إذا جاءت على لسان غيرنا يكون وقعها أوقع في النفس.

ومهما يكن من أمر، فالذي لا جدال فيه هو أن سيدنا محمدا ﷺ تميزت رسالته بمزايا لا حصر لها في مختلف جوانب الحياة وميادينها. وفي هذه العجالة نسلط بعض الأضواء على بعض القضايا التي كانت قبل بعثته ﷺ غامضة، ومشوهة، مع أنها من صميم ما تجب معرفته ووضوح الرؤية فيه. فمن ذلك مثلا قضية التوحيد وهي قضية هامة، إذ التوحيد هو أساس العقيدة، والعقيدة عليها تنبني الطاعة والامتثال...

فالتوحيد قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ كان قد أصيب بنكبة قاسية، حيث تلوث بأوهام الشرك، وخرافة تعدد الآلهة، كوثنية العرب في الجاهلية، ومجوسية الفرس، ووثنية هنا وهناك. وسادت مظاهر الشرك في مجتمعات ما قبل الإسلام، وتسرب الشرك لأتباع الدين السماوي. فالنصارى يقولون: «إن الله ثالث ثلاثة» ويقولون: «المسيح ابن الله» واليهود يقولون: «عزير ابن الله» فالشرك قبل الإسلام كان سائدا بين أتباع الرسل وغيرهم. فجاء سيدنا محمد ﷺ بالتوحيد الخالص، التوحيد الذي أقرته الرسالات السماوية مع سيدنا آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى... عليهم السلام.

هذا التوحيد كان قد فقد مصداقيته، وخَبَتْ جذوته في نفوس أتباع الدين السماوي فبالأحرى غيرهم.

ولذلك كانت بعثة سيدنا محمد ﷺ إحياء للإيمان بالله وتمجيدا لوحدانيته، وتعريفا بالتوحيد الحق فهو ﷺ باعث التوحيد ومعلمه، وجعل من ذلك وظيفته التي ثابر عليها وجاهد في سبيلها وواظب على أدائها... فبلغ التوحيد الحق للناس بلاغا ليس وراءه بلاغ، وبين لهم وحدة خالقهم أجمل بيان، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون التوحيد الحق، بل كل طائفة تنظر إلى الخالق والكون بمنظرها الخاص، وكان أتباع الأنبياء والمرسلين يكفر بعضهم بعضا.

ويعترف المنصفون من العلماء والباحثين بأن سيدنا محمدا ﷺ أحيى دين التوحيد الذي من أجله بعث الله أنبياءه ورسله، وبأن رسالته ﷺ تميزت بالدعوة إلى التوحيد الخالص وباستبعاد كل مظاهر الشرك والوثنية...

ويؤكد القرآن الكريم في غير ما آية على التوحيد، ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾ وأمره ربه عزوجل أن ينادي أهل الكتاب إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿**قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾.

وكان الأنبياء والرسل يؤكدون لأقوامهم أن الله واحد، وكلهم كان يخاطب قومه: «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» لكن ديانة التوحيد تلاشت في نفوس الناس، وكانت في أمس الحاجة إلى من يبعثها نقية صافية من كل شائبة زيغ أو انحراف...

فجاء سيدنا محمد ﷺ ليوحد الدين في أذهان الناس، وليشرح لهم معنى التوحيد وليقول لهم عن ربه عزوجل: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾

وليعلن لهم: ﴿**إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد...**﴾ ويقول عز من قائل: ﴿**قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون**﴾

ومن القضايا التي أوضحتها الرسالة المحمدية قضية وحدة الرسالات الإلهية وأن الله تعالى هو باعث الأنبياء جميعا وإن إيمان المؤمن لا يتم إلا بالتصديق بالأنبياء والرسل كلهم.

قال تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمومنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله**﴾

ومعلوم أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بجميع الأنبياء، لقد كذب اليهود سيدنا عيسى عليه السلام،

وكفر النصارى بما جاء به موسى عليه السلام.

فرسولنا محمد ﷺ أثبت للعالمين أن الرسل والأنبياء هم على دين واحد، هو دين التوحيد، وأنهم جميعا يهدفون إلى نشر رسالة الله بين الناس في الأرض، يقول تعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**.

فنبي الإسلام وحد الدين في أذهان الناس، وبين لهم معنى النبوة والرسالة، لأن معنى النبي والرسول كان غامضا في أذهانهم.

وبين لهم أن الرسل والأنبياء كلهم على دين واحد وهو دين التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له. إذا اختلفت الشرائع من نبي إلى نبي، فإن العقيدة واحدة، والتوحيد واحد، وجاء بعد الآية السالفة قوله تعالى: **﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب...﴾**

الذي يدعو إليه محمد ﷺ من وحدة الدين والعقيدة كبر على المشركين أن يتصوروه، ورأوه شيئا كبيرا؛ لأنهم لا يعترفون بوحدة الدين السماوي، ولم يدركوا أن الله تعالى يجتبي إليه من يشاء من الرسل، ويهدي إليه من ينيب، ويطيع من العباد.

ثم يقول تعالى: **﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾** أي أن أهل الكتاب تفرقوا على أنبيائهم، وكذب بعضهم بعضاً من بعدما علموا أن الفرقة ضلال، ومن بعدما حذرهم أنبياؤهم من الفرقة، فكان هذا التفرق بغياً بينهم أي حسداً وطلبا للرئاسة، وسبب ذلك أنهم لم يدركوا حقيقة الرسالة الإلهية.

ثم يقول تعالى: **﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾** أي لولا أن بعثتك يا محمد آيته لأهلكهم الله بسبب بغيهم، وعدم فهمهم لحقيقة النبوة، والرسالة الإلهية.

ثم يقول تعالى: **﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب، فلذلك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم...﴾**.

﴿الذين أورثوا الكتاب﴾ هم أهل الكتاب في عهد النبي ﷺ وهم في شك مريب من كتابهم، أي لا يؤمنون به حق الإيمان؛ حيث تعدد عندهم نصوصه، وكل نص يخالف الآخر.

فمعركة تثبيت الإيمان حامية الوطيس بين النبي ﷺ وبين المنكرين للتوحيد الحق، ولذا جاء التأكيد الإلهي يقول لرسوله الكريم: **﴿فلذلك فادع، واستقم ـ على التوحيد ـ كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم﴾** : أهواء أهل الكتاب وغيرهم من المشركين.

والقضية الثالثة :

رسولنا عليه الصلاة والسلام كما جاء بالتوحيد الخالص، وبالدعوة إلى الإيمان بسائر الأنبياء؛ لأنهم على منهج واحد من لدن آدم إلى سيدنا محمد ﷺ جاء بالمنظور الوحدوي إلى الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه.

لقد كان اليهود لا يصدقون إلا بما جاء في التوراة، والنصارى لا يعترفون إلا بما كتبوه في أناجيلهم، وجاء سيدنا محمد ﷺ ليعلن أن الكتب المنزلة على الأنبياء كلها من عند الله، وأن الإيمان بها كالإيمان بالقرآن، فكما يكفر جاحد القرآن يكفر الجاحد بتلك الكتب!!

وهذه الكتب بعضها مذكور في القرآن الكريم كالتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، والصحف الأولى... فالنظرة الإسلامية إلى الدين هي نظرة شمولية، قال تعالى مخاطبا نبيه: **﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾**.

وفي حديث جبريل كان الجواب عن ماهية الإيمان: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله...»

فهذه النظرة إلى الكتب السماوية لم يعرفها المتدينون قبل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

والقضية الرابعة :

وحدة أصل الإنسان. فالرسالة المحمدية تنظر إلى الإنسان نظرة سامية، وتقرر أن الإنسان في أصله واحد، وإن تباعدت به الأمكنة، وتباينت أفكاره وعقائده، وتعددت أجناسه وألوانه... يقول تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** وقال النبي ﷺ: «كلكم من آدم، وآدم من تراب»

وبهذه النظرة إلى وحدة الإنسان تبطل دعاوي الذين يقولون: «إنهم شعب الله المختار»!! أو من يقولون: إنهم يجري في عروقهم الدم الممتاز، وتبطل كل دعاوي الامتياز، والنخبوية المبنية على العرق والسلالة...

ونظرة الإسلام للإنسان فيها تكريم له، وهي نظرة لم تكن سائدة قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ.

ويقرر الإسلام أن الإنسان هو أشرف المخلوقات أسجد الله له ملائكته، وجعله خليفة في الأرض، وحمله الأمانة الكبرى التي عجزت المخلوقات الأخرى عن حملها، يقول تعالى: **﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾**.

فالملائكة المقربون لم ينالوا هذا المنصب الذي هو تحمل الأمانة، فالإنسان في الإسلام معزز مكرم، خلقه الله في أحسن تقويم، وزوده بمدارك ومؤهلات، وجاءت تعاليم سيدنا محمد ﷺ لتعلي من قدره، ولترقى به، ولتبث فيه الشعور والإحساس بقيمة الفضيلة، وعملت على غرس مكارم الأخلاق في نفسه ليكون جديرا بتحمل الرسالة الإنسانية، والأمانة العظمى.

فتعاليم سيدنا محمد ﷺ حررت الإنسان من عبادة غير الله، وحررته من الخرافات والخزعبلات، ومن التفاخر الكاذب والادعاءات المضحكة.

فاليهود يقولون: «نحن أبناء الله وأحباؤه، وأهل الهند كانوا يزعمون: أن البراهمة ولدوا من فم الله، والراجبوت من عضده، والمنبوذون من رجله، والبَوْنُ عندهم شاسع بين هذه الطبقات».

وكان الرومان يرون أن لهم وحدهم الحق في استعباد الناس واستخدامهم، وقسموا مجتمعهم إلى طبقات عالية، وطبقات سفلى، وإلى عزيزة وذليلة، ورفيعة ووضيعة... وعلى مثل هؤلاء يرد القرآن الكريم: **﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾**.

ورسولنا ﷺ هو الذي أرسى قاعدة المساواة بين الناس.

ومنه اقتبس الغرب ديمقراطيتهم التي يتبجحون بها، فهو ﷺ يقول: «الناس كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود، فأسلاف الغربيين من الإغريق والرومان قسموا

الناس إلى عبيد وأحرار، وإلى من له الحق في المواطنة، وإلى من ليس له الحق فيها...»!!

فجاءت تعاليم رسولنا محمد ﷺ تقول: «لا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل والتقوى، فالمواطنة الكريمة، والحياة الحرة مضمونة لكل أحد، ومدار قيمة الإنسان في الإسلام على ما يصدر منه من عمل صالح، وأخلاق فاضلة»، قال تعالى: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**. وقال تعالى: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**.

وبعد ما ركز الإسلام على وحدة العقيدة ووحدة الدين، وعلى وحدة الهدف من الرسالات السماوية، ووحدة المنهاج عند الأنبياء والرسل، ووحدة مصدر الكتب المنزلة من عند الله تعالى، ووحدة الأصل الإنساني، وأن كل إنسان مساو للآخر في إنسانيته... بعد أن ركز على هذه الدعائم، وأرسى قواعدها عمليا، وكان ﷺ هو الأسوة والقدوة، اهتم بقضايا الأخلاق والسلوك بين الناس، لأن الأخلاق الكريمة هي أساس التعايش بين الناس، وقد اعتنى الإسلام بهذا الجانب عناية كبيرة.

عبد القادر العافية

دعوة الرسول دعوة الحق

الأستاذ عثمان بن خضراء

كلما هل هلال ربيع الأول من كل عام استشرفت نفوس المسلمين من كل صقع من أصقاع البلاد الإسلامية لبزوغ اليوم الثاني عشر منه: يوم ولادة الرسول الأعظم منقذ البشرية وهادي الإنسانية تستنشي فيه عبير الأخلاق العالية، وتتنسم نسائم الرجولة الحقة والبطولة النادرة والهداية الكاملة.

إنه ليوم أغر من الزمان مشهر في أيام السنة كلها: يذكرنا بالشريعة السمحة والنعمة السابغة والعزة الغالبة والمجد الكامل والشرف المؤبد التي تجمعت كلها في مدلول اسم محمد -ﷺ- فكان من إشراقها على الكون ما سطرته صحائف الوجود من نهضة دينية صادقة تلتها نهضة فكرية ونهضة سياسية عاصفة اجتاحت دعائم الحكم الوثني والتقاليد الرجعية الباطلة... وأقامت على أنقاضها دولة فتية في أمد قليل جمعت إلى الدين الصحيح حسن السلوك في المعاملات الفردية والجماعية، وإلى الدعوة الخالصة إلى الأخوة والمساواة والعدل... خلوص الضمير وصدق المبادئ.

ثم ما فتئت تلك الدولة ترسل أشعة هدايتها إلى الخافقين فتنير الطريق للسَّارين، وتبشر بالدين القويم، وتهذب بالأخلاق السامية، حتى أحدثت انقلاباً كبيراً هز أعصاب الدنيا المخدرة ودفع ركب الحياة المتهالك الذي كاد يسقط إعياء وكلالا... إلى أن يستجد نشاطه ويعزز آماله ثم يسير قدماً إلى الأمام بانياً منتجاً، كما تتطلبه منه الفطرة المستقيمة ويمليه عليه الشعور بالكمال.

حقّاً إنه نور أضاء أرجاء العالم بعد أن كان يتخبط في دياجير ظلام الجهل والفاقة والبغضاء والشحناء والتطاحن المادي، حيث كان العالم عموماً والعرب خصوصاً قبل مولد هذا النور الذي هو سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، تتحكم فيه النزعات والأهواء وتقبض على زمام أمره العداوة والبغضاء وتسيطر عليه الإقطاعيات.

لقد سجل التاريخ يوم مولد الرسول الأعظم والنبي الأكرم في صفحاته الذهبية... وشرف للتاريخ أن يضم بين صفحاته صفحات ناصعة، براقة،

مشرقة لا تشوبها أية شائبة من حياة سيد الكائنات ومنقذ البشرية... وشرف للإنسانية أن يكون في طليعتها ومقدمتها إنسان لا ككل الناس... إنسان هو الطهر كله، وإن شئت قلت اجتمعت فيه معاني سامية، فإذا أردت أن تعبر عن معنى للفضيلة وجدتها تنطبق على شخصية الرسول نفسه... وهكذا قل في كل معنى للكرم... والعزة... والأمانة... والصدق... والإخلاص... والوفاء... والتواضع... والحلم... والشجاعة... وغير ذلك .

نعم، لم يكن للعرب ذكر سوى أنهم قوم رُحَّل يعبدون الأصنام والأوثان، لكن لما أراد الله تعالى أن يكرم هذه الأمة ويجعلها تحتل الصدارة العظمى بين الأمم، بعث منها نبياً عليه السلام، وكان بعثه انقلاباً عظيمًا في حياة العرب، فأصبحوا أمة ذات سيادة وعزة وكرامة، ودانت لهم بفضله أمتان عظيمتان هما: الفُرس والروم، فانطوى الجميع تحت لواء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وسوت كلمة الإسلام بين الجميع، بين الغني والفقير، بين الشريف والوضيع، بين العظيم والحقير، لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، وأكرمهم عند الله أتقاهم، وبذلك انمحت العصبية القومية، وسدت في الوجود الفوارق والحيثيات الشخصية.

إن المكتبات العالمية شرقاً وغرباً تزخر بالعديد من المؤلفات والأبحاث والدراسات عن شخصية الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام، وفيها يجد الباحثون والدارسون ذخيرة لدراساتهم في تلك الشخصية الخصبة الثرية، يجدون الزوايا الجديدة التي يناقشونها لأنهم تقدموا بكل ما يملكون من أسلحة علمية وأدبية وفنية ـ فقد شغلت سيرة الرسول الأكرم عدداً وافراً من القدماء منهم «كتاب السيرة» كابن إسحاق، وابن هشام، والواقدي، وابن سعد... ومنهم المؤرخون كالطبري وابن الأثير... ومنهم الفقهاء القضاة كالقاضي عياض ـ كما شغلت شخصيته عليه السلام كثيراً من المُحْدَثين كطه حسين، وتوفيق الحكيم، وحسين هيكل وغيرهم من الكتاب العرب المسلمين، وكذلك كثيراً من المستشرقين «كدر منقيم، وطور اندرى، ودومنيين، وبُلاشار وغيرهم.

إن الإنسان ليقف حائرا وقد طالع ما طالع من تلك الكتب، وإننا لنعلم عن الرسول سيدنا محمد ﷺ شيئا كثيرا، إلا أننا نحس في أنفسنا شوقا شديداً إلى المزيد من المعرفة ـ فكأن هذه الكتب لم تبرد غليلنا، وكأن أصحابها لم يوفوا الرسول حظه من الدرس والبحث، أو كأنهم اقتصروا على بعض مظاهر حياته وأغفلوا الأخرى. ثم إننا نلمس عند هؤلاء الكتاب تبايناً في النظر إلى الرسول، لاسيما عند المُحْدَثين منهم عامة والمستشرقين خاصة ـ فكأنهم عجزوا عن فهم حياته وشخصيته، أو لم ينهجوا في بحوثهم مناهج البحث العلمي الصحيح، أو غالوا في استعمال أصول النقد الحديث.

إننا حينما ننظر في كتب السيرة أو كتب الحديث نجد مادة غزيرة جداً ودقة في التقييد وتثبيتا في الرواية، فنأنس إلى صور من حياة الرسول قريبة من مأخذها، شبيهة بأصلها فتميل نفسنا إلى تصديقها والاقتناع بوصفها.

إن نظرة القدماء إلى حياة الرسول أصفى وأصدق لا يشوبها ما للمحدثين من الخيال القصصي، وما لبعض المستشرقين من الغلو في النقد والإسراف في

مذاهب الشك.

فمن القدماء من وصفوا محمداً نبياً، ولكن محمداً نبي، فإن لم تعتبر لنبوته شأنا فكيف لك التأليف في حياته تأليفا صحيحاً؟ ومنهم من وصفه بشراً، ولكن محمداً بشر أيضاً، فإن لم تره بشراً فكيف لك فهمه فهمًا صحيحاً؟

ومنهم من وصفه فاتحاً بطلاً وحاكمًا ذا مهارة في تسيير شؤون أمته الفتية، وبراعة في تكوين دولة عتيدة وسياسة أمورها ولكن محمداً رئيس دولة ناشئة نامية القوة، فإن لم تره كذلك فكيف لك إدراك ما كان في حياته من مظاهر الحُنكة السياسية وما زرعه في دولة الإسلام المتكونة الصاعدة من بذور القوة والقدرة على الغلب؟

وعلى كل، فما من كاتب أو باحث في المغرب أو المشرق يستطيع أن يحصر شمائل النبي الكريم أو يحصي فضائله، فعاش حياة كلها حسنات، وخطا خطوات كلها مكرمات، في أعماله القدوة الحسنة، ومن أفعاله التعليم والإرشاد، وفي سلوكه الأسوة الصالحة.

فنقطة البدء في عمله عليه السلام كانت إعداد جيل مؤمن يقدر على حمل رسالة الإسلام وتبليغها للناس كافة، وهذا الإعداد كان على نهج الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لهذه الأمة، وسار الكثير من الخلفاء الراشدين على سبيله، والذين آمنوا بسيدنا محمد وتسابقوا إلى الإسلام، وأكثرهم من الفقراء والضعفاء أصبحوا بفضل إيمانهم الصادق أئمة الدنيا وعمالقة المجتمع وسادة الوجود.

كنت ترى الرجل منهم على ضعف جسمه وضآلة جسده، وقلة ماله، وشدة فقره يدخل على الملوك والقياصرة والأكاسرة يهزهم ولا يهتز... ويخيفهم ولا يخاف منهم، ويرهبهم ولا يرهبهم... وذلك لأنه قوي بالله تعالى، غني بالحق، عزيز بالإيمان، هكذا رباهم الإسلام ودربهم على الشرف والكرامة، والعزة والنزاهة.

فالمؤمن الذي أراده محمد ﷺ هو ذلك...

الرجل الذي لا يلين لأنه الحق.

الرجل الذي لا يخيف لأنه العدل.

الرجل الذي لا ينحرف لأنه الإنصاف.

الرجل الذي لا يضعف لأنه القوة.

الرجل الذي لا يكذب لأنه الصدق.

الرجل الذي لا يخون لأنه الأمانة.

الرجل الذي لا يتذلل لأنه العزة.

وبهذه الصفات الفاضلة وهذه الشيم الكاملة وهذه الشمائل السامية واجه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام الحياة الجديدة في ظلال الإسلام. فلَم تَصُدَّهم قوة الظلم، ولم توقِفْهم جحافل الكفر، ولم يقهرهم سلطان مهما بلغ من الطاقة... فلئن ضاقت بهم ربوع مكة فأمامهم الآفاق الفسيحة في أرض الله الواسعة المديدة.

ولئن ابتعدوا عن موطنهم ومسقط رؤوسهم، فوطنهم إيمانهم أينما ذهبوا، وحيثما رحلوا وكيفما حلوا ـ والإيمان هو الإيمان، في كل مكان وزمان، يزداد مع الأحداث تألقاً وبريقاً، إذ الإيمان منبعه القلب ومصدره الروح... والإيمان الحقيقي في يد صاحبه مقود يوجهه نحو الخير ونبراس يضيء أمامه ظلمة الحياة ـ

الله أكبر ـ لقد ولد الإسلام بميلاد نبي الإسلام، فنشأ هذا الدين صغيراً ضعيفاً، كما نشأ صاحبه يتيماً وحيداً، ثم يكبر رويداً رويداً وينمو ويترعرع

ويتولاه رب الكون حتى يعم نوره أنحاء المعمورة، فينشر بين العرب الأمية الأمن والعدل والحرية والمساواة... ولا تنتصر على جزيرتهم وحدها، بل تنتقل إلى الفرس والعجم، فتغزو قلوبهم وتخرجهم من ظلمات الجهالة والشرك إلى نور المعرفة والتوحيد والمدنية.

ويتألق الإيمان ويتأصل بين حنايا الضلوع حتى يجعل صاحبه فوق الحياة، فلا يعبأ بنوازلها، ولا يهتز أمام أحداثها ولا يفتتن بمصائبها.

إن سمة هذا الدين الإسلامي هو التوحيد أشهد أن لا إله إلا الله وتثبيتها في القلب بالإيمان برسالة هذا الرسول ثم بتهذيب نفس الإنسان بالصلاة، وتزكيتها بالزكاة وبتعويدها الإخلاص في السر والعلانية بالصوم ثم بالهجرة إلى الله تعالى والتجرد من ثياب الدنيا وبهائها وزينتها بالحج والسعي إلى الله... وفي كل هذه العبادات العملية تحقيق وحدة الإنسانية... فيها اجتماع ومؤاخاة ومساواة وتبادل المنافع وسد الحاجات وقضاء الحقوق ومشاركة المشاعر وألفة القلوب. هذه الوحدة الإنسانية المتمثلة في الصلاة جماعة وإلى قبلة واحدة، وصوم شهر واحد، والوحدة في الهجرة إلى مكان واحد متفرعة من توحيد الله سبحانه الذي جاء به هذا الرسول الكريم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

لقد جاء ميلاده الشريف ليدعو الناس إلى مكارم الأخلاق، وكان أحسن الناس خُلُقاً وبذلك أحبه أتباعه وأصحابه، واحتمى بظل عدله حتى خصومه وأعداؤه، ودعا إلى معاملة الناس بالعدل والقسطاس حيث نزل عليه من ربه: ﴿ولا يَجْرِمَنَّكم شنئانُ قومٍ على أن لا تعدلوا، إعْدِلوا هو أقرب للتقوى﴾.

كما أقرت ولادته الكريمة الدعوة إلى الشورى والتشاور، ونفذ أوامر ربه الذي خاطبه قائلا: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ ومدح المتشاورين عندما قال سبحانه: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ فكان عليه السلام يستعين بآراء صحابته الكرام ويستأنس بها ولا يتوانى عن الأخذ بما هو صالح وحصيف منها.

جاءت طلعته البهية عليه السلام لتدعو الناس إلى التعاون على الخير والتآزر في صيانة المصلحة العامة للمسلمين واعتبرت المجتمع الإسلامي كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، ودعت إلى التكافل الاجتماعي وسد حاجات الفقراء والمحتاجين والمعوزين وتأمين وسائل الحياة الضرورية لهم.

والإسلام دين ودنيا يرشد ويربي ويعظ ويخاطب ويخطط، ويرسم الطريق للمسلمين في حلمهم وغضبهم، في سلمهم وحربهم، في صداقتهم وخصومتهم، في حكمهم وعدلهم، في حنوهم وعطفهم مع أصدقائهم وخصومهم، مع أتباعهم وشانئيهم... في تعاملهم وتجارتهم وفي سائر مناحي الحياة. ولم يقبض الله تعالى نبيه ومصطفاه إلى جواره الكريم إلا بعد أن شهد بعينيه نصر الله الذي وعده إياه، واطمأن ﷺ على أن الله سبحانه قد أعد لهذا الدين حُرَّاسا أمناء وقادة أشداء اتبعوا تعاليم نبيهم ورعوها حق رعايتها وأقاموا معالمها حتى خفقت راية الإسلام على العالم أجمع.

سلا ـ عثمان بن خضراء

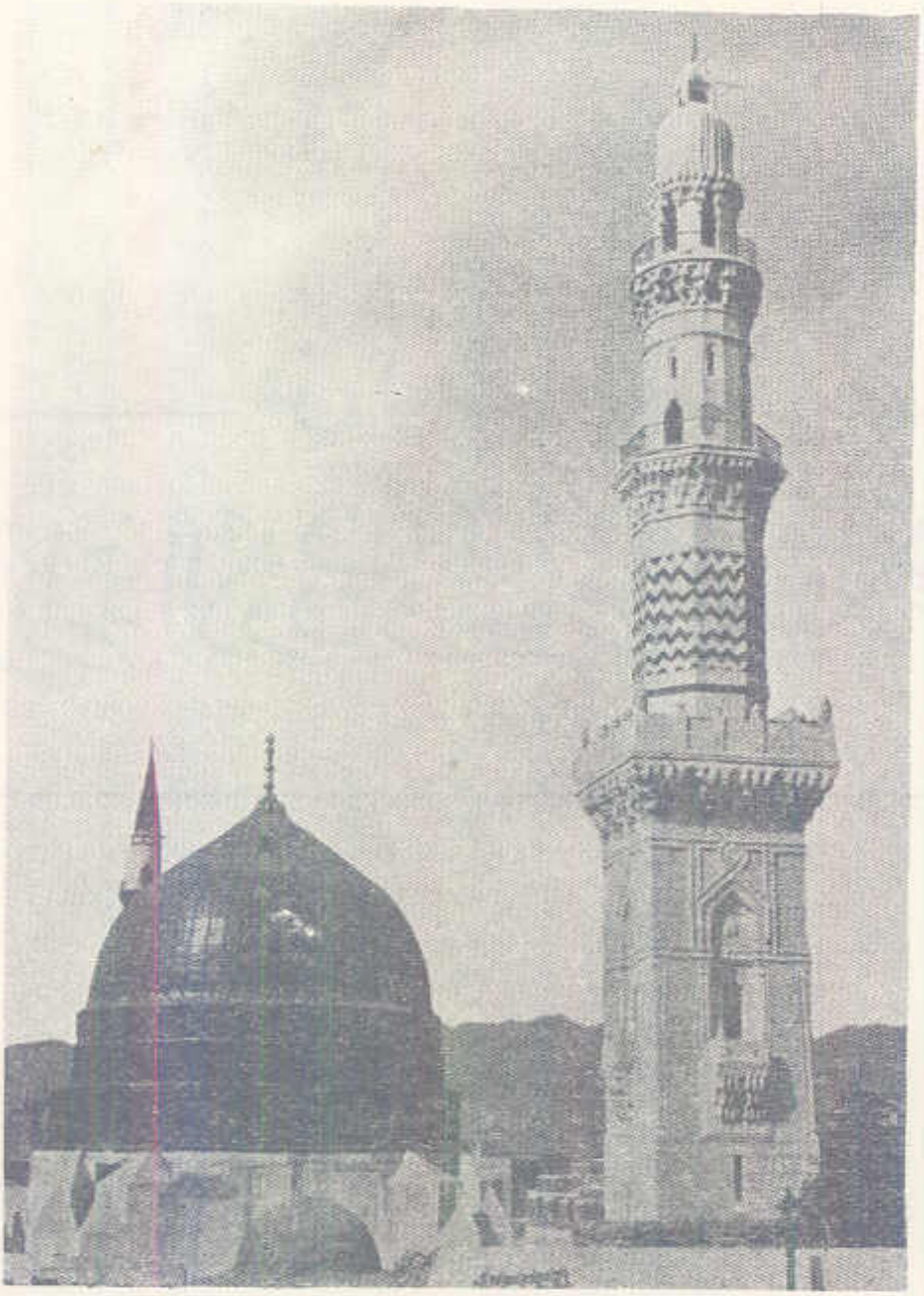

من نشاط

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

اجتماع
السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
بالسادة نظار الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة
يوم الاثنين 7 محرم الحرام 1411 هـ موافق 30 يوليوز 1990م.

عقد السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري اجتماعا عاديا مع السادة النظار في أقاليم المملكة، والقى سيادته كلمة بالمناسبة رحب بهم فيها، ثم تطرق إلى بعض النقط والقضايا التي تهم الوزارة في إطار التوجيهات المولوية لمولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني دام نصره وعلاه، وفي مقدمتها القرار الملكي السامي القاضي بمضاعفة أجور القيمين الدينيين، والسهر على تنفيذه بما يحقق الرعاية السامية والعطف المولوي الكريم على هذه الفئة من العاملين في مساجد الله وبيوته التي أذن الله سبحانه أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

ثم تطرق سيادته إلى نقطة هامة تتصل بما تعتزم الوزارة القيام به من تنظيم الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية، طبق التوجيهات الملكية السامية وتحت رعايته الكريمة، وذكرهم بما ينبغي أن يواكب انعقاد هذه الجامعة ومناسبتها من عمل إسلامي ونشاط كبير، وتوعية برعاية الدولة العلوية للدعوة الإسلامية والعلم والعلماء، كما دعاهم سيادته إلى الاهتمام برابطة علماء المغرب وتدعيم عملها ونشاطها، وإعداد لائحة بخيرة العلماء الذين يعملون في مجال الوعظ والإرشاد والخطابة، والذين ينبغي إلحاقهم بالرابطة ومشاركتهم في عضويتها ونشاطها.

وانتهى بالشكر والتنويه بالنظار على ما يبذلونه باستمرار من جهود مشكورة في مختلف الأعمال الموكولة إليهم في مجال الأوقاف والشؤون الإسلامية، وتهنئتهم بحلول السنة الهجرية الجديدة.

وختم السيد الوزير كلمته بالدعاء لأمير المؤمنين أن يحفظه الله ويديم نصره وعزه، ويجعل هذا العام عام خير ويمن وبركة على جلالته، وأن يقر الله عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد سمو الأمير مولاي رشيد، وأن يحفظه في كافة أسرته الملكية الشريفة إنه سميع مجيب.

صدور طبعة جديدة للرسالة الملكية التي وجّهها أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني إلى الأمّة الإسلاميّة بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري

بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري، كان أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره، قد وجه رسالة ملكية سامية إلى الأمة الإسلامية، وصدرت عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية طبعتها الأولى باللغة العربية، واللغة الفرنسية.

ونظرا لما تكتسيه هذه الرسالة الملكية من أهمية كبيرة، وما تشتمل عليه من توجيهات إسلامية. وقيم دينية، ومثل عليا فاضلة، وبمناسبة تنظيم الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية بولاية الدار البيضاء بتاريخ 6 ـ 12 صفر الخير 1411هـ موافق (28 غشت ـ 3 شتنبر 1990)، قامت الوزارة بإصدار طبعة جديدة لهذه الرسالة بأربع لغات: (العربية ـ الفرنسية ـ الإنجليزية ـ الإسبانية)، مجموعة في مطبوع واحد، توسيعا لدائرة الاستفادة منها، وتم توزيعها أثناء انعقاد ذلك الملتقى الإسلامي الهام على مختلف الشخصيات العلمية المشاركة فيه، سواء من داخل المغرب وخارجه.

وتعتبر هذه الرسالة وثيقة تاريخية تضاف إلى الخزانة الإسلامية، تعزيزا لذخائرها النفيسة، وكنوزها الثمينة.

صدور "التقويم الهجري السنوي" لعام 1411هـ

كعادتها كل سنة، قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بإصدار «التقويم الهجري السنوي لعام 1411هـ». يتضمن أوائل الشهور القمرية، وموافقها بالتاريخ الميلادي، كما يتضمن حصص أوقات الصلاة لأربع عشرة مدينة وهي :

- الرباط وسلا
- فاس
- الدار البيضاء
- مكناس
- وجدة
- طنجة
- تطوان
- بني ملال
- مراكش
- الصويرة
- أكادير
- العيون
- الداخلة
- الكويرة

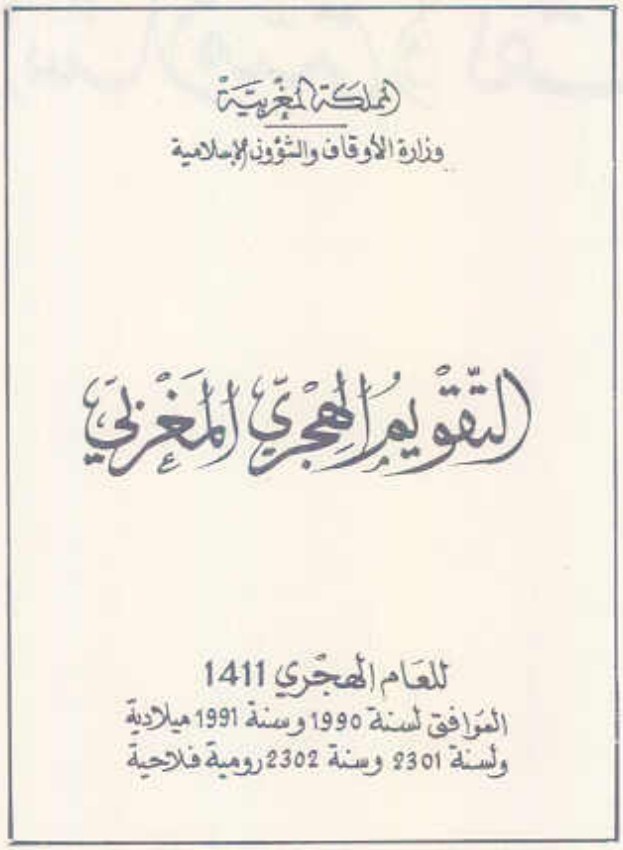

أخبار إسلامية وثقافية

أندونيسيا:

دورة تدريبية للأئمة والدعاة في أندونيسيا

نظمت في أندونيسيا الدورة التدريبية للأئمة والدعاة والتي شارك فيها أكثر من ثلاثمائة داعية وإمام من جميع أنحاء أندونيسيا بإشراف المجلس الأعلى العالمي للمساجد التابع لرابطة العالم الإسلامي لمدة 25 يوما. وقال الشيخ عبد الله العقيل الأمين العام المساعد لشؤون المساجد برابطة العالم الإسلامي: إن الأمانة العامة للمجلس أعدت الترتيبات اللازمة لإنجاح هذه الدورة، كما أعدت برنامجا حافلا بالنشاط الإسلامي مثل توزيع المشاركين في الدورة على مجموعات مع المدربين للقيام بزيارة المساجد لإلقاء المحاضرات والندوات أو تعريف المسلمين بأمور دينهم، بالإضافة إلى تكليف الدعاة كل يوم جمعة بإلقاء خطبة الجمعة، وزيارة الجمعيات والمدارس الإسلامية من أجل إعداد الدعاة إعدادا جيدا يحقق الهدف الذي من أجله أقيمت الدورة. وأضاف: إن هذه الدراسة ستكون مكثفة إضافة إلى الندوات والمسابقات الثقافية، وقد تم عمل جميع الترتيبات اللازمة لهذه الدورة، وإعداد سكن خاص للطلاب.

ألمانيا:

ندوة حول الإسلام

نظمت أكاديمية العلوم الإسلامية في مدينة كولونيا الألمانية ندوة بعنوان «الإسلام في أجهزة الإعلام الألمانية والأوروبية» شارك فيها عدد كبير من الأساتذة والعلماء من دول أوروبا والعالمين العربي والإسلامي.

وعالجت الندوة التي تعتبر الأولى من نوعها في جمهورية ألمانيا الاتحادية القضايا المتعلقة بالمواضيع الإسلامية وطرق معالجتها في الصحافة وأجهزة الإذاعة والتلفزيون الألمانية والأوروبية وإلقاء الضوء على المشاكل التي تواجه التجمعات الإسلامية في القارة الأوروبية والأحوال الفكرية والاجتماعية والثقافية التي تعيشها الجاليات الإسلامية في أوروبا وخاصة ألمانيا.

كما كشفت الندوة الطريق الصحيح الذي يؤدي إلى التعرف على أحوال المسلمين ونقل صورة صحيحة عن الإسلام.

والجدير بالذكر أن حوالي عشرة ملايين مسلم يعيشون في دول المجموعة الأوروبية.

وطالب المشاركون في هذه الندوة بعرض صورة واقعية عن الحضارة الإسلامية العريقة وتعاليم الإسلام في أجهزة الإعلام ومن خلال مناهج التربية والتعليم الألماني.

ابريطانيا:

ندوة عن الفكر الإسلامي في جامعة أكسفورد

قام مكتب «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» بلندن دورة صيفية عن الفكر الإسلامي في جامعة اكسفورد شارك فيها نخبة من الأساتذة والمختصين المهتمين بالفكر الإسلامي بإنجلترا.

وقال مدير الدورة أن الدورة تناولت دراسات صيفية مكثفة لطلبة من المستوى الجامعي والدراسات العليا في مواضيع منها: «المنهجية الإسلامية المعرفية»

البرازيل:

يوم إسلامي في البرازيل

نظمت في مدينة سان باولو احتفالات (يوم الجالية الإسلامية) في البرازيل.

وجاء في البيان الصادر في هذا الشأن من مجلس بلدية سان باولو: «إن دستور بلادنا الجديد ينص على حرية الأديان ولا يجوز أن يكون الأمر خلاف ذلك».

وأوضح البيان «ولوجود الآلاف من المسلمين في سان باولو ممن يساعدون في بناء مدينتنا وتشييدها وعلى الصعيد العالمي يوجد أكثر من مليار من المسلمين الموزعين في جميع القارات... في الواقع أن الإسلام هو الدين الأكثر نمواً في العالم في الوقت الحاضر.. وتشهد العاصمة الاتحادية برازيليا الآن تشييد مسجد فيها تبلغ مساحة البناء فيه (1612) متراً مربعاً لإقامة الصلوات فيه للعائلات الإسلامية الأربعمائة المقيمة فيها».

وقال البيان: «يكمن اهتمام هذا الدين الأساسي في نقل السلام والسعادة ونشرهما مطبقاً بذلك بصورة عملية التعاليم التي ينطوي عليها القرآن الكريم الذي هو مجموعة حقيقية كاملة من القوانين والمبادئ والقواعد للحياة إذ يعالج جميع وجوه الأنشطة الأرضية والروحية».

الاتحاد السوفياتي:

المسلمون السوفيات يسترجعون مساجدهم

بدأ مسلمو الاتحاد السوفياتي باسترجاع المساجد القديمة والمهدمة وترميمها وسوف يتم بناء (42) مسجدا في منطقة (أوفا) وفي مناطق أخرى.

صرح بذلك لوكالة الأنباء الإسلامية الدولية الشيخ طلعت تاج الدين مفتي ورئيس الشؤون الدينية لمسلمي القسم الأوروبي للاتحاد السوفياتي وسيبيريا.

وأضاف لقد تم فتح المعهد الإسلامي لدى الإدارة الدينية في مدينة (أوفا) وبدأنا

بإلقاء الدروس الدينية في المساجد للراغبين من مختلف الأعمار للرجال والنساء والشباب حيث يتعلمون القرآن الكريم ونصوص اللغة العربية والشريعة الإسلامية.

وقال: لقد نظم العلماء زيارات أيضا للسجون لإلقاء المواعظ التي تتعلق بأخلاقيات المسلم.

وأوضح قائلا: يجب أن أذكر أن الاتحاد السوفياتي شهد تغييرات في المواقف تجاه المسلمين ونحن بدورنا نعمل على استغلال هذه الفرصة. وقد سعينا لدى الحكومة للحصول على قطع من الأرض لنقيم عليها مساجد بالجهود الذاتية. ومسلمو بلادنا في حاجة أيضا لدعم إخوانهم المسلمين في الأقطار الإسلامية لبناء المعاهد الإسلامية ومدنا بالكتب العلمية والإسلامية وتنشيط العمل الإسلامي.

والجدير بالذكر أن عدد مسلمي الاتحاد السوفياتي يبلغ 70 مليون مسلم ويدير شؤون المسلمين هناك أربع إدارات دينية مستقلة وتهتم هذه الإدارات بالأمور الدينية ونشر الدعوة الإسلامية وإعداد كوادر الأئمة والخطباء وإصدار الكتب الدينية والنشرات الإسلامية.

جنوب إفريقيا:

مسجد جديد في كيب تاون

وافق مجلس مدينة كيب تاون على طلب من المسلمين في المدينة لإقامة مسجد جديد في ضاحية جوديث بارل. سيكلف نصف مليون دولار ويتسع لأربعمائة مصل.

وقد أيد رئيس المجلس البلدي للمدينة طلب المسلمين بحماس.. وقال: إن المجتمع الإسلامي في مدينة جوهانسبرج قد طور المدينة وأفادها أمنيا وخلقيا، وكذلك فعلوا في المناطق الأخرى التي عاشوا فيها.. وقد انتقلت عائلات إسلامية كثيرة للعيش في الحي الذي سيقام فيه المسجد.

ومن ناحية أخرى فقد شكل المسلمون في كيب تاون كما يقول مراسل وكالة الأنباء الإسلامية «عبد الرشيد توبدات» شكلوا مجلسا تنسيقيا للاهتمام بشؤون المسلمين في كل منطقة من مناطق جنوب إفريقيا كما سيهتم ضمن أمور أخرى بتعليم المسلمين في كل العلوم الإسلامية وبناء المساجد والمدارس الإسلامية.

وفي الاجتماع التأسيسي لهذا المجلس ألقى الشيخ نظيم محمد رئيس المجلس الإسلامي الفقهي كلمة طالب فيها المسلمين في جنوب إفريقيا بالالتزام التام بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية والابتعاد عما يخالف تعاليم الإسلام الحنيف.

مصر:

مركز للدراسات الإسلامية في الأزهر

ناقش مجلس جامعة الأزهر إنشاء مركز للدراسات الإسلامية والعربية والقانونية يهدف للتنسيق بين الكليات والأقسام العلمية المماثلة من حيث توحيد المناهج واختيار الكتب التي تدرس شروط القبول بكلية الدراسات العليا.

ويشتمل نشاط المركز على الموضوعات الجامعية وكذلك القضايا والمشاكل التي تهم المجتمع التي تظهر في محيطه من آن لآخر.

المغرب:

دراسة عن تعليم القرآن الكريم

ـ صدر في الرباط كتاب إسلامي بعنوان: «الأجزاء القرآنية المتداولة ودورها في تحفيظ القرآن وتعليمه» لمؤلفه عبد العزيز محمد العيادي.

والكتاب دراسة علمية موثقة للشروط التعليمية التي تؤدي إلى نشر رسالة القرآن الكريم من خلال حفظه حفظاً متقناً، وتعلمه بالطريقة المنهجية التي ينتج عنها فهم الأحكام والدراية بمقاصد الآيات القرآنية.

المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الإيسيسكو) بالرباط، تضع برنامجا خاصا لمحو الأمية

ـ يهدف برنامج المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ـ الإيسيسكو ـ الإسلامي الخاص بمحو الأمية والتكوين الأساسي لجميع البلدان والجماعات الإسلامية، إلى تحقيق مجموعة من الأهداف من أهمها جعل محاربة الأمية أولوية مطلقة لكون الأمية تمثل حاجزا قويا يحول بين الأمي وبين ممارسة حقه الطبيعي في اكتساب المعرفة والقدرة على التواصل، إضافة إلى تشجيع التكوين الأساسي ذي المحتوى العلمي والوظيفي لفائدة الراشدين والشباب من الجنسين مع إيلاء عناية خاصة للنساء والقرويين والمعوزين والمعوقين والاستفادة من كافة البنيات المتوفرة لتنظيم حملات محو الأمية والتربية الأساسية على أوسع نطاق.

كما يهدف البرنامج إلى إعادة الاعتبار للغات الوطنية عن طريق كتابتها بالحرف العربي كلما عبر السكان عن رغبتهم في ذلك.. وإذكاء روح التضامن بين مختلف شرائح المجتمع بتعبئتها لخدمة هدف تنموي وتوثيق أواصر التضامن والتكافل بين

البلدان الإسلامية.

وعلى صعيد العالم الإسلامي أوصى البرنامج بإقامة هيئة عليا للبرنامج الإسلامي الخاص تشارك في تسييرها الهيئات الخيرية والمؤسسات الإسلامية التي لها وسائل لدعم البرنامج الإسلامي الخاص، وإنشاء صندوق مركزي للبرنامج الإسلامي الخاص تحت إشراف الهيئات والمؤسسات الإسلامية. وتشجيع اللقاءات والمؤتمرات والتشاور المستمر بهدف تيسير تبادل الخبرات والقيام بأعمال مشتركة.

ويعتمد البرنامج الإسلامي على خطة عمل ممتدة على مدى عشر سنوات تبتدئ خلال هذا العام وتتبع العوامل التالية منها تخصيص السنة الأولى لخمسة أنشطة هي مشاركة الرأي العام الوطني وإنشاء لجان محلية لرعاية البرنامج، إلى جانب إقامة الأجهزة المختصة لضمان عمليات جمع الموارد، خاصة ما تيسر من الزكاة، وإنشاء أجهزة للمتابعة والمراقبة والتقييم.

اليمن:

خطة للشؤون الدينية في اليمن

قال وزير الأوقاف والإرشاد اليمني محسن العلفي: إن الجمهورية اليمنية ستنفذ خطة جديدة في مجال الأوقاف والإرشاد حيث ستعمل على رعاية المساجد ومجالس تحفيظ القرآن الكريم، وحماية الكتب والحفاظ عليها، وترميم المباني المرتبطة بالتراث الإسلامي.

وأضاف: «إن هناك خطة لإنشاء إدارة حديثة لأموال الأوقاف واستثمارها بحيث تعطي عوائد تعود بالنفع على الأوقاف والمساجد، بالإضافة إلى إجراء دراسة متطورة لإحياء التراث الإسلامي.

دعوة

إلى السادة العلماء والأساتذة والباحثين كتاب المجلة

استمرارا للدور الطلائعي الذي ظلت تضطلع به مجلة دعوة الحق في مجال رسالتها الإسلامية الخالدة،ووعيا بالمكانة المرموقة التي لها في الأوساط الثقافية والفكرية والعلمية داخل المغرب وخارجه، واعتبارا بأن المادة الخام والرصيد الهام لكل مجلة ثقافية هو ما يزودها به كتابها وقراؤها الكرام على اختلاف توجهاتهم وتخصصاتهم في العلوم والثقافة الإسلامية، والآداب والمعارف الإنسانية والحضارية.

يسعد هذه المجلة أن تدعو قراءها الفضلاء أساتذة وباحثين وعلماء وأُدباء، وأن تهيب بهم وتستنهض هممهم وتستحث أقلامهم للمشاركة المتواصلة، بكتاباتهم القيمة، والإسهام المتنوع والمبدع في المسيرة التي تنهض بها أمتنا الإسلامية، حتى تظل هذه المجلة الرائدة في المستوى العلمي والثقافي الرفيع الذي رسمه لها مؤسسها الأول باعث النهضة الإسلامية والفكرية جلالة المغفور له محمد الخامس ويريده لها خلفه البارّ، ووارث سّره الملهم أمير المومنين جلالة الحسن الثاني، وينشده القراء الدارسون، والباحثون المتخصصون الذين يجدون فيها ضالتهم المنشودة وبغيتهم المطلوبة من تنوع مباحث المعرفة الإسلامية،والآداب والعلوم الإنسانية.

وفق الله الجميع لخدمة العلم والدين، والوطن والمسلمين.

دعوة الحق

فهرس العدد

□ تهنئة 1

□ افتتاحية العدد :

ـ ويابى الله إلا أن يتم نوره..... 7

* خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده بمناسبة عيد الشباب المجيد..... 14

* خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده بمناسبة الذكرى السابعة والثلاثين لثورة الملك والشعب..... 23

□ أبحاث ودراسات وقصائد.

ـ الحاج امحمد أباحنيني المثقف النموذج

للأستاذ أحمد ابن سودة مستشار صاحب الجلالة..... 29

ـ خصائص النثر الفني عند الحاج امحمد ابا احنيني

للدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية..... 39

ـ حديث : «السلطان ظل الله في الأرض» ثابت عن النبي ﷺ ومشهور مستفيض

للدكتور إبراهيم بن الصديق 44

ـ النسر الأبيض

محمد بن يوسف كما رأيته

للمرحوم الأستاذ أحمد حسن الباقوري

وزير الأوقاف المصري سابقا..... 49

- دعـــــاء

للشاعر محمد الحلوي 55

- الخزائن العلمية بمدينة تارودانت وما إليها

للأستاذ محمد المنوني 58

- من وحي الخطاب الملكي السامي لثامن مايو 1990

الأصول الإسلامية للحقوق الإنسانية

للأستاذ أحمد افزاز

الكاتب العـام لوزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية

ورئيـس المجلس العلمـي الإقليمـي بوجـدة..... 63

- برور محمد الخامس بأستاذه وإمام قصره

للأستاذ أحمد مصطفى عاشور..... 72

- دراسة في موضوع دور الاجتهاد في مواكبة المستجدات بالنظر لمقاصد الشريعة

للأستاذ محمد حمود..... 80

- متى يتقاعد الشاعر...؟

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي..... 87

- إشـهد ياغشت

للشاعر عبد الله سليماني..... 91

- ذكرى عيد الشباب، تأهب للعمل باستمرار

للأستاذ عبد السلام جبران المسفيوي

رئيس المجلس العلمي الإقليمي بمراكش..... 94

- إطلالة على التصوف المغربي وتاريخه

للأستاذ محمد علي بن الصديق..... 97

- جلالة الملك الحسن الثاني داعية سلم ورائد سلام

للشيخ ماء العينين لارباس

رئيس المجلس العلمي الإقليمي بالعيون..... 104

- نبذة تاريخية عن حلقات الدروس العلمية برباط الفتح من خلال مذكرات الفقيه محمد بن محمد الأزرق الرباطي

للأستاذ عبد الحق بنطوجّة..... 108

- جلالة الملك الحسن الثاني رمز الشباب

للشاعر مولاي الطيب المريني دنيا..... 114

- أثر الإيمان في تربية الشباب

للشيخ محمد حـدّو أمزيان

رئيس المجلس العلمي الإقليمي بتطوان..... 116

- صورة اعتناء الموحدين بسجلماسة مهد الشرفاء العلويين في عهد الخليفة المرتضى

للأستاذ إدريس العلوي البلغيثي..... 122

- كتبنا على سفر الخلود ملاحما

للشاعر موحا ومان..... 127

- رسول الإنسانية

للأستاذ عبد القادر العافية..... 130

- دعوة الرسول دعوة الحق

للأستاذ عثمان بن خضراء..... 135

□ من نشاط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

- اجتماع السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالسادة نظار الأوقـاف بالمملكة..... 141

- صدور طبعة جديدة للرسالة الملكية الموجهة إلى الأمة الإسلامية بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري..... 142
- صدور التقويم الهجري السنوي لعام 1411 هـ..... 143
□ **أخبار إسلامية وثقافية**..... 145

مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

يصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط - المملكة المغربية

أسسها:
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه

سنة
1377 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

"إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ
كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا".

(حديث شريف)

المسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة